

بول أوستر

مستر فيرتيجو

ترجمة

عبد المقصود عبد الكريم



2509

سلسلة
الإبداع
القصصى



مستر فيرتيجو

رواية

تأليف: بول أوستر

ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم



2015

مسترفیرتیجو

روایت

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2509
- مستر فيرتيجو
- بول أوستر
- عبد المقصود عبد الكريم
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

Mr. Vertigo

By: Paul Auster

Copyright © Paul Auster, 1994

Arabic Translation © 2015, National Center for Translation

All Rights Reserved including the right of reproduction in
whole or in part in any form.

This Edition published by arrangement with Viking, a member
of Penguin Group (USA) Inc.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أوستر، بول، ١٩٤٧-

مستر فير تيجو: رواية / تأليف بول أوستر؛ ترجمة عبد المقصود

عبد الكريم -. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥

عدد الصفحات: ٣٤٤ صفحة.

المقاس: ٢٠ × ١٤ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٩٢٠٤٠٩٣

١- القصص الأمريكية

أ - عبد الكريم، عبد المقصود (مترجم)

٨٢٣

ب - العنوان

رقم الإيداع
٢٠١٥ / ١٧٨٧٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

I

كُنْتُ في الثانية عشرة حين سَرْتُ على الماء أول مرة، علمني الرجل ذو الثياب السوداء أن أفعل ذلك، ولن أظاهر بأنني تعلمت الحيلة بين عشية وضحاها. عثر عليَّ "الأستاذ يهودي" وأنا في التاسعة، وكنت ولدًا يتيمًا يتسول السنتات في شوارع "سانت لويس"^(١)، وعمل معي بدأب لثلاثة أعوام قبل أن يتركني أعرض أعمالي علانية. كان ذلك في ١٩٢٧، سنة «بيب رث» و«تشارلز ليندبرج»^(٢)، السنة التي بدأ فيها الليل يسقط على العالم إلى الأبد، ظلمت أقوم بها إلى ما قبل انهيار أكتوبر بأيام قليلة، وكان ما قمتُ به أعظم مما حلم به هذان الشخصان. فعلتُ ما لم يفعله أمريكي قبلي، ولم يفعله أحد من حينها.

اختارني الأستاذ يهودي لأنني كنت الأكثر ضالةً جسمًا، والأقذر والأكثر خسة. قال: «لست أفضل من حيوان، إنك جزء من العدم الإنساني». هذه أول جملة قالها لي، ورغم مرور ثمانية وستين عامًا على تلك الليلة، يبدو وكأنني ما زلت أسمع الكلمات تنبعث من فم الأستاذ: «لست أفضل من حيوان، ستموت قبل انتهاء الشتاء إذا بقيت حيث أنت، وساعلمك كيف تطير إذا أتيت معي».

قلتُ: «لا أحد يستطيع الطيران يا مُستَر. ذلك ما تفعله الطيور، وأنا متأكد تمامًا من أنني لست طائرًا».

(١) سانت لويس: مدينة في شرق ولاية ميسوري، تقع على نهر الميسيسيبي. (كل الهوامش للمترجم).

(٢) بيب رث (١٨٩٥-١٩٤٨): لاعب بيسبول أمريكي. تشارلز ليندبرج (١٩٠٢-١٩٧٤): طيار أمريكي، أول من عبر الأطلنطي (٢٠-٢١ مايو ١٩٢٧).

قال الأستاذ يهودي: «لا تعرف شيئاً؛ لا تعرف شيئاً لأنك لا شيء، إذا لم أعلمك الطيران بحلول عيد ميلادك الثالث عشر، يمكنك أن تقطع رأسي بفأس، سأتعهد بذلك كتابة إذا أحببت، سيكون مصيري بين يديك إذا فشلْتُ في الوفاء بوعدِي».

كانت ليلة سبت في أوائل نوفمبر، وكنا نقف أمام «كافيه براديز»، وهو كافيه رائع وسط المدينة تعزف فيه موسيقى جاز متميزة، وبه فتيات يُدخُن سجاير ويرتدين ثياباً شفافة. اعتدْتُ على التسكع هناك في نهاية الأسبوع، أتسول الحسنات، وأنقل رسائل، وأوفر سيارات أجرة لأشخاص متأنقين. في البداية ظننْتُ أن الأستاذ يهودي ليس إلا سكيراً آخر، سكيراً ثرياً مترنحاً يتعثر أثناء الليل في سترٍ سوداء، وقبعة من الحرير. كانت لهجته غريبة، ولذا تصورت أنه من خارج البلدة، وكان هذا بقدر ما أعرف، يتفوه السكارى بكلام غبي، ولم يكن الحديث عن الطيران أكثر غباءً من معظم ما ينطقون به.

قُلْتُ: «إذا ارتفعتَ عاليًا جداً في الهواء، يمكن أن ينكسر عنقك وأنت تهبط».

قال الأستاذ: «نتحدث عن التقنية فيما بعد، ليست مهارة سهلة التعلم، لكن إذا سمعتَ كلامي وأطعتَ تعليماتي، سوف نصبح من المليونيرات».

قُلْتُ: «أنت مليونير بالفعل. لماذا تحتاج إليّ؟»

«لأنني، يا سفاحي الرث الصغير، من النادر أن أمتلك قطعتين من فئة عشرة سنتات معاً. ربما أبدو لك مثل بارون لص^(١)، ذلك

(١) بارون لص: من أقطاب المال في أمريكا في القرن التاسع عشر، ممن اغتنوا بشكل غير قانوني.

فقط لأنك غبي. استمع إليّ جيداً، أعرض عليك فرصة العمر، فرصة لا تصادفها إلا مرة. حجزتُ في قطار «بلو بيرد سبيشال» في السادسة والنصف، وهي آخر مرة تراني فيها إذا لم تركب هذا القطار».

قلتُ: «لم تجب عن سؤالي بعد».

«لأنك استجابة دعائي يا بني. لهذا أريدك. لأن لديك الموهبة».

«الموهبة؟ لا أتمتع بأية موهبة، ولو كان لدي فماذا تعرف عنها، يا مستر ستر؟ بدأتُ الحديث معي منذ دقيقة».

قال الأستاذ يهودي: «تخطئ مرة أخرى. راقبتُك أسبوعاً، وإذا كنت تظن أن خالك وزوجته سيأسفان لرؤيتك ترحل، فإنك لا تعرف مع من تعيش في آخر أربع سنوات».

قلت فجأة: «خالي وزوجته؟» مُدركاً أن هذا الرجل لم يكن من سكارى ليلة السبت، كان أسوأ من ذلك: ضابطاً أو شرطياً مسئولاً عن المتسربين من المدارس، ومن المؤكد وأنا أقف هناك، كنت غارقاً في الوحل حتى ركبتي.

واصل الأستاذ دون أن يستغرق وقتاً في جذب انتباهي: «خالك سليم صعب، لم أر قط مواطناً أمريكياً بهذا الغباء؛ ليس كرية الرائحة فقط، لكنه خسيس وبشع حتى النخاع؛ لا غرابة في أنك صرت مراوِغاً من أبناء الشوارع، دار بيننا، أنا وخالك، حوار طويل هذا الصباح، وهو يرغب في أن ترحل دون مقابل، تخيل ذلك يا ولد، ليس عليّ حتى أن أدفع ثمناً لك. وذلك الخنزير البدين

يحدث زوجته التي اكتفت بالجلوس، ولم تنطق بكلمة دفاعًا عنك؛ إذا كان ذلك أفضل ما يمكن أن تفعله لأسرة، فأنت محظوظ حين تتخلص من هذين الاثنين، القرار قرارك، لكن حتى إذا رفضت طلبي، فقد لا تكون عودتك فكرة طيبة، يمكنني أن أقول لك إنهما سيشعران بخيبة الأمل تمامًا إذا رأياك مرة أخرى. ستشعر بالذهول والأسى، إذا عرفت ما أعنيه».

ربما كنت حيوانًا، لكن حتى أدني حيوان لديه مشاعر، وحين صب عليّ الأستاذ هذه الأخبار، شعرت كأنني تلقيت بعض اللكمات، لم يكن الخال سليم وزوجته «بج» مهمين، لكنني كنت أعيش في بيتهما، وذهلت حين علمت أنهما لا يرغبان في وجودي. لم أكن قد تجاوزت التاسعة رغم كل شيء. كنت فظا في ذلك العمر، لكنني لم أكن فظًا نصف ما أنتظر به، وإذا لم ينظر الأستاذ إليّ بتلكما العينين السوداوين الصائبتين، ربما بدأت على الفور الصياح في الشارع.

حين أعود الآن التفكير في تلك الليلة، ما زلت غير متأكد مما إذا كان يخبرني بالحقيقة أم لا، ربما تحدث إليّ خالي وزوجته، لكن ربما أيضًا اختلق المسألة كلها، لا أشك في أنه رأهما. كان يصفهما بدقة. لكن بمعرفة الخال سليم، يذهلني بما يتجاوز المستحيل أنه تركني أرحل دون أن يحصل على بعض النقود من الاتفاق، لا أقول إن الأستاذ يهودي خدعه، لكن نظرًا لما حدث بعد ذلك، لا شك في أن الملعون أخطأ، سواء كان الحق في جانبه أم لم يكن، لن أضيع الوقت في التفكير كثيرًا في ذلك الآن؛ كانت النتيجة أنني استجبت لطلب الأستاذ، وعلى المدى البعيد تلك هي الحقيقة الوحيدة التي تستحق القول، أقنعني بأنني لا أستطيع الذهاب إلى البيت، وبمجرد أن قبلت ذلك، لم أعد أهتم بنفسي. لا بد أن ذلك ما كان يريد أن أشعر

به- التوتر التام والشعور بالضيق، من الصعب أن تُبالي بما يحدث لك إذا لم يكن لديك سبب لتواصل الحياة، تقول لنفسك: إنك تود أن تكون ميتاً، وبعد ذلك تكون مستعداً لأي شيء- حتى لو كان شيئاً مجنوناً مثل التلاشي في الليل مع غريب.

قلتُ، خافضاً صوتي كثيراً، ومحددًا فيه بنظرة وحشية: «حسنًا، يا مستر، فزت بصفقة، لكنك إذا لم تنفذ ما قلتُ لي، يمكنك أن تقبل رأسك قبلة الوداع، ربما أكون ضئيلاً لكنني لم أترك قط إنساناً ينسى وعده».

كانت الدنيا لا تزال مظلمة حين ركبنا القطار، سرنا إلى الغرب في الفجر، مسافرين عبر ولاية «ميسوري»^(١) والضوء الشاحب في نوفمبر يكافح لينفذ من خلال السحب. لم أخرج من سانت لويس منذ اليوم الذي دفنوا فيه أمي، وكان عالمًا كنييا اكتشفته ذلك الصباح: سماء رمادية وأراض قاحلة، مع حقول لا نهاية لها من سيقان ذرة ذابلة تحيط بنا على الجانبين. دخلنا مدينة كنساس^(٢) بعد الظهر بقليل، لكن في كل الساعات التي قضيناها معًا لا أظن أن الأستاذ يهودي تبادل معي أكثر من ثلاث كلمات أو أربع، نام معظم الوقت، يغلبه النوم بشكل متقطع وقبعته ساقطة على وجهه، لكنني كنت مرعوبًا بشكل يحول دون أن أفعل أي شيء سوى النظر من الشباك، أشاهد الأرض تمر بجواري وأنا أفكر في الورطة التي ورطت نفسي فيها. حذرني رفاقي في سانت لويس من الشخصيات التي تشبه الأستاذ يهودي: جوالين فرادى بتصميمات شيطانية، مارقين يجوسون بحثًا عن فتية صغار لتحقيق مآربهم، كان شيئًا جدًا أن أتخيله يخلع

(١) ميسوري: ولاية في وسط أمريكا.

(٢) كنساس: مدينة في غرب ولاية ميسوري.

ملابسي ويلمسني حيث لا أريد أن أُلْمَس، لكن ذلك لم يكن شيئاً مقارنة بالخاوف الأخرى التي تتسكع في جمجمتي؛ سمعتُ عن ولد ذهب مع غريب ولم يُعرف عنه شيءٌ بعد ذلك، بعد ذلك اعترف الرجل بأنه قطع الولد إلى قطع صغيرة وسلقه وتعشى به، رُبط ولدٌ آخر بسلاسل إلى جدار في قبو مظلم ولم يتوفر له من الطعام سوى الخبز والماء لسنة أشهر، نُزِع جلد ولد آخر عن عظامه، كان لدي وقت لأتأمل ما فعلتُ، تبيّنتُ أنني ربما أتصرف بالطريقة نفسها، تركتُ نفسي أقع في براثن وحش، وإذا تبين أنه مرعب نصف ما يبدو عليه، فمن المرجح أنني لن أرى الفجر مرة أخرى.

نزلنا من القطار وبدأنا السير على الرصيف، شاقين طريقنا عبر الزحام. قلتُ، جاذبا معطف الأستاذ يهودي: «سأسلمك لأول شرطي أراه إذا لم تطعمني الآن».

قال: «ماذا عن التفاحة التي أعطيتها لك؟»

«رميتها من شبك القطار».

«لا تحب التفاح، أليس كذلك؟ وماذا عن سندويتش فخذ الخنزير؟ إذا تغاضينا عن رجل الدجاجة المحمرة، وكيس الكعك».

«رميتها كلها. لا تتوقع أن أكل الطعام الذي أعطيتَه لي، أليس كذلك؟»

«ولماذا لا أيها الرجل الصغير؟ إذا لم تأكل فسوف تذوى وتموت، يعرف الجميع ذلك».

«بتلك الطريقة أموت ببطء على الأقل، لكنني إذا تناولت شيئاً مليئاً بالسم، أموت في الحال».

للمرة الأولى يبتسم الأستاذ يهودي منذ قابلته. إذا لم أكن مخطئاً، أعتقد أنه تمادى إلى درجة الضحك. «تقول إنك لا تثق في، أليس كذلك؟».

«إنك لعنة صريحة، لا أثق فيك مادمت أستطيع أن أقذف بغلاً ميتاً».

قال الأستاذ، وهو يربت على كتفي بعطف: «أهدأ يا بني. أنت مورد رزقي، تتذكر؟ لن أؤذي شعرة على رأسك».

كانت تلك هي الكلمات بالضبط بقدر ما يعنيني، ولم أكن غيباً بدرجة تجعلني أبلغ ذلك النوع من الكلام المعسول، لكن الأستاذ يهودي مدّ يده إلى محفظته وأخرج ورقة بدولار جديد تماماً، ووضعه في كفي، قائلاً، وهو يشير إلى مطعم وسط المحطة: «هل ترى ذلك المطعم؟ ادخله واطلب لنفسك أكبر غداء يمكن أن تحشره في بطنك. سأنتظرك في الخارج هنا».

«وماذا عنك؟ هل تأخذ موقفاً من الأكل؟»

رد الأستاذ يهودي: «لا تقلق بشأن معدتي تستطيع أن تهتم بنفسها». ثم أضاف وأنا ألتفتُ لأمضي: «نصيحة واحدة، يا تافه؛ إذا كنت تخطط للهروب فهذا هو الوقت المناسب، ولا تقلق بشأن الدولار؛ يمكنك أن تحتفظ به مقابل قلقك».

سرتُ إلى المطعم وحدي، وقد جعلتني كلمات الفراق هادئاً إلى حد ما، إذا كان ينوي على شر، فلماذا يعرض عليّ فرصة للهروب؟ جلستُ على الطاولة وطلبتُ وجبة رخيصة وزجاجة

فشاغ^(١) قبل أن أرمش، كوم النادل أمامي جبلاً من لحم البقر المملح والكرنب. كانت أكبر وجبة رأيْتُها، وجبة بحجم سبور تسمان بارك^(٢) في سانت لويس، والتهمْتُها كلها حتى آخر لقمة، بالإضافة إلى شريحتين من الخبز وزجاجة ثانية من الفشاغ. لا شيء يعادل الإحساس بالسعادة التي اجتاحتني على تلك الطاولة القذرة وأنا أتناول الغداء. بمجرد امتلاء بطني، شعرتُ بأنني لا يمكن أن أغلب، وكأنني لا يمكن أن يؤذيني شيء مرة أخرى. جاءت أروع لمسة القمة وأنا أخلص الدولار من جيبي لأدفع الثمن. تكلفت المسألة كلها خمسة وأربعين سنتاً، وحتى بعد أن أقيتُ خمسة سنتات بقشيشاً للنادل تبقى معي خمسون سنتاً. لا تبدو كثيرة اليوم، لكن كان ربعا دولار ثروة بالنسبة لي في ذلك الوقت. قلت لنفسِي: إنها فرصتي للهروب، اندفعت وأنا أغادر مقعدي. يمكنني أن أتسلل من الباب الجانبي، ولن يعرف أبداً الرجل الذي يرتدي الملابس السوداء ما أصابه، لكنني لم أفعل ذلك، وفي ذلك الاختيار تعلقت قصة حياتي كلها، عدْتُ إلى حيث ينتظر الأستاذ لأنه وعد بأن يجعلني مليونيراً. بقوة تلك الخمسين سنتاً، تصوَّرتُ بأن الأمر يستحق أن أرى إن كانت هناك حقيقة تدعو إلى التفاخر.

ركبنا قطاراً آخر بعد ذلك، ثم ركبنا قطاراً ثالثاً قرب نهاية الرحلة ووصلنا إلى بلدة سيبول^(٣) تلك الليلة في الساعة السابعة.

(١) الفشاغ: شراب محليّ بنكهة جذور الفشاغ، وهو نبات أمريكي ينمو في المناطق الحارة.

(٢) سبور تسمان بارك: اسم لعدة بنايات سابقة لملاعب البيسبول في سانت لويس بولاية ميسوري.

(٣) سيبول: بلدة شمال نيو مكسيكو.

صمت الأستاذ يهودي طوال الصباح، لكنه لم يتوقف تقريبًا عن الكلام بقية اليوم. تعلمت بالفعل ألا أضع أية فرضيات عما قد يفعله أو لا يفعله. بمجرد أن تظن أنك استوعبته، يتحول ويفعل عكس ما تتوقعه بالضبط.

قال، معلناً لي عن اسمه أول مرة: «يمكنك أن تدعوني الأستاذ يهودي، وإذا أحببتَ يمكن أن تدعوني الأستاذ اختصارًا، لكن لا تدعني يهودي تحت أي ظرف. واضح؟»

قلتُ: «هل هذا هو الاسم الذي وهبه لك الرب، أم أنك اخترتَ هذا اللقب بنفسك؟»

«لا حاجة بك إلى أن تعرف اسمي الحقيقي، سيكون الأستاذ يهودي كافيًا».

«حسنًا، أنا والتر. والتر كليربورن رولي. لكن يمكنك أن تدعوني والت».

«سأدعوك بما أحب؛ إذا أردتُ أن أدعوك دودة فسادعوك دودة، وإذا أردتُ أن أدعوك خنزيرًا فسادعوك خنزيرًا. مفهوم؟»

«جسيم يا مُشتر، لا أفهم ما تتحدث عنه».

«ولن أحتمل أي كذب أو خداع، لا أعذار، لا شكاوى، لا ردود وقحة، بمجرد أن تلتزم بذلك، ستكون أسعد ولد على الأرض».

«بالتأكيد، وإذا كان لسكران سيقان، يمكنه أن يتبول واقفًا».

«أعرف قصتك يا بني، وعليك ألا تخترع أية حكايات طويلة من أجلي؛ أعرف كيف مات أبوك بالغاز في بلجيكا سنة ١٩١٧،

وأعرفُ ما يتعلق بأمك أيضًا، وكيف اعتادت أن تمارس الحيل في شرق سانت لويس من أجل رجل، وما حدث لها منذ أربعة أعوام ونصف حين وجه ذلك الشرطي المجنون مسدسه وأطلق النار على وجهها، لا تعتقدُ أنني لا أشفق عليك يا ولدي، لكنك لن تصل إلى شيء أبدًا إذا هربت من الحقيقة وأنت تتعامل معي».

«حسنًا يا مستر مدّع، إذا كنت تعرف كل الإجابات فلماذا تضيع جهدك في إخباري بأشياء تعرفها بالفعل؟»

«لأنك لا تصدق كلمة مما قلتُ، إنك تعتقد أن مسألة الطيران كلام فارغ، ستعمل بجدية يا والت، بجدية أكثر مما عملتَ من قبل، وسترغب في الفرار مني كل يوم تقريبًا، لكنك إذا التزمتَ بما عليك، ووثقتَ فيما أقول، فسوف تكون قادرًا على الطيران بعد سنوات قليلة. أقسم لك. سوف تكون قادرًا على الإقلاع عن الأرض والطيران في الهواء مثل طائر».

«أنا من ميسوري، تتذكر؟ لم يلقبوها 'ولاية الاستعراض' عبثًا».

«حسنًا، لم نعد في ميسوري يا صديقي الصغير. إننا في كانساس، مكان أكثر استواءً، وأكثر بؤسًا لم تره قط في حياتك. حين زحف كورونادو^(١) ورجاله إلى هنا في ١٥٤٠ بحثًا عن 'مدن الذهب'، ضلوا وجُنّ نصفهم، ليس هناك ما يدلك على موضعك؛ لا جبال، ولا أشجار، ولا مدقات على الطريق، إنها هنا مستوية مثل الموت، وبمجرد أن تقضي هنا بعض الوقت، تفهم أنك لا يمكن أن تذهب إلا إلى أعلى - تلك السماء صديقك الوحيد».

(١) كورونادو (١٥١٠-١٥٥٤): مستكشف إسباني.

حل الظلام ونحن ندخل المحطة، ولم يكن هناك سبيل لتأكيد وصف الأستاذ لوطني الجديد. بقدر ما أعرف، لم تكن البلدة تختلف عما توقعتُ أن أراه في بلدة صغيرة. أبرد قليلاً، ربما، وأكثر ظلاماً مما تعودتُ، لكن نظراً إلى أنني لم أذهب إلى بلدة صغيرة من قبل، لم تكن لدي فكرة عما أتوقعه. كان كل شيء جديداً بالنسبة لي: بدت كل الروائح غريبة، وكل النجوم في السماء غير مألوفة. إذا أخبرني أحد بأنني أدخل فقط «أرض الإوز»^(١) لا أعتقد أنني سأعرف الفرق.

سرنا خلال مبنى الحراسة ووقفنا خارج الباب لحظة نتفحص القرية المظلمة، لم تكن الساعة تجاوزت السابعة مساءً، لكن المكان كله كان مغلقاً، وباستثناء بضعة مصابيح تشتعل في المنازل خلفها، لم يكن هناك مظهر من مظاهر الحياة في أي مكان. قال الأستاذ يهودي: «لا تقلق، سنبدأ رحلتنا في أية دقيقة». مد يده وحاول أن يمسك بيدي، لكنني سحبتُ ذراعي بعيداً قبل أن يتمكن من القبض على يدي، وقلتُ: «احتفظ ببرائتك لنفسك يا مستر أستاذ، قد تظن أنك تمتلكني الآن، لكنك لا تمتلك حيواناً».

بعد حوالي تسع ثوانٍ تقريباً من نطقي بتلك الكلمات، ظهر حصان رمادي ضخم في نهاية الشارع يجر عربة بأربع عجلات. بدت مثل عربة في فيلم من أفلام الغرب للممثل توم ميكس^(٢) شاهدته في دار العرض في ذلك الصيف، لكنها كانت سنة ١٩٢٤، يا يسوع، وحين رأيتُ تلك العربة العتيقة تدمدم في الشارع، ظننتُ أنها شبح، لكن

(١) أرض الإوز Oz: مكان خيالي وسحري وغريب، من ابتكار ل. فرانك بوم في رواية "عالم أوز المدهش".

(٢) توم ميكس (١٨٨٠-١٩٤٠): ممثل أمريكي، نجم عدد من أفلام الغرب الأمريكي.

يا للدهشة، لَوْح الأستاذ يهودي بيده حين رآها قادمة، ثم وقف ذلك الحصان الرمادي العجوز أمامنا مباشرة، وأمسك باللجام وهبَّات من البخار تندفع من منخاريه، كان السائق شخصاً مستديرًا ومكتنزًا بقبعة بإطار واسع، وكان جسده ملفوفًا في بطانيات، وفي البداية لم أعرف إن كان رجلاً أم امرأة أم ولدًا.

قال الأستاذ: «أهلاً، الأم سيو». ألقى نظرةً على ما وجدتُ.

حدقت المرأة في لثانيتين بعينين خاليتين وباردتين كالحجر، ثم من حيث لا أعرف ومضت بابتسامة من أدفاً الابتسامات التي أمتعتني ومن أكثرها ودًا. لا يمكن أن يكون هناك أكثر من سنَّتين أو ثلاث تبرز من لثتيها، ومن الطريقة التي لمعت بها عيناها، استنتجتُ أنها غجرية. كانت الأم سيو، ملكة العجر، وكان الأستاذ يهودي ابنها، أمير الظلام. كانا يخطفانني إلى «قلعة اللاعودة»، وإذا لم ياكلانني على العشاء في تلك الليلة، فسوف يحولانني إلى عبد، خصي ذليل بحلق في أذنه ومنديل من الحرير يلتف حول رأسي.

قالت الأم سيو: «اصعد يا ولدي»، كان صوتها عميقًا جدًا ورجولياً، كان يمكن أن أموت من الرعب إن لم أعرف أنها تستطيع أن تبتسم. «سترى بعض البباطين في الخلف. سوف تستخدمها إذا كنْتَ تعرف ما ينفعك، أمامنا رحلة طويلة في البرد، ولا بد أنك تؤدُّ أن تصل إلى هناك دون أفخاذ متجمدة».

قال الأستاذ وهو يتسلق بجوارها: «اسمه والت، صعلوك تافه بمخ متقيح؛ الشخص الذي كنت أبحث عنه طوال كل هذه السنوات إذا صح حدسي». ثم قال بسرعة وهو يلتفت إليّ: «هذه هي الأم سيو، يا طفلي. عاملها بلطف، ولن تردَّ إلا بما هو طيب. عارضها،

وسوف تندم على اليوم الذي وُلِدْتُ فيه. قد تكون بدينة ودرداء، لكنها أقرب إلى الأم بصورة لن تعرفها أبداً».

لا أعرف كم استغرق الأمر لنصل إلى المنزل. كان في مكان ما في الريف، على بعد ستة عشر ميلاً أو سبعة عشر ميلاً من البلدة، لكنني لم أعرف ذلك إلا فيما بعد؛ لأن النوم غلبني بمجرد أن انسلتُ تحت البطاطين وبدأت العربة السير في الطريق، حين فتحتُ عيني مرة أخرى، كنا هناك بالفعل، وإذا لم يوقظني الأستاذ بصفعة على الوجه، ربما نمت حتى الصباح.

قادني إلى المنزل والأم سيو تفك الفرس، وكان المطبخ أول مكان دخلناه: مساحة عارية، خافتة الإضاءة، بها موقد خشبي في أحد الأركان ولمبة جاز ترتجف في ركن آخر. وكان يجلس إلى الطاولة ولد أسود في الخامسة عشرة تقريباً يقرأ كتاباً. لم يكن أسمر مثل كل الملونين الذين صادفتهم في وطني، كان في لون الزفت، أسود، جداً. كان حبشياً تماماً، ولدا زنجياً من أحرار أفريقيا السوداء، وكاد قلبي يتوقف عن النبض حين وقع بصري عليه، كان ولداً ضئيلاً وهزيلاً بعينين جاحظتين وشففتين ضخمتين، وبمجرد أن وقف عن مقعده ليحيينا، رأيتُ أن كل عظامه ملتوية ومعوجة، حتى إن جسمه بدا مشوهاً وأحذب مثل كسيح.

قال لي الأستاذ: «هذا أيسوب. أرق إنسان على وجه الأرض. حيّه يا والت، وصافحه. سيكون أخاك الجديد».

قلت: «لا أصافح زنجياً. جننت حين تظن أنني قد أفعل شيئاً من هذا القبيل».

تنهد الأستاذ يهودي تنهيدة طويلة بصوت مرتفع، لم تكن تعبيراً عن الاشمئزاز بقدر ما كانت تعبيراً عن الأسى، رعدة تذكارية من أعماق روحه. ثم بمنتهى التأني والهدوء، ثنى سبابة يده اليمنى إلى خطاف يشير بصلابة، ووضع طرف الخطاف تحت ذقني مباشرة، بالضبط في نقطة التقاء اللحم والعظم. ثم بدأ يضغط، وفجأة انطلق ألم مرعب حول قفائي وصعد إلى جمجمتي، لم أشعر بألم مثله من قبل، كافحتُ لأصرخ، لكن حنجرتي سُدَّتْ، ولم يصدر عني إلا صوت ضعيف مكتوم. واصل الأستاذ الضغط بإصبعه، وشعرتُ فوراً بقدمي ترتفعان عن الأرض، كنتُ أتحرك إلى أعلى، مرتفعاً في الهواء مثل ريشة، وبدا أن الأستاذ حقق ذلك دون أي جهد، كما لو لم أكن بالنسبة له أكثر من خنفساء، وفي النهاية رفعتني بحيث كان وجهي في مستوى وجهه أنظر في عينيه مباشرة.

قال: «لا نتحدث هنا بهذه الطريقة يا ولد، كل الرجال أخوة، وفي هذه الأسرة يتعامل الجميع باحترام. إنه القانون. تحمّله حتى لو لم يعجبك. القانون هو القانون، ومن يخالفه يتحول إلى حشرة ويتمرغ في الأرض بقية أيامه.»

قدموا لي المأكّل والمليّس وخصّصوا لي غرفة، لم أوبّخ أو أضرب، لم أركل أو أنخس أو ألكم على أذني، ولكن مع احتمال الأمور بالنسبة لي، فإنني لم أكن قط أكثر سوداوية، وأكثر امتلاء بالمرارة والغضب المكتوم، في الشهور الستة الأولى، لم أفكر إلا في الهروب. كنْتُ ابناً من أبناء المدن نشأ وموسيقى الجاز في دمه، طفلاً من أبناء الشوارع عينه على الفرصة الرئيسية، وقد أحببْتُ ضجيج الحشود، صراخ عربات التروولي وخفقان النيون، ونتانة الويسكي المغشوش تتقاطر في البالوعات. كنْتُ راقصاً ابن نكتة، قزماً بارعاً بلسان سريع، أعرف الكثير من الحيل، وهناك كنت مقيماً وسط المجهول، أعيش تحت سماء لا تجلب إلا المناخ- مناخاً يكاد يكون سيئاً باستمرار.

كانت ملكية الأستاذ يهودي سبعة وثلاثين فدأناً من القذارة، ومنزلاً ريفياً من طابقين، وقفص دجاج، وزريبة خنازير، وحظيرة للماشية. كان في القفص ستة من الدجاج، وفي الحظيرة بقرتان وحصان رمادي، وفي الزريبة ستة خنازير أو سبعة. لم يكن هناك كهرباء، أو مواسير للمياه، أو تليفون، أو لاسلكي، أو فونوجراف، أو العدم. كان المصدر الوحيد للمتعة بيانو في الردهة، وكان أيسوب الشخص الوحيد الذي يستطيع العزف عليه، وكان يعزف حتى أبسط الأغاني بشكل غير متقن حتى إنني كنت أغادر المكان دائماً حين تلمس فيها أصابعه المفاتيح، كان المكان بؤرة قذرة، عاصمة العالم للضجر، وقد تناولت منه ما يكفي بعد اليوم الأول. لم يسمعوا في ذلك المنزل حتى عن البيسبول، ولم يكن هناك أي شخص أحدثه عن الكاردينال،^(١) فريقي المفضل، وكان الموضوع الوحيد الذي أهتم به

(١) الكاردينال: فريق بيسبول أمريكي، تأسس في سانت لويس.

في تلك الأيام، شعرتُ وكأنني وقعتُ خلال شق في الزمن وهبطتُ في العصر الحجري، في بلد حيث لا تزال الديناصورات تطوف على الأرض. طبقاً لما قالتَه الأم سيو، فاز الأستاذ يهودي بالحقل في رهان مع شخص في شيكاغو قبل ذلك بسبع سنوات تقريباً. قلتُ لآبَد أنه كان رهاناً مثيراً، يتحول الخاسر إلى فائز، والفائز مغفل يخسر مستقبله في بنجهولفيل، الولايات المتحدة الأمريكية.

اعترف بأنني كنتُ غيباً صغيراً محتدّاً في ذلك الوقت، لكنني لن أقدم أي مبررات لنفسي، كنتُ كيفما كنتُ، نتاجاً لشعب وأماكن أتيتُ منها، ولا معنى للبكاء على ذلك الآن. أكثر ما يؤثر في بشأن تلك الشهور الأولى مدى صبرهم معي، وكيف بدا أنهم يفهمونني بشكل جيد ويتحملون تصرفاتي الغريبة. هربتُ أربع مرات في ذلك الشتاء، وذات مرة وصلتُ إلى ويتشيتا^(١)، وكانوا يردونني كل مرة ولا يوجهون لي أية أسئلة، كنتُ قيد شعرة من العدم، كنتُ أبعد ذرة أو اثنتين عن نقطة تلاشي مكونات الإنسان، وحيث إن الأستاذ رأى أن روحي ليست أنبل من روح حيوان، فقد بدأ معي من هناك: في الحظيرة مع الحيوانات.

بقدر ما كرهتُ رعاية الدجاج والخنازير، فضلتُ صحبتها على صحبة الناس، كان من الصعب أن أحدد من أكرهه أكثر، وكنتُ يومياً أعيد ترتيب نظام عداواتي. تستحق الأم سيو وأيسوب العداء بسبب اشتراكهما الواضح في الاحتقار الداخلي، لكن الأستاذ في النهاية هو الذي أثار قمة غضبي واستيائي؛ كان الوغد الذي احتال عليّ ليأخذني إلى هناك، وإذا كان لأحد أن يلام على الورطة التي كنتُ فيها، فهو المتهم الرئيسي. وكانت سخريته أكثر ما أثار

(١) ويتشيتا: مدينة تقع جنوب غرب مدينة كانساس، ولاية كانساس، وهي ولاية تقع وسط الولايات المتحدة.

سخطي، بالإضافة إلى الضربات والالتهامات التي يصوبها إليّ باستمرار، والطريقة التي كان يسوقني ويتعقبنني بها لا لسبب إلا ليبرهن على أنني عديم القيمة، مع الاثنين الآخرين كان مهذبًا دائمًا، نموذجًا للياقة، لكنه لم يفوت فرصة ليقول شيئًا خبيثًا في حقي. بدأ ذلك صباح أول يوم، وبعد ذلك لم يتوقف، قبل مرور وقت طويل، أدركت أنه ليس أفضل من الخال سليم. ربما لم يكن يجلدني كما كان سليم يفعل، لكن كلمات الأستاذ كانت قوية تؤذيني مثل خبطة في الرأس.

قال لي صباح أول يوم: «حسنًا، أيها الوغد الضعيف. قل لي ما تعرفه عن الثلاثة آر»^(١).

قلتُ، لاجئًا إلى الرد السريع لرجل حكيم: «ثلاثة؟ لا أعرف إلا مؤخرة واحدة»^(٢)، أستخدمها كلما جلستُ. مثل أي شخص آخر.»
«أقصد المدرسة، يا تافه، هل وضعتَ قدمًا في فصل- وإذا كنت، فماذا تعلمتَ هناك؟»

«لم أكن في حاجة إلى مدرسة لتعلمني، كانت لديّ وسائل أفضل من ذلك لقضاء الوقت.»

«رائع، نتحدث مثل متعلم حقيقي. لكن كن أكثر تحديدًا، ماذا عن الأبجدية؟ هل تستطيع كتابة حروف الأبجدية أم لا؟»

«بعضها، الحروف التي تؤدي الغرض، الأخرى لا تهم، تؤلمني فقط؛ ومن ثم لا أهتم بها.»

(١) الثلاثة آر three R's: إشارة إلى المهارات الأساسية في التعليم وهي القراءة reading، والكتابة writing، والرياضيات arithmetic.
(٢) مؤخرة: في الأصل arse وتتنطق مثل R's.

«وما الحروف التي تفي بغرضك؟»

«حسنًا، لنرَ هناك حرف A، أحب ذلك الحرف، وحرف W. ثم هناك تلك الحروف، L، E، R، وذلك الحرف الذي يبدو مثل الصليب، T، كما في كلمة ستيك^(١). تلك الحروف زملائي، والبقية يمكن أن تُقلى في الجحيم ولا أبالي».

«تعرف إذن كيف تكتب اسمك».

«هذا ما أقوله لك يا ريس، أستطيع أن أكتب اسمي، أستطيع أن أعد إلى ما لا نهاية، وأعرف أن الشمس نجم في السماء، وأعرف أيضًا أن الكتب للفتيات والمخنثين، وإذا كنت تخطط لتعلمني أي شيء من الكتب، يمكننا أن ننهي اتفاقنا فورًا».

«لا تغضب، يا بني، ما قلته لي موسيقى في أذني، كلما كنت أكثر غباء، كان أفضل لكلينا، بتلك الطريقة يقل ما تفسده، وهو ما يوفر لنا الكثير من الوقت».

«وماذا عن دروس الطيران؟ متى نبدأها؟»

«بدأنا بالفعل، من الآن يرتبط كل ما نفعله بالتدريب، لن يكون الأمر واضحًا لك دائمًا، لذا حاول أن تضع ذلك في اعتبارك، إذا لم تنس، ستكون قادرًا على التحليق هناك حين يكون التقدم جادًا، إننا نبدأ رحلة طويلة، يا بني، وأول ما على أن أفعله أن أحطم روحك، أتمنى أن يكون الأمر بطريقة أخرى، لكنني لا أستطيع؛ نظرا للقدارة التي تنحدر منها، لن تكون مهمة بالغة الصعوبة».

(١) الحروف المذكورة تشكل حروف اسمه Walter. ستيك steak، أي شريحة من اللحم.

وهكذا قضيتُ أيامي أجرف السمار في الحظيرة، مقطّباً حاجبي والآخرين يجلسون ينعمون بالراحة والدفء في المنزل. تهتم الأم سيو بالطبخ والمهام المنزلية، وأيسوب يسترخي على الأريكة يقرأ الكتب، والأستاذ يهودي لا يفعل شيئاً، يبدو أن وظيفته الأساسية الجلوس على مقعد خشبي مستقيم الظهر من شروق الشمس إلى غروبها والنظر من النافذة، باستثناء محادثاته مع أيسوب، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي رأيته يفعله حتى الربيع، كنت أنصت أحياناً وهما يتحدثان، لكنني لم أفهم قط ما يقولان. كانا يستخدمان الكثير من الكلمات المعقدة، بدا وكأنهما يتواصلان برطانة خاصة بهما، فيما بعد، حين عرفت خبايا الأمور، عرفتُ أنهما يذاكران. تكفل الأستاذ يهودي بتعليم أيسوب المواد الدراسية، وكانت الكتب التي يقرأها تتناول مواضيع مختلفة: التاريخ والعلوم والآداب والرياضيات واللاتينية والفرنسية، إلخ. وكان لديه مشروع تعليمي الطيران، لكنه كان منهماك أيضاً في جعل أيسوب متعلماً، وبقدر ما أعرف كان هذا المشروع الثاني يعني له أكثر بكثير مما يعني له مشروع عي، وكما عبّر الأستاذ بعد وقت قصير من وصولي: «كان حتى أسوأ مما كنتُ، يا قزم. حين عثرتُ عليه منذ اثني عشر عاماً، كان يزحف في حقل قطن في جورجيا يرتدي أسمالاً، لم يتناول طعاماً ليومين، وأمه، ولم تكن إلا طفلة هي الأخرى، ترقد ميتة من الدرن في كوخها على بعد أربعة عشر ميلاً من الطريق، وتلك هي المسافة التي هامها الطفل بعيداً عن البيت، كان يهذي جوعاً، وإذا لم ألتق به صدفة في تلك اللحظة، من المستحيل أن أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث له، ربما تلوّى جسمه بشكل تراجيدي، لكن عقله آلة متألقة، وقد تفوق عليّ بالفعل في معظم المجالات، أخطط لإلحاقه بكلية خلال ثلاث سنوات، يمكنه أن يواصل دراسته هناك، وبمجرد أن يتخرج ويدخل العالم سيكون قائداً لجنسه، مثلاً ساطعاً

لكل الشعوب السوداء المضطهدة في هذه البلاد العنيفة المرائية»، لم أفهم ما تحدث الأستاذ عنه، لكن الحب في صوته انتقل إليّ وانطبع في ذهني. بكل غبائي، كنت قادرًا على فهم الكثير منه، كان يحب أيسوب كما لو كان ابنه، ولم أكن إلا بهيمًا مغفلًا ومهجنًا يُبصق ويترك في المطر.

كانت الأم سيو رفيقتي في الجهل، زميلتي الأمية الكسول، وبينما كان يمكن أن يساعد ذلك في خلق رابطة بيننا، لم يحدث شيء من هذا القبيل، لم يكن هناك عدااء صريح من جانبها، لكنها في الوقت ذاته كانت تهيج أعصابي، وأعتقد أن التكيف مع غرابتها استغرق مني وقتًا أطول مما استغرق مع الاثنين الآخرين- اللذين يمكن بصعوبة أن يعتبرا طبيعيين، حتى حين تبعد البطاطين عن جسمها وتخلع القبعة عن رأسها، كنت أعاني من مشكلة في تحديد جنسها، وكان ذلك مزعجًا إلى حد ما، وحتى بعد أن لمحتُها عارية من ثقب باب غرفتها ورأيتُ بأم عيني أن لها ثديين، وليس لديها عضو يتدلى من عانتها، ظلتُ غير مقتنع تمامًا. كانت يداها خشنيتين مثل يدي الرجل، وكانت لها كتفان عريضتان وعضلات منتفخة في ساعديها، وباستثناء اللحظة التي ومضت فيها ابتسامة من ابتساماتها النادرة والجميلة، كان وجهها شاحبًا وصلبًا مثل لوح من الخشب، ربما ذلك أقرب إليّ ما أفلقتني: صمتها، الطريقة التي بدا أنها تنظر بها إليّ وكأنني غير موجود، في نظام التسلسل الاجتماعي للأسرة، كنت أقف تحتها مباشرة، مما كان يعني أن لي تعاملات معها أكثر مما لي مع أي شيء آخر، كانت هي التي تكلفني بالمهام وتراقبني، وتتأكد من أنني غسلت وجهي وأسنانني قبل النوم، ومع ذلك في كل الساعات التي قضيتها في صحبتها كانت تجعلني أشعر بالوحدة أكثر مما كنت أشعر وأنا وحدي حقًا، يزحف إحساس بالخواء في بطني

كلما تكون حولي، بالضبط وكان مجرد القرب منها يجعلني أبداً في الانكماش. لم تكن طريقة تصرفي تؤثر في الأمر، يمكن أن أتغفرت أو أقف ساكناً، ويمكن أن أصرخ أو أعقد لساني، ولا تختلف النتائج قط. كانت الأم سيو حائطاً، وكلما اقتربتُ من ذلك الحائط تحول إلى نفثة دخان، سحابة ضئيلة من الرماد المتناثر في الريح.

أيسوب الشخص الوحيد الذي أظهر لي عطفاً حقيقياً، لكنني كنتُ ضده من البداية، ولم يغير من موقفه ما يقوله أو يفعله، لم تكن لي حيلة في ذلك، كان شعوري بازدرائه متأصلاً في دمي، ونظراً لأنه كان أبشع عينة من نوعه قادمي سوء الحظ لرؤيتها، كان أمراً منافياً للعقل أن نعيش تحت سقف واحد، كان أمراً منافياً لقوانين الطبيعة، ينتهك كل ما هو مقدس وحقيقي، ولن أترك نفسي تتقبله. حين تسلم بحقيقة أن أيسوب كان يتحدث بطريقة لا يتحدث بها أي ولد ملون على وجه الأرض - يتحدث مثل لورد إنجليزي أكثر مما يتحدث مثل أمريكي - ثم تسلم بحقيقة إضافية وهي أنه المفضل لدى الأستاذ، لم أكن أستطيع التفكير فيه دون أن أستسلم لنوبة عنيفة من العصبية، ومما يجعل الأمور أسوأ، كان عليّ أن أغلق فمي حين يكون قريباً، أظن أنه كان يمكن لبضع ملاحظات مختارة أن تفجر غضبي، لكنني تذكرتُ إصبع الأستاذ يغرس في دقني، ولم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بالخضوع لهذا العذاب مرة أخرى.

كان أسوأ ما في ذلك أن أيسوب لم يبدُ مهتماً بأنني أزدريه إلى هذا الحد، استكملتُ ذخيرة كاملة من العبوس والتكشير لأستخدمها في صحبتته، لكن كلما أطلقتُ إحدى تلك النظرات في اتجاهه، يكتفي بهز رأسه والابتسام لنفسه، مما يجعلني أشعر بأنني معتوه، بصرف

النظر عما أبذل من جهد لمحاولة إيذانه، لم يدعني أزعجه قط، ولم يمنحني قط الإحساس بالرضا لتسجيل هدف ضده. لم يكسب الحرب بيننا ببساطة، كان يكسب كل معركة في تلك الحرب، وتبينت أنني إذا لم أستطع حتى أن أتفوق على شيطان أسود في تبادل عادل للإهانات، لابد أن تُقَتَّن كل براري كانساس، أرغمتُ على أرض الأحلام السيئة، وكلما كافحتُ أكثر لأستيقظ أصبح الكابوس أبشع.

قال لي أيسوب عصر أحد الأيام: «تحاول بجدية شديدة، تستهلك استقامتك إلى حد بعيد، وقد عميت عما حولك، وإذا كنت لا تستطيع رؤية ما أمام أنفك، فلن تستطيع أبدًا أن تنظر إلى نفسك وتعرف حقيقتك».

قلتُ: «أعرف حقيقتي، لا أحد يستطيع أن يسلبني ذلك».

«الأستاذ لا يسرق منك شيئاً؛ إنه يقدم لك هبة عظيمة».

«انظر، قدم لي معروفًا؛ لا تذكر اسم ذلك الجبان في حضوري، يفرعني أستاذك هذا، تتحسن حالتي كلما قل تفكيري فيه».

«إنه يحبك يا والت، يؤمن بك بكل ذرة من روحه».

«ليذهب ما يفعله إلى الجحيم، ذلك الدجال لا يقدم أي شيء على الإطلاق، إنه ملك العجر مهما فعل، وإذا كانت له أية روح- ولا أقول إن له روحا- فهي معبأة بالشر تمامًا».

اتسعت عينا أيسوب في ذهول: «ملك العجر؟ هل هذا ما تظن؟»
لابد أن الفكرة نخسته حتى النخاع، وبعد لحظة أمسك بطنه وبدأ يهتز في نوبة من الضحك، وقال وهو يمسح الدموع من عينيه:

«تعرف بالتأكيد كيف تأتي بأفكار جيدة، من وضع في رأسك هذه الفكرة؟»

قلت وأنا أشعر بتورد وجنتي نتيجة الارتباك: «حسنا، إذا لم يكن عجريا، فماذا يكون إذن بحق الجحيم؟»
«مَجْرِيًا».

«ماذا؟» تمتمّت، كانت أول مرة أسمع فيها أحدا يستخدم هذه الكلمة، وقد أذهلتني حتى إنني فقدتُ للحظة القدرة على الكلام.
«مجريا، وُلِد في بودابست وجاء إلى أمريكا صبيًا صغيرًا، ترعرع في بروكلين في نيويورك، وكان أبوه وجده من الحاخامات».
«وما ذلك، يشبه القوارض إلى حد ما؟»

«إنه معلّم يهودي. وزير أو كاهن من نوع ما، لليهود فقط».
قلتُ: «حسنا الآن، تقول ذلك، ذلك يفسر كل شيء، أليس كذلك؟ إنه أسوأ من عجري، دكتور دارك بروز العجوز - إنه كايك^(١). ليس هناك أحقر من ذلك على كل الكوكب البائس».
قال أيسوب: «من الأفضل ألا تدعه يسمعك وأنت تتكلم بهذه الطريقة».

قلتُ: «أعرفُ حقوقي، وليس هناك يهودي يمكن أن يضايقني، أقسم على ذلك».

(١) كايك: كلمة تحقير تستخدم في أمريكا وكندا لوصف اليهودي.

«هُوّنْ على نفسك، يا والت. إنك تسعى للمشاكل فقط».

«وماذا عن تلك الساحرة، الأم سيو؟ هل هي هيبى^(١) أخرى؟»

هز أيسوب رأسه وحقق في الأرض، كان صوتي يموج بغضب شديد مما جعله لا يستطيع النظر في عيني، قال: «لا، إنها أوجلالا سيوكس، جدها أخو سيتنج بول، وفي شبابها كانت تركب حصانا دون سرج في عرض 'الغرب البري' لـ 'بفلو بل'»^(٢).

«إنك تخري في رأسي».

«لا يخطر لي ذلك على بال، ما أقوله لك الحقيقة الخالصة الصريحة، إنك تعيش في المنزل نفسه مع يهودي أسود، وهندية، وستكون حياتك أكثر سعادة كلما تقبلت الحقائق أسرع».

احتملت ثلاثة أسابيع حتى ذلك الوقت، لكنني بعد هذه المحادثة مع أيسوب عرفت أنني لم أعد أحتمل أكثر؛ هربت من هناك في تلك الليلة ذاتها. انتظرتُ حتى نام الجميع وزحفتُ من تحت الأغشية، وتسالت هابطاً السلم، وسرتُ على أطراف أصابعي إلى ظلمة ديسمبر البارد، لم يكن هناك قمر في السماء، ولم تكن هناك حتى نجمة تسطع فوقي، وحين عبرتُ العتبة، ضربتني ريحٌ عنيفة دفعتني إلى جدار المنزل، لم تكن عظامي أقوى من القطن في تلك الرياح، كان الليل يموج بالصخب، وكان الهواء يندفع ويدوي وكأنه يحمل صوت الرب، يطلق حنقه على كائن أحرق بدرجة تجعله يواجهه، صرتُ ذلك الأحرق، ومرة بعد أخرى نهضت من على

(١) هيبى: ربة الشباب والربيع ابنة زيوس وهيرا، وزوجة هرقل.

(٢) بفلو بل (١٨٤٦-١٩٢٧): جندي أمريكي ومخرج استعراضي، حصل على نوط الشرف سنة ١٨٧٢ للخدمات التي قدمها للجيش الأمريكي.

الأرض وشققت طريقي بين أسنان الخضم، أدور مثل دولاب الهواء وأنا أدفع جسدي إلى الفناء، بعد عشر محاولات أو اثنتي عشرة محاولة، هلكت تمامًا، صرت هيكلا منهكا ومترنحا، وصلت إلى حظيرة الخنازير، وبالضبط وأنا أسقط علي ركبتي مرة أخرى، لم أبصر وفقدت الوعي، مرت الساعات. أفقتُ مع بزوغ الفجر لأجد نفسي محاطا بأربعة خنازير هاجعة، إذا لم أقع على الأرض بين تلك الخنازير، لكان هناك احتمال كبير لأن أتجمد حتى الموت أثناء الليل، مفكرًا في ذلك الآن، أفترض أنها كانت معجزة، لكنني حين فتحتُ عيني في ذلك الصباح ورأيتُ موضعي، كان أول ما فعلتُ الوثب على قدمي والبصق، لاعنا حظي السيئ.

لم يكن لدي أدنى شك في أن الأستاذ يهودي مسئول عما حدث، في تلك المرحلة المبكرة من تاريخنا معًا، نسبتُ له كل أنواع القوى الخارقة، وكنت مقتنعا تمامًا بأنه هو الذي جلب هذه الرياح العنيفة لا لسبب إلا ليحول بيني وبين الهروب، لعدة أسابيع بعد ذلك، امتلأ رأسي بعدة نظريات وتأملات طائشة، وكان أكثرها إثارة للהלح يخص أيسوب ويقيني المتنامي بأنه وُلِدَ أبيض، كانت فكرة مرعبة، لكن بدا أن كل الأدلة تدعم استنتاجي، كان يتحدث مثل شخص أبيض، ليس كذلك؟ ويتصرف مثل شخص أبيض، ويفكر مثل شخص أبيض، ويعزف على البيانو مثل شخص أبيض، ولماذا ينبغي، لمجرد أن بشرته سوداء، أن أصدق عيني حين يخبرني قلبي بشيء آخر؟ كانت الإجابة الوحيدة أنه وُلِدَ أبيض، وقبل سنوات اختاره الأستاذ أول تلاميذه في فن الطيران، وطلب من أيسوب أن يقفز من على سطح الزريبة، وقفز أيسوب - لكن بدل أن يمسك بتيارات الرياح ويحلق في الهواء، سقط على الأرض وتكسرت كل عظمة في جسمه، وهذا يفسر شكله البائس وغير المتناسق، لكن

الأستاذ يهودي، ليجعل الأمور أسوأ، عاقبه على فشله، استدعى قوة مائة شيطان يهودي، وأشار بإصبعه إلى تلميذه وحوله إلى زنجي بشع، تحطمت حياة أيسوب، ولم يكن لدي شك في أن المصير نفسه ينتظرني، لا ينتهي بي الأمر فقط إلى أن أصبح أسود البشرة وكسيحًا، لكنني سارغم على قضاء بقية أيامي أدرس الكتب.

هربت في المرة الثانية عصرًا، هزمني الليل بسحره، ومن ثم قامرت باستراتيجية جديدة ونفذتها في وضح النهار، متصورًا أنه لن يكون هناك أي عفريت يهدد خطواتي إذا عرفتُ إلى أين أذهب، في أول ساعة أو ساعتين، سار كل شيء طبقًا للخطة؛ تسللت من الزريبة بعد الغداء مباشرة وانطلقت في الطريق إلى سيبولا، عازمًا على مواصلة السير بسرعة والوصول إلى البلدة قبل حلول الظلام، ومن هناك أستقل قطارًا من قطارات الشحن وأنطلق في طريقي إلى الشرق، وإذا لم أتعثر، سأتجول في شوارع سانت لويس العريضة والقديمة خلال أربع وعشرين ساعة.

وهكذا اندفعتُ عبر الطريق السريع المغبر المستوى مع فئران الحقول والغربان، بشعور يزداد ثقة مع كل خطوة أخطوها، وفجأة حدثتُ ورأيتُ عربية بأربع عجلات تقترب من الاتجاه المقابل، بدت بشكل مذهش شبيهة بعربة الأستاذ يهودي، لكن حيث إنني رأيتُ تلك العربة في الزريبة قبل أن أرحل، استهجنّت الصدفة وواصلتُ السير، وأنا على بعد حوالي اثنتي عشرة ياردة منها، حدثت مرة أخرى، تجمد لساني في سقف فمي؛ سقطت مقتلتي من محجريهما وقععتا في قدمي، كانت عربية الأستاذ يهودي بالفعل، ولم يكن يجلس في تلك العربة غير الأستاذ نفسه، يتطلع إلى وابتسامة عريضة على وجهه، أوقف العربة ورفع قبعته لي بتلقائية وود.

«مرحباً، يا بني. الجو قارص بعض الشيء للتجوال في عصر هذا اليوم، ألا تعتقد ذلك؟»

قلت: «الطقس مناسب لي، على الأقل يمكن أن أتنفس هنا، إذا بقيت جالساً في مكان واحد وقتاً طويلاً جداً، تختنق من زفيرك».

«بالتأكيد، أعرف ذلك، يحتاج كل فتى إلى أن يفرد ساقيه. لكن النزهة انتهت الآن، وحن موعد العودة إلى البيت. ابتعدت، يا والت، وسوف نرى إن كان من الممكن أن نصل إلى هناك قبل أن يلاحظ الآخرون غيابنا».

لم يكن أمامي اختيار، صعدت إلى العربة وجلستُ بجواره وهو يشد اللجام ليسير الحصان مرة أخرى، على الأقل لم يعاملني بقسوته المعتادة، وتجاهل مثلي إحباط محاولة هروبي، لم أكن على وشك أن أتركه يعرف ما كنت مقدماً عليه، ربما خمن ذلك على أية حال، لكن بدلاً من أكشف عن مدى خيبة أمني، تظاهرت باللعب بمسألة أنني خرجتُ للتمشية.

قلتُ: «ليس أمراً طيباً أن يحبس صبي بهذا الشكل. إن ذلك يجلب له الحزن ويجعل مزاجه سيئاً، ولا يستطيع أن يقوم بمهامه بالروح المناسبة، إذا منحت الفتى قليلاً من الهواء النقي، سيكون أكثر رغبة في القيام بعمله».

قال الأستاذ: «أسمع ما تقول يا صاحبي، وأفهم كل كلمة منه».

«حسنًا، ماذا ستكون، يا كابتن؟ أعرف أن سيبولا ليست مدينة تمامًا، لكنني أراهن أنهم أقاموا معرض صور أو شيئاً ما، قد يكون رائعاً أن نذهب إلى هناك ذات ليلة، تعرف، متعة صغيرة لكسر

الملل، أو ربما يكون هناك فريق ببسبول قريب منا، ضمن فرق اتحاد صغير، حين يأتي الربيع، لماذا لا نحضر مباراة أو اثنتين، لن يكون فريقًا كبيرًا مثل الكاردينال. أقصد أن دوري الدرجة الرابعة يناسبني، ما داموا يستخدمون المضارب والكرات لن تسمع أية شكاوى من هذه الناحية، لن تعرف قط يا سيدي، إذا أعطيتها نصف فرصة، ربما تحبها أنت نفسك».

«إنني متأكد من ذلك، لكن لا يزال أمامنا جبل من العمل، وأثناء ذلك ينبغي حماية الأسرة، نكون أكثر أمانا كلما اختفينا أكثر، لا أريد أن أفزعك، لكن الأمور ليست هادئة في هذا الحي كما قد تبدو، لنا من حولنا أعداء أقوياء، لا يبهجهم وجودنا في بلادهم، لن يبالي الكثير منهم إذا توقفنا عن التنفس فجأة، ولا نريد استئثارهم بالتباهي بأنفسنا المبهرجة علنًا».

«مادما ننشغل بعملنا، من يبالي بما يفكر فيه الناس؟»

«كذلك بالضبط، يعتقد بعض الناس أن عملنا يخصهم، وأسعى إلى الحفاظ على مسافة كبيرة بيني وبين أولئك المتطفلين، هل توافقني يا والت؟»

قلتُ له إنني أوافقه، والحقيقة أنني لم أكن أوافقه إطلاقًا، الشيء الوحيد الذي عرفته أن هناك أناسًا يريدون قتلي، ولن يسمح لي بالذهاب إلى أية مباريات ببسبول، ولا حتى النبرة المتعاطفة في صوت الأستاذ يمكن أن تجعلني أفهم ذلك، وطوال الطريق إلى البيت ظللتُ أطلب من نفسي أن أكون قويًا ولا أستسلم للموت أبدًا؛ عاجلاً أو آجلاً ساجد طريقة للخروج من هناك، عاجلاً أو آجلاً سأترك ذلك الرجل المشعوذ في التراب.

فشلت محاولتي الثالثة ببؤس كما فشلت الاثنتان الأخريان. غادرت البيت في الصباح في تلك المرة، ورغم أنني وصلت إلى ضواحي سيبولو فإن الأستاذ يهودي كان في انتظاري مرة أخرى، جاثماً على العربة بالابتسامة نفسها التي تعبر عن الرضا بالنفس تنتشر عبر وجهه، شوش هذا الحادث تفكيري تاماً، على عكس المرة السابقة، لم أستطع استبعاد وجوده هناك باعتباره مجرد صدفة، بدا الأمر وكأنه كان يعرف أنني سأهرب قبل أن أعرف أنا نفسي، كان ابن الزانية في رأسي، يمتص عصارات دماغي، ولم يكن حتى لأعمق أفكاري أن تخفي عليه.

لكنني لم أستسلم، كان عليّ فقط أن أكون أكثر مهارة، وأكثر منهجية في الطريقة التي أسلكها، بعد تفكير طويل، استنتجتُ أن السبب الرئيسي لمشاكلي المزرة نفسها، لم أكن أستطيع الخروج من هناك لأن المكان منظم جداً، وبه اكتفاء ذاتي تام. كان لدينا لبن وزبد من البقر، وبيض من الدجاج، ولحوم من الخنازير، وخضروات من مخزن الخضروات، ومخزون هائل من الدقيق والملح والسكر والملابس، ولم تكن هناك ضرورة لأن يذهب أحد إلى البلدة لشراء إمدادات، قلت لنفسني: لكن ماذا إذا انتهى شيء من عندنا، إذا حدث نقص فجائي في شيء حيوي لا نستطيع العيش دونه؟ سيكون على الأستاذ الذهاب للحصول على المزيد، أليس كذلك؟ وبمجرد أن يذهب، سأتسلل من هناك وأهرب.

كان الأمر بسيطاً جداً، ضحكْتُ تقريباً من البهجة حين خطرت لي هذه الفكرة، لا بد أننا كنا في فبراير، وطوال الشهر التالي تقريباً لم أفكر في شيء آخر سوى التخريب، امتلأ عقلي بعدد لا يحصى

من الحيل والخطط، مُستحضرًا أعمالاً مفزعة ومدمرة بشكل لا يوصف، تصورت أن أبدأ بأعمال صغيرة- أشق كيسا أو اثنين من أكياس الدقيق، وربما أتبول في برميل السكر- لكن إذا فشلت تلك الأمور في تحقيق النتيجة المطلوبة، لن أنفر من القيام بأشكال أكبر من التخريب: تحرير الدجاج من حظيرته، على سبيل المثال، أو قطع رقاب الخنازير، لم يكن هناك شيء لا أريد فعله لأخرج من هناك، وإذا لزم العنف، كنت مستعدًا حتى لإشعال النار في القش وحرق الزريبة.

لم يتم أي شيء كما تخيلته، سنحت لي فرص، لكن كلما كنت على وشك وضع خطة موضع التنفيذ، خذلتني أعصابي بشكل غامض. كان الخوف يتأجج في رثتي، ويبدأ قلبي يرفرف، وبالضبط ويديا تستعدان للقيام بالمهمة، كانت قوة غير مرئية تسلبني قوتي، لم يحدث لي شيء مثل هذا من قبل، كُنْتُ دائمًا مؤذيًا تمامًا، طوع اندفاعاتي ورغباتي تمامًا، إذا أردتُ أن أفعل شيئًا أشرع على الفور في فعله، وأنهمك فيه بتهور، خارجًا على القانون بالفطرة، وحينذاك كنت مُعَوِّقًا، يمنعني شلل غريب في الإرادة، فاحتقرتُ نفسي لتصرفي بهذا الجبن، ولم أستطع أن أفهم كيف أن تسرب مقدرتي يمكن أن يغوص إلى هذا العمق، باغتني الأستاذ يهودي مرة أخرى، حولني إلى دمية، وكلما كافحتُ أكثر لأهزمه، جعل الحبال أكثر إحكامًا.

قضيت شهرًا في الجحيم قبل أن أجد الشجاعة للقيام بمحاولة أخرى، في هذه المرة، بدا أن الحظ يحالفني، وبعد أقل من عشر دقائق من الوصول إلى الطريق، التقطني صاحب سيارة عابرة،

وأخذني معه طوال الطريق إلى ويتشيتا^(١). وكان من الطف الرجال الذين قابلتهم على الإطلاق، فتى جامعياً في طريقه لرؤية خطيبته، واندفعنا منذ البداية، كل منا يمتع الآخر بالقصص لساعتين ونصف بالتمام، أتمنى أن أتذكر اسمه، كان شخصاً أخرج أسمر الشعر، حول أنفه نمش، وعلى رأسه قبعة صغيرة وأنيقة من الجلد، لسبب ما أتذكر أن اسم صديقه «فرانسين»، وربما يرجع ذلك إلى أنه تحدث عنها كثيراً جداً، وحكى بإسهاب عن الحلمتين الورديتين على ثدييها والأهداب المخزومة المتصلة بملابسها الداخلية، كان صاحب القبعة الجلدية يقود سيارة فورد جديدة براقعة، وكان يسرع على الطريق السريع الخالي وكأنه ليس هناك غد، قهقهت وشعرت بأنني حر وسعيد جداً، وكلما تثرثرنا في أمر ما، ازداد شعوري بالحرية والسعادة، قلتُ لنفسِي: فعلتها حقاً تلك المرة، هربتُ من هناك، ولن يوقفني أحد بعد ذلك.

لا أعرف بدقة ماذا كنتُ أتوقع من ويتشيتا، لكن من المؤكد أنها لم تكن البلدة الصغيرة الكنيبة التي اكتشفتها في منطقة لتربية الماشية عصر ذلك اليوم سنة ١٩٢٥، كان المكان بلدة منعزلة، بثرة مملة في عقب أبيض عار، أين كانت الصالونات والقناصون والمحتالون المحترفون؟ أين كان ويات إرب؟^(٢) بصرف النظر عما كانت عليه ويتشيتا في الماضي، كانت تجسيدا لفوضى حقيقية بائسة من المحلات والمنازل، بلدة شديدة منخفضة جداً على الأرض بحيث لا يصطدم كوعك بالسما حين تتوقف لتحك رأسك، تبينتُ أن عليّ أن أحتال من أجل نفسي، أتوانى بضعة أيام لأوفر بعض النقود، ثم أسافر عائداً إلى سانت لويس بشكل مناسب، أقنعتني جولة سريعة

(١) ويتشيتا: مدينة جنوب كانساس.

(٢) ويات إرب (١٨٤٨-١٩٢٩): ضابط أمريكي تورط في نزاع شهير في أريزونا سنة ١٨٨١.

في الشوارع بالتخلي عن ذلك، وبعد وصولي بنصف ساعة، كنت بالفعل أبحث عن قطار لأرحل من هناك.

شعرتُ بكآبة وغم شديد، حتى إنني لم ألاحظ أن الثلوج بدأت تتساقط، كان مارس أسوأ موسم للعواصف في تلك البلاد، لكن اليوم بدأ ساطعا وصافيا، ولم يخطر على بالي حتى إن الطقس يمكن أن يتغير، بدأ بهبة ريح، رذاذ أبيض ينزل خلال السحب، لكن وأنا أواصل السير عبر البلدة بحثًا عن محطة القطار، ازداد المطر سمكا وكثافة، وحين توقفتُ لأتفحص اتجاهاتي بعد ذلك بخمس دقائق أو عشر، كانت المياه تصل إلى كاحلي بالفعل. كان الجليد يتساقط بغزارة. قبل أن أستطيع التفوه بكلمة «عاصفة»، عصفت الريح وبدأت تدفع الجليد في كل الاتجاهات على الفور. كانت السرعة التي حدثت بها غريبة. في دقيقة كنت أسير في الشوارع وسط ويتشيتا، وفي الدقيقة التالية تهتُ، تعثرت بشكل أعمى في عاصفة بيضاء، لم تعد هناك وسيلة أعرف بها موضعي، كنت أرتجف تحت ملابسي المبللة، كانت الرياح مجنونة، وكنتُ ضئيلا وسطها، ألف وأدور.

لستُ متأكدا من المدة التي قضيتها وأنا أتخبط في تلك الفوضى، أظن أنها لا تقل عن ثلاث ساعات، وربما خمس ساعات أو ست ساعات. وصلتُ البلدة وقت الأصيل، وكنتُ لا أزال على قدمي بعد هبوط الليل، أشق طريقي عبر الطرق الجبلية، محاصرا حتى ركبتي، ثم حتى خصري، ثم حتى عنقي، باحثا في هلع عن ملجأ قبل أن يبتلع الجليد جسدي كله، كان عليّ أن أواصل الحركة، أي توقف قد يدفنني، وقبل أن أتحرك، أتجمد حتى الموت أو أختنق. وهكذا واصلت السير إلى الأمام، حتى وأنا أعرف أن الأمر يدعو إلى اليأس، حتى وأنا أعرف أن كل خطوة تقربني من نهايتي؛ أين

النور؟ ظلمتُ أتساءل، كنت أبتعد أكثر وأكثر عن البلدة، إلى الريف حيث لا أحد يعيش، وكلما غيرتُ مساري أجد نفسي في العتمة نفسها، بين ليل تام وبرد قارص.

بعد مرور بعض الوقت، لم يعد يبدو لي شيء حقيقيا، توقف عقلي عن العمل، وإذا كان جسدي لا يزال يسحبني، فذلك لأنه لا يعرف شيئا أفضل، حين رأيتُ بصيصًا من النور عن بعد، أدركته بالكاد، ترنختُ باتجاهه، بوعي لا يزيد عن وعي فراشة تتجه إلى شمعة، اعتبرتُه حلما في الغالب، وهما تعرضه أمامي ظلال الموت، ومع ذلك حافظتُ عليه أمامي طوال الوقت، أحسنتُ وكأنه سيختفي قبل أن أصل إليه.

لا أتذكر الزحف على سلم المنزل أو الوقوف في الرواق الأمامي، لكنني لا أزال أرى يدي تمتد إلى مقبض الباب، وكان من الخزف الأبيض، وأتذكر دهشتي حين شعرتُ أن المقبض دار وفُتح المزلاج، دخلتُ إلى الردهة وكان كل شيء ساطعا، يشع بشكل لا يحتمل، فاضطررتُ إلى غلق عيني، وحين فتحتهما مرة أخرى، كانت هناك امرأة تقف أمامي - امرأة جميلة شعرها أحمر، ترتدي فستانا أبيض طويلا، وعيناها الزرقاوان تتطلعان إليّ في دهشة وذعر، حتى إنني انفجرتُ في البكاء تقريبا، لثانية أو اثنتين، تصورت أنها أمي، وحين تذكرتُ أن أمي ماتت، أدركت أنني مت أنا نفسي وقد مررتُ للتو عبر بوابات السماء.

قالت المرأة: «انظر إلى نفسك. أيها الولد المسكين، انظر إلى نفسك فقط».

قلتُ: «سامحيني على تطفلي، يا مدام. اسمي والتر رولي، وعمرى تسع سنوات، أعرف أن ذلك قد يبدو غريباً، لكنني ساكون ممتناً لك إذا قلت لي أين أنا، لدي شعور بأنني في الجنة، وذلك لا يبدو صواباً بالنسبة لي، بعد كل المواقف التي اقترفتها، تصورت دائماً أن الأمر سينتهي بي في الجحيم».

قالت المرأة: «أوه يا عزيزي، انظر فقط إلى نفسك، أنت متجمد حتى الموت، تعال إلى قاعة الاستقبال لتتدفأ بجوار المدفأة».

وقبل أن أكرر سؤالى، أخذتني من يدي وقادتني حول الدرج إلى الغرفة الأمامية، وهي تفتح الباب بالضبط، سمعتها تقول: «يا عزيزي اخلع عن هذا الصبي ملابسه وأجلسه بجوار المدفأة، سأصعد لآتي ببعض البطاطين».

هكذا عبرتُ العتبة بنفسى، ودخلتُ إلى دفء الردهة وكتل من الجليد تتساقط منى وتبدأ الذوبان عند قدمي، كان هناك رجل يجلس إلى طاولة صغيرة في الركن، يتناول القهوة من فنان صيني رائع، كان أنيقاً يرتدي بدلة رمادية فاتحة، وكان شعره ممشطاً إلى الخلف دون فرق، يلمع بزيت بريلياننتين في نور المصباح الأصفر، كنتُ على وشك أن أقول له شيئاً حين تطلع إلي وابتسم، وهناك عرفتُ على الفور أنني ميت وأنني ذهبتُ إلى الجحيم مباشرة، من بين كل الصدمات التي تعرضتُ لها في حياتي، لا شيء يفوق القتل بالصدمة الكهربائية في تلك الليلة.

قال الأستاذ: «تعرف الآن أنك ستجديني حيثما ذهبتُ، مهما بعدتُ ستجديني في انتظارك على الطرف الآخر، الأستاذ يهودي في كل مكان يا والت، ومن المستحيل أن تهرب منه».

قُلْتُ: «أنت ملعون ابن عاهرة، أنت حقير محتال. أنت حقيبة زبالة قذرة».

«امسك لسانك يا ولد. هذا منزل مسز ويذرسبون ولن تسمح بأية شتيمة هنا. إذا كنت لا تريد العودة إلى تلك العاصفة، عليك أن تخلع هذه الملابس وتأدب».

رددت عليه: «افعلها، أيها اليهودي القذر، حاول فقط وافعلها».

لكن لم يكن على الأستاذ أن يفعل شيئاً، بعد أن تفوهت بهذا الرد بثانية، شعرتُ بفيضان من السخونة، دموع مالحة تندفع على وجنتي، أخذتُ نفساً عميقاً، جامعاً من الهواء في رنتي بقدر ما أستطيع، ثم انطلقت مني صيحة، صرخة من البؤس الخالص الطليق، وهي في طريقها للخروج مني شعرت ببحّة في صوتي وغصة في حلقي، وبدأ رأسي يلف، توقفت عن أخذ نفس آخر، ثم، وقبل أن أعرف ما يحدث، فقدت الوعي وسقطتُ على الأرض.

ظَلَّتْ مريضاً لوقت طويل، اشتعلت النار في جسمي، والحمى تحرق أعماقي، بدا أكثر وأكثر وكان عنواني البريدي القادم سيكون صندوقاً خشبياً، قضيتُ الأيام الأولى في منزل مسر ويذرسيون، ثاوياً في غرفة الضيوف في الدور العلوي، لكنني لا أتذكر شيئاً من ذلك، ولا أتذكر إعادتي إلى البيت، ولا أي شيء آخر يتعلق بهذه المسألة حتى مرور عدة أسابيع. طبقاً لما قيل لي، كنت سأهلك لولا الأم سيو- أو الأم سيوكس، كما صرت أسميها أخيراً. كانت تجلس بجوار سريري على مدار الساعة، تغير الكمادات وتصب ملاعق السوائل في حلقي، وثلاث مرات يومياً تنهض من مقعدها وتقوم برقصة حول سريري، تصدر إيقاعاً معيناً على طبلة وهي تنشد ابتهالات «للروح العظيمة»، متوسلة إليها أن تنظر إليّ بعطف وتجعلني في حالة جيدة مرة أخرى، لا أفترض أنها أضرت بالقضية، لأنه لم يتم حتى استدعاء طبيب محترف ليفحصني، ونظرًا إلى أنني تحسنت وشفيت تمامًا، فمن المحتمل أن ذلك كان نتيجة لسحرها.

ولم يعط أحد قط اسمًا طبياً لعلتي، كان تفكيري أنها نتيجة للساعات التي قضيتها في العاصفة، لكن الأستاذ رفض هذا التفسير لأنه ليس هناك ما يدعمه، قال: إنه «ألم الكينونة»، وكان لابد أن يصيبني أجلاً أو عاجلاً، كان يجب إزالة السموم من جسمي قبل أن أتقدم إلى المستوى التالي من تدريبي، وما كان يمكن أن يستمر لستة شهور أو تسعة شهور أخرى (مع مناوشات لا تحصى بيننا) اختصرته مقابلتنا في ويتشيتا، قال: إنني استسلمت للخضوع، مهشماً بمعرفة أنني لا يمكن أن أنتصر عليه، وكانت هذه الصدمة الذهنية الشرارة التي أطلقت العلة، بعد ذلك، تطهرت من الحقد، وحين استيقظتُ من كابوس اقترابي من الموت، تحولت الكراهية الملتهبة داخلي إلى حب.

لا أريد أن أعارض رأى الأستاذ، لكن يبدو لي أن تحولي كان أبسط من ذلك بكثير، ربما بدأ بعد شفائي من الحمى مباشرة، حين استيقظتُ ورأيتُ الأم سيوكس تجلس بجواري وعلى وجهها ابتسامة من تلك الابتسامات المنتشية السعيدة، وقالت: «رائع، عاد ولُنتُ»^(١) الصغير إلى أرض الحياة». وكان في صوتها تلك البهجة، والاهتمام بتحسني، حتى إن شينا ما بداخلي بدأ يذوب، قلتُ وأنا أدرك ما أقول بالكاد: «لا توجد مشكلة، أيتها الأم، ما زلتُ في غفوة تامة». أغلقتُ عيني على الفور وغرقت مرة أخرى في سباتي، لكن بالضبط وأنا أنعس شعرتُ بوضوح بشفتي الأم سيوكس على خدي، وكانت أول قبلة يقبلها لي أحد منذ موت أمي، وقد جلبت ومضة من الدفء والترحيب، أدركتُ أنني لا أبالي بمصدرها، إذا أرادت تلك المرأة الهندية البدينة أن تمسني بهذه الطريقة، ما كنت لأقف في طريقها.

أظن أنها كانت الخطوة الأولى، لكن كانت هناك حوادث أخرى أيضاً، ليس أقلها شأنًا ما حدث بعد ذلك ببضعة أيام، حين ارتفعت الحمى مرة أخرى، استيقظت بعد الظهر مباشرة لأجد الغرفة خاوية، وكنت على وشك الزحف من سريري محاولاً استخدام قصرية الغرفة^(٢)، لكن بمجرد أن رفعت أذني عن الوسادة، سمعتُ همساً خارج غرفتي. كان الأستاذ يهودي وأيسوب يقفان في الردهة منهمكين في محادثة بصوت مكتوم، ورغم أنني لم أتبين كل ما يقولان، سمعتُ ما يكفي لأحدد الخلاصة. كان أيسوب في الخارج يوبخ الأستاذ، يقف في وجه الرجل الكبير ويطلب منه ألا يكون

(١) ولُنتُ Walnut: من الواضح أنه تحريف لاسم والتر Walter.

(٢) قصرية الغرفة: إناء كان يوضع تحت السرير ويستخدم باعتباره تواليت أثناء الليل أو المرض.

بكل هذه القسوة معي، لم أصدق ما أسمع، بعد كل ما سببته له من إزعاج ووجهته له من بغض، شعرتُ بخجل من نفسي حين علمتُ أن أيسوب في صفي، همس: «حطمت روحه، والآن يرقد بالداخل على فراش الموت، ليس عدلا يا أستاذ، أعرف أنه مزعج ووغد، لكن في قلبه ما يتجاوز التمرد، شعرتُ بذلك، رأيته بعيني، وحتى لو كنتُ مخطئاً يبقى أنه لا يستحق هذه المعاملة التي عاملته بها، لا أحد يستحق هذه المعاملة».

بدا رائعاً أن أجد شخصاً يدافع عني بهذه الطريقة، لكن الأكثر روعة أن خطبة أيسوب لم تقع على أذن صماء، في تلك الليلة ذاتها، وأنا أقلب في الظلام، زحف الأستاذ يهودي بنفسه إلى غرفتي، وجلس على السرير المشبع بالعرق، وأخذ يدي في يده، أبقيتُ عيني مغلقتين ولم أصدر صوتاً، متظاهراً بالنوم طوال فترة وجوده، قال برقة كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «لا تمت يا والت، أنت فتى صغير متين، ولم يحن الوقت لتسلم الروح، لا يزال أمامنا أمور عظيمة، أمور رائعة لا تستطيع حتى أن تتخيلها، قد تظن إنني ضدك، لكنني لستُ ضدك؛ إنني فقط أعرف حقيقتك، وأعرف أنك تستطيع أن تتحمل الضغط، أنت موهوب يا بني، وسأخذك أبعد مما ذهب أي شخص من قبل، تسمعني يا والت؟ أطلب منك ألا تموت، أقول لك إنني أحتاج إليك ولا ينبغي أن تموت وأنت تحت رعايتي».

سمعته تماماً، كان صوته يأتيني عالياً وواضحاً، وكان يغري بأن أرد بشيء ما، لكنني تغلبتُ على الرغبة الملحة وأمسكتُ لساني، حل بعد ذلك صمت طويل. جلس الأستاذ يهودي في الظلام يربت على يدي، وبعد برهة، إذا لم أكن مخطئاً، إذا لم أكن قد نعتتُ وحلمتُ بما

حدث بعد ذلك، سمعتُ، أو على الأقل ظننتُ أنني سمعتُ، سلسلة من التنهيد المتقطع، قعقة لا يمكن تمييزها غالباً، تخرج من صدر رجل كبير وتخترق هدوء الغرفة- مرة واثنين وعشر مرات.

لن يكون من قبيل المبالغة أن أقول: إنني تخلّيتُ عن شكوكي كلها في الحال، لكن موقفي بدأ يتغير دون شك، عرفتُ أن الهروب حماقة، وأنني باقٍ شئتُ أم أبيتُ، وقررتُ تحقيق أقصى استفادة من وضعي، ربما كان لاقترابي من الموت علاقة بالأمر، لا أعرف، لكن بمجرد نهوضي من سرير المرض والوقوف مرة أخرى على قدمي، لم أعد في الوضع السيئ الذي كنت فيه، سعدتُ جداً بتحسّن حالتني مرة أخرى، ولم يعد يزعجني أنني أعيش مع المنبوذين في الدنيا، كانوا غرباء، وبغضاء جداً، لكن رغم تدمري المستمر وسلوكي السيئ، تعاطف كل منهم معي بطريقة، وكنت أحمق حين تجاهلت ذلك، ربما تبخر كل ذلك لدرجة أنني اعتذرتُ عليهم في النهاية، إذا نظرتُ إلى وجه شخص وقتاً كافياً، تشعر في النهاية أنك تنظر إلى نفسك.

بكل ما قلت، لا أقصد أن يتضمن أن حياتي صارت أسهل بحال من الأحوال، على المدى القصير، ثبت أنها ربما أكثر قسوة من قبل، ولمجرد أنني خنقتُ مقاومتي إلى حد ما، لم يجعلني ذلك أقل غروراً بحال من الأحوال، صبيها صغيراً أقل مشاكسة مما كنت دائماً. حل الربيع علينا، وخلال أسبوع من شفائي خرجتُ إلى الحقول أحرث الأرض وأغرس البذور، كاسراً ظهري مثل ريفي أبله حقير، مقتُ العمل اليدوي، ونظراً إلى أنني لم يكن لي مقدرة عليه إطلاقاً، تطلعتُ إلى تلك الأيام باعتبارها تكفيراً، حكماً قاسياً لا ينتهي، أصابع اليدين دامية، وأصابع القدمين مقطوعة، لكن على الأقل

لم أكن هناك وحدي. عملنا نحن الأربعة معًا لشهر تقريبًا، معلقين كل الأعمال الأخرى ونحن نسرع لنغرس البذور في الوقت المحدد (الذرة، القمح، الشوفان، البرسيم) ونعد التربة لحديقة خضروات الأم سيوكس، مما يحافظ على بطوننا ممتلئة خلال الصيف، كان العمل شاقًا جدًا بالنسبة لنا بدرجة تحول بيننا وبين التوقف والثرثرة، لكن كان لدي جمهور أبته شكائي، ووقمتما كنت أندفع جانبيًا إلى أحد تعليقاتي اللاذعة، أنجح دائمًا في انتزاع الضحكة من شخص ما، كان ذلك اختلافًا كبيرًا بين ما كنت عليه قبل المرض وبعده، لم يتوقف فمي قط عن العمل، لكن بينما كانت تعليقاتي من قبل تأتي لاذعة ووحشية وكريهة، صارت تأتي باعتبارها دعابات، ثرثرة لا تتوقف من بهلوان صغير ماهر.

عمل الأستاذ يهودي بجد مثل ثور، منهمكا في مهامه وكأنه وُلد للأرض، ولم يفشل قط في إنجاز أكثر مما ينجزه بقيتنا مجتمعين، وكانت الأم سيوكس ثابتة، ومجتهدة، وصامتة، تتقدم في انحناء مستمرة ومؤخرتها الممتلئة تتجه إلى السماء، إنها تنحدر من جنس صيادين ومحاربين، وكانت الزراعة غريبة عليها بقدر غربتها عليّ. ومع هذا الشكل السيئ الذي كنت عليه كان وضع أيسوب أسوأ، وأراحني أن أعرف أنه لم يكن أقل حماسًا مني بشأن ضياع وقته في ذلك العمل الشاق. كان يريد أن يكون في البيت يقرأ كتبه، ويحلم ويفكر، وبينما لم يواجه الأستاذ قط بشكواه، كان يستجيب بشكل خاص للغوي، مقاطعًا نوبات نزواتي بـ «تلقائية»، وكلما ضحك يبدو وكأنه يزفر «أمين» بصوت مرتفع، يطمئنني بأنني أصبت الهدف بدقة. كنت دائمًا أرى أيسوب هادما للذرة، لذيًا وغير مؤذٍ، لم يخرق القواعد قط، لكن بعد الاستماع لضحكته في تلك

الحقول بدأت أكوّن رأيا مختلفا عنه، في تلك العظام المشوّهة من الطيب أكثر مما تخيلتُ، ورغم جديته وأساليبه المغرورة، كان على حافة المرح مثل أي صبي آخر في الخامسة عشرة، ما فعلته هو أنني قدمت له بعض التنفيس الكوميدي. داعبه لساني الحاد، حسنتُ وقاحتني وحيلي من روحه المعنوية، وبمرور الوقت فهمتُ أنه لم يعد مز عجا أو منافسا، صار صديقا. أول صديق حقيقي في حياتي.

لا أقصد أن أبالغ في العاطفي، لكنني أتحدث عن طفولتي، بطانة ذكرياتي الأولى، ومع ارتباطات قليلة جدا عند الحديث عنها بعد سنوات، تستحق صداقتي مع أيسوب الذكر، بقدر ما فعل الأستاذ يهودي نفسه، أثر في بطرق بدلتني، غيرت سياق حياتي وجوهرها. لا أشير فقط إلى تعصبي، السحر القديم عن عدم النظر بتعال إلى لون بشرة شخص، لكن إلى حقيقة الصداقة نفسها، إلى الرابطة التي نشأت بيننا. صار أيسوب رفيقي، مرساتي في بحر السماء الواحدة، ودون تشجيعه، ما كنت لأجد الشجاعة قط على مقاومة العذاب الذي حاصرني على مدى الشهور الاثني عشر أو الأربعة عشر التالية، بكى الأستاذ في ظلام غرفتي أثناء المرض، لكن بمجرد تحسن حالتي مرة أخرى، تحول إلى قائد عبيد، معرضا روحي لآلام مبرحة لا تحتملها روح حية، حين أنظر إلى تلك الأيام الآن، أتعجب لأنني لم أمت، وأنني ما زلت هنا لأتحدث عنها.

بمجرد انتهاء موسم الغرس ووضع غذائنا في الأرض، بدأ العمل الحقيقي، كان ذلك بعد عيد ميلادي العاشر مباشرة، ذات صباح رائع في نهاية مايو، دفعني الأستاذ جانبا بعد الفطور وهمس في أذني: «استعد يا ولد، المدهش على وشك أن يبدأ».

قُلْتُ: «تقصد أننا لم نكن نفعل شيئاً مدهشاً؟ صحخ لي إذا كنتُ مخطئاً، لكنني اعتقدت أن مجموعة الأربعة إتش^(١) كانت على وشك أن تقدم أكثر التجارب إثارة للدهشة منذ آخر مرة لعبتُ فيها الداما الصينية»^(٢).

«العمل في الأرض كان أحد الأشياء، مهمة غبية لكنها ضرورية، لكننا سنبدأ الآن نحول تفكيرنا إلى السماء».

«تقصد مثل الطيور كما أخبرتني من قبل؟»

«نعم، يا والت، مثل الطيور بالضبط».

«تقول لي إنك لا تزال جاداً بشأن تلك الخطة؟»

«جاداً تماماً. إننا على وشك أن نتقدم إلى المرحلة الثالثة عشرة، إذا فعلتُ ما أطلبه منك، سوف تكون محلقة في الجو بعد عام من الكريسماس القادم».

«المرحلة الثالثة عشرة؟ تقصد أنني مررت باثنتي عشرة مرحلة؟»

«صحيح، مررت باثنتي عشرة. وقد مررت بكل منها ببسر تام».

(١) الأربعة إتش: منظمة للشباب في أمريكا مهمتها مساعدة الشباب للوصول إلى أعلى قدرة. ويمثل الاسم المناطق الأربعة التي تركز عليها المنظمة: الرأس head، والقلب heart، واليدان hands، والصحة health.

(٢) الداما الصينية: لعبة يحاول فيها كل لاعب نقل مجموعة من الحجارة مرصوفة في حفر من نقطة على نجمة سداسية إلى النقطة المقابلة.

«حسنا، نزلت لوزتي، ولم أشعر قط، كنت ترفض أن تخبرني، يا ريس».

«أخبرك فقط بما تحتاج إلى أن تعرفه، البقية من اختصاصي».

«اثنتا عشرة مرحلة، يوه؟ وكم تبقى؟»

«كلها ثلاث وثلاثون».

«إذا اجتزّت المراحل الاثنتي عشرة التالية بالسهولة التي اجتزّت بها سابقتها، فسوف نكون بالفعل في المراحل الأخيرة».

«لن تجتازها بسهولة، أعدك، مهما ظننت أنك عانيت، فهي معاناة لا تمثل شيئاً مقارنة بما ينتظرك».

«الطيور لا تعاني، إنها تفرد أجنحتها فقط وتحلق في الفضاء، إذا كنت موهوباً كما تقول، لا أعرف لماذا لا يكون الأمر سهلاً».

«لأنك، يا صغيري، لست طائراً، علينا لنرفعك عن الأرض، أن نشق السماوات نصفين، علينا أن نقلب العالم كله رأساً على عقب».

مرة أخرى، لم أفهم عُشر ما قاله الأستاذ، لكنني أومأت برأسي حين دعاني رجلاً، وشعرتُ بأن تلك الكلمة نبرة جديدة من نبرات التقدير، اعتراف بالأهمية المفترضة لي في عينيه، وضع يده برقة على كتفي وأخذني إلى الخارج في صباح يوم من أيام مايو، لم أشعر في تلك اللحظة إلا بالثقة تجاهه، ورغم أن وجهه كان يحمل تعبيراً عميقاً متجهماً، لم يمر بخاطري قط أنه قد يكسر تلك الثقة، ربما هذا ما شعر به إسحاق حين أخذه إبراهيم على ذلك الجبل في سفر التكوين، الإصحاح الثاني والعشرين. إذا قال لك رجل:

إنه أبوك، حتى لو كنت تعرف أنه ليس أباك، تتخلى عن حذرك وتتخلص من كل الغباء الذي بداخلك. لا تتخيل أنه يتأمر ضدك مع الرب، إله الملكوت، لا يعمل دماغ الصبي بهذه السرعة؛ ليس بارعاً بما يكفي لفهم تلك الحيلة، كل ما تعرفه أن رجلاً كبيراً وضع يده على كتفك وضغط عليها بود. إنه يقول لك تعال معي، فتستدير إلى ذلك الاتجاه وتتبعه إلى حيث يمضي.

خرجنا من الزريبة إلى سقيفة المعدات، بناية صغيرة متداعية بسقف متدل وجدران من ألواح باهتة غير مدهونة، فتح الأستاذ يهودي الباب ووقف صامتاً لبرهة طويلة، محدقاً في كتلة سوداء من الأشياء المعدنية الموجودة في الداخل، في النهاية مد يده وسحب جاروفاً، شيئاً ثقیلاً صدناً لا بد أنه يزن خمسة عشر رطلاً أو عشرين، وضع الجاروف في يدي، وشعرتُ بالزهو لأنني أحمله عنه بمجرد أن بدأت السير مرة أخرى، مررنا على حافة حقل الذرة القريب، وأتذكر أنه كان صباحاً رائئاً، حافلاً بطيور أبي الحناء المندفعة والعصافير الزرقاء، وشعرتُ بتنميل في جلدي مع إحساس غريب بالحيوية، نعمة دفء الشمس وهي تتدفق علّى، وصلنا تدريجياً إلى رقعة غير محروثة من الأرض، بقعة جرداء عند ملتقى حقلين، واستدار الأستاذ إلى وقال: «هنا نضع الحفرة، هل تحب أن تقوم بالحفر أم تتركه لي».

فعلبتُ أقصى ما أستطيع، لكن ذراعى لم تكونا مؤهلتين لذلك العمل، كنتُ أصغر من أن أستخدم جاروفاً بهذا الثقل، وحين رأى الأستاذ أنني أكافح لمجرد أن أخترق التربة، ناهيك عن دس النصل تحتها، طلب مني أن أجلس وأستريح، وقال: إنه سينهي المهمة

بنفسه، شاهدته على مدار الساعتين التاليتين وهو يحول تلك الرقعة من الأرض إلى تجويف هائل، حفرة باتساع قبر ضخم وعمقه، عمل بسرعة حتى بدا الأمر وكأن الأرض تبتلعه، وبمرور الوقت غاص بحيث لم أعد أرى رأسه. كنت أسمع المهمة، صوت حركة التنفس السريع الذي يصاحب كل ضربة جاروف، ليأتي وابل من التراب غير المتماسك مندفعًا إلى السطح، معلقًا لثانية وسط الهواء، ثم يسقط على كومة تكبر حول الحفرة. واصل وكان هناك عشرة منه، جيش من الحفارين عازمين على حفر نفق إلى أستراليا، وحين توقف في النهاية وخرج من الحفرة، كان ملطخًا بالقدارة والعرق حتى إنه بدا مثل رجل من الفحم، ممثل مسرحي منهك على وشك أن يموت بمكياج الأسود، لم أر قط أحدًا مصبوغًا بهذا الشكل، ولم أشاهد قط شخصًا حُرِم من التنفس بهذا الشكل، وحين ارتمى على الأرض لم يتحرك لعشر دقائق، وشعرت بشكل مؤكد أن قلبه على وشك أن يتوقف.

رُوِّعْتُ بدرجة أخرستني، ركزتُ على القفص الصدري للأستاذ بحثًا عن علامات الانهيار، متنقلًا بين البهجة والأسى وصدرة يصعد ويهبط، يصعد ويهبط، ينتفخ ويتقلص أمام الأفق الأزرق الطويل، في منتصف مراقبتي، تجولت سحابة أمام الشمس وصارت السماء مظلمة بشكل ينذر بسوء، ظننتُ أن ملاك الموت يمر فوقنا، لكن رنتي الأستاذ يهودي ظللتا تتحركان والهواء يسطع ببطء، وبعد لحظة جلس وابتسم، وأخذ بلهفة ينظف وجهه من التراب.

قال: «حسنًا، ما رأيك في حفرتنا؟»

قلتُ: «إنها حفرة كبيرة، حفرة عميقة ورائعة لا نظير لها».

«يسعدني أنها أعجبتك، لأنك وتلك الحفرة ستكونان على علاقة وثيقة على مدار الساعات الأربع والعشرين التالية».

«لا أبالي، تبدو لي مكانا رائعا، مادام المطر لا يتساقط، قد يكون من الممتع أن أمكث فيها بعض الوقت».

«لا مبرر للقلق بشأن المطر يا والت».

«هل أنت من رجال الأرصاد أو شيء من هذا القبيل؟ ربما لم تلاحظ، لكن الأحوال هنا تتبدل كل خمس عشرة دقيقة، حين يتعلق الأمر بالطقس، هذا المكان من كانساس متقلب دائما».

«صحيح جدا، لا يمكن التكهّن بأحوال السماء في هذه البقاع، لكنني لا أقول إنها لن تمطر، قلتُ فقط لا تقلق بشأن ذلك».

«بالتأكيد، أعطني غطاء، أو قطعة البلاستيك، تفكير طيب، لا تخطئ حين تخطط للأسوأ».

«لا أضعك هناك للمتعة والمزاح، سيكون هناك ثقب تتنفس منه بالطبع، أنبوبة طويلة تحتفظ بها في فمك لتتنفس منها، وباستثناء ذلك ستكون الحفرة رطبة ومزعجة. إنه نوع من الإزعاج المتدرج الوضع، إذا سامختني على هذا التعبير، أشك في أن تنسى التجربة طوال حياتك».

«أعرف أنني غبي، لكنك إذا لم تكف عن الكلام بالألغاز، سنقضي اليوم كله هنا قبل أن أنزل في حفرتك».

«سأدفنك يا بني».

«ماذا تقول؟»

«سأضعك في هذه الحفرة، وأعطيك بالتراب، وأدفنك حيًا».

«وتتوقع أن أوافق على ذلك؟»

«ليس أمامك من اختيار، تنزل إليها بإرادتك، أو أكتفك بيدي
الاثنتين، بطريقة تحيي حياة طويلة مزدهرة؛ وبالطريقة الأخرى،
تنهي حياتك في ثلاثين ثانية».

وهكذا تركته يدفنني حيًا- خبرة لا أنصح أحدا بها. تبدو الفكرة
بغیضة، والتنفيذ أسوأ بكثير، وبمجرد أن تقضي بعض الوقت في
أحشاء حفرة كما فعلتُ ذلك اليوم، لا يمكن أن يبدو لك العالم كما كان
مرة أخرى أبدًا، يصبح أجمل بشكل لا يوصف، لكن ذلك الجمال
ينقع في ضوء مؤقت جدا، زائف جدا، لا يتجسد أبدًا، ورغم أنك
تراه وتلمسه كما فعلتُ دائمًا، يفهم جزء منك أنه ليس سوى سراب،
الإحساس بالتراب عليك شيء، وضغطه وبرودته، هلع التخشب
الذي يشبه الموت، لكن الفزع الحقيقي لا يبدأ إلا حين تخرج من
تحت التراب وتقف وتمشي مرة أخرى، منذ تلك اللحظة، يرتبط
كل ما يحدث لك على السطح بتلك الساعات التي قضيتها تحت
الأرض، غُرِسَتْ بذرة صغيرة من الجنون في رأسك، ورغم أنك
كسبت معركة النجاة، فإنك فقدت كل شيء آخر تقريبًا. يعيش الموت
بداخلك، ينخر في براءتك وأملك، وفي النهاية تُترك دون أي شيء
سوى التراب، صلابة التراب، القوة الدائمة للتراب وانتصاره.

هكذا بدأت بدايتي، على مدى الأسابيع والشهور التي تلت ذلك،
مررت بتجارب أخرى مماثلة، سيل متواصل من الظلم، كل اختبار

أفزع من سابقه، وإذا تمكنت من ألا أستسلم، فقد كان ذلك نتيجة عناد غريب تمامًا، وهو أمر سلبي أحمق بقي في مكان ما من أعماق روحي، لم يكن الأمر يتعلق بالإرادة أو التصميم أو الشجاعة، لم أكن أتمتع بأي من هذه الخصائص، وكلما دُفِعتُ أكثر، قل زهوي بإنجازاتي. جُلِدتُ بسوط؛ ألقى بي من على حصان يعدو؛ رُبِطْتُ في سقف الزريبة دون طعام أو ماء؛ لَطَخْتُ بشرتي بعسل ووقفتُ عارياً في حر أغسطس ليحتشد ألف ذبابة ودبور فوقِي؛ جَلَسْتُ في دائرة من النار ليلة كاملة وأصيب جسمي بقروح؛ غُمِرْتُ بشكل متكرر لمدة ست ساعات في حوض ممتلئ بالخل؛ صُعِقْتُ؛ شَرِبْتُ بول بقر واكلتُ روث أحصنة؛ تناولتُ سكيناً وقطعتُ المفصل العلوي لخنصري الأيسر؛ عُلِقْتُ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في شرنقة من الحبال في عوارض السندرة. فعلتُ هذه الأشياء لأن الأستاذ يهودي طلب مني أن أفعلها، وإذا لم أستطع أن أحمل نفسي على حبه، لم أكرهه أو أستاذ منه نتيجة المعاناة التي تحملتها، كف عن تهديدي، اتبعتُ أوامره بطاعة عمياء، ولم أبال بهدفه، طلب أن أقفز، فقفزتُ، وطلب أن أتوقف عن التنفس، فتوقفت عن التنفس، كان الرجل الذي وعد بأن يجعلني أطيّر، ورغم أنني لم أصدق قط، تركته يستخدمني وكأنني أصدق. كانت بيننا صفقة رغم كل شيء، الاتفاق الذي أبرمناه في تلك الليلة الأولى في سانت لويس، ولم أنسَه قط، إذا لم يف بوعده بحلول عيد ميلادي الثالث عشر، قطعُ رأسه بفأس، لم يكن في ذلك الترتيب شيء شخصي- كان مسألة عدالة ببساطة، إذا خذلني ابن العاهرة قتلته، وكان يعرف ذلك مثلما كنت أعرفه.

بينما استمرت هذه المحن، التصق بي أيسوب والأم سيوكس كأنني من لحمهما ودمائهما، حبيب قلبيهما، كانت هناك فترات

استجمام بين المراحل المختلفة من تطوري، تستمر أياً ما أحياناً، وأحياناً أسابيع، حيث كان الأستاذ يهودي يختفي غالباً، يغادر المزرعة تماماً وجروحي تندمل وأشفى لأواجه الاعتداء التالي المذهل على شخصي، لا أعرف إلى أين كان يمضي في تلك الوقفات، ولم أسأل الآخرين عنها، حيث إنني كنت أشعر بارتياح دائم حين يغيب. لا أنجو فقط من مزيد من المحاولات، لكنني أتحرق من عبء وجود الأستاذ- صمته الكئيب ونظراته المعذبة، بشاعة الفضاء الذي يحتله- وكان ذلك وحده يطمئنني، ويمنحني الفرصة لأتتفس مرة أخرى، كان المنزل من دونه أكثر سعادة، حيث نعيش نحن الثلاثة في انسجام ملحوظ، الأم سيوكس البدينة وولداها الهزيلان. في تلك الأيام التي صرت أنا وأيسوب رقيقين، ويقدر ما كان ذلك الوقت تعيساً بالنسبة لي، إلا إنني أحتفظ ببعض الذكريات الطيبة عنه، ربما أفضل الذكريات على الإطلاق. كان أيسوب شخصاً رائعاً في حكي القصص، ولم أحب شيئاً بقدر حبي إلى الاستماع إلى ذلك الصوت الرخيم وهو يستطرد في حكي الحكايات الغريبة التي تحشو رأسه، كان يعرف المئات منها، ووقتما أطلب منه، وأنا أستلقي على سريري ممثلاً بالكدمات والقروح من المصيبة الأخيرة، يجلس لساعات يروي قصة بعد أخرى. «جاك القاتل العملاق»، «سندباد البحار»، «عوليس الجوال»، «الطفل ببلي»، «لنسلوت والملك آرثر»، «بول بنيان»- استمغتُ إليها كلها، ومع ذلك كان يدخر أجمل القصص للأوقات التي أشعر فيها باكتئاب شديد، كانت عن شخص يحمل اسمي، سير والتر رالي^(١). أتذكر مدى صدمتي حين أخبرني بأن اسمي مشهور، اسم بطل ومغامر حقيقي، وليبرهن على أنه لم يكن يلفقها، ذهب أيسوب إلى رف

(١) سير والتر رالي (١٥٥٤-١٦١٨): شاعر وكاتب ومستكشف ومستعمر بريطاني، حكم عليه بالإعدام.

الكتب وسحب مجلدًا ضخماً فيه صورة سير والتر، لم أر قط وجهًا بهذه الروعة، وبسرعة اعتذرت أن أتأملها عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة يوميًا. أحببتُ لحيتَه المدببة وعينيه الحادتين جدا، الحلق اللؤلؤ المثبت في أذنه اليسرى، كان وجه قرصان، فارس أصيل متهور، ومنذ ذلك اليوم حملت سير والتر بداخلي ذاتًا ثانية، أخًا خفيًا يقف معي في السراء والضراء. حكى أيسوب قصص العبادة والوحل، البحث عن الدورادو، المستعمرة الضائعة في روانوك، ثلاثة عشر عاما في برج لندن، الكلمات الجريئة التي نطق بها عن قطع رأسه. كان أفضل شعراء عصره؛ كان أديبا، وعالما، ومفكرا حرا؛ كان الحبيب الأول للنساء في إنجلترا كلها. قال أيسوب: «فكرُ فينا معًا أنا وأنت، لتبدأ تكوين فكرة عنه. رجل بأفكاري وأحشائك، طويل وأنيق أيضًا. ذلك هو السير والتر رالي، أكمل رجل عرفته الحياة على الإطلاق».

كل يوم كانت الأم سيوكس تدخل غرفتي وتغطيني، وتجلس بجواري حتى أنام مهما استغرق الأمر، بدأتُ أعتد على هذا الطقس، ورغم أنني كنت أنمو بسرعة وصلابة في كل الأمور الأخرى، كانت تراني طفلا. لم أسمح لنفسي بالبكاء قط أمام الأستاذ يهودي أو أيسوب، لكنني أرقت الدموع مع الأم سيوكس في مواقف لا تحصي، منتحبا بين ذراعيها مثل طفل بانس بين ذراعي أمه. أتذكرُ أن الأمر وصل بي ذات مرة إلى حد تناول موضوع الطيران، وكان ما قالته غير متوقع، كان رزينا جدا في تأكيده، حتى إنه هدا الاضطراب داخلي لأسابيع. ليس لأنني صدقته أنا نفسي، لكن لأنها صدقته، وكانت أكثر شخص أثق به في العالم.

قُلْتُ في إشارة إلى الأستاذ: «إنه رجل شرير، وبانتهاء الوقت الذي أقضيه معه، سأكون محنًا وكسيحًا مثل أيسوب».

«لا يا بني، الأمر ليس كذلك، سوف ترقص مع السحب في السماء».

«بقيثارة في يدي وجناحين ينبثقان من ظهري».

«في جلدك، في لحمك وعظامك».

«إنها خدعة أيتها الأم سيوكس، حزمة مثيرة للغثيان من الأكاذيب، إذا كان يسعى إلى تعليمي ما يقول، فلماذا لا يركز، ويفعل ذلك؟ على مدار عام كامل، عانيتُ من كل أنواع الإهانات التي يعرفها الإنسان؛ دُفِنْتُ، حُرِقْتُ، سُوِّهْتُ، وما زلتُ ملتصقا بالأرض كما كنتُ دائما».

«تلك هي الخطوات، ينبغي أن يتم الأمر بهذه الطريقة، لكن الأسوأ خلفك الآن تقريبًا».

«هكذا خدعك أيضا وجعلك تصدقينه».

«لا أحد يمكن أن يخدع الأم سيوكس؛ إنني أكبر وأبدن من أن ابتلع ما يقوله الناس، الكلمات الزائفة مثل عظام الدجاجة، تقف في حلقي وأبصقها».

«لا يمكن أن يطير الرجال، الأمر بهذه البساطة، لا يمكن أن يطير الرجال لأن الرب لا يريد أن يطيروا».

«يمكن تحقيق ذلك».

«ربما في عالم آخر، لكن ليس في هذا العالم».

«رَأَيْتُهُ يَحْدُثُ، وَأَنَا فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ، رَأَيْتُهُ بَعِينِي، وَإِذَا حَدَثَ مِنْ قَبْلِ، يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ مَرَّةً أُخْرَى».

«حَلَمْتُ بِهِ، اعْتَقَدْتُ أَنَّكَ رَأَيْتَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِي نَوْمِكَ».

«أَبِي يَا وَالْتَ، أَبِي وَأَخِي، رَأَيْتُهُمَا يَتَحَرَّكَانِ خِلَالَ الْهَوَاءِ مِثْلَ الْأَرْوَاحِ، لَمْ يَكُنْ طَيْرَانًا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تَتَخِيلُهَا، لَيْسَ مِثْلَ الطَّيُورِ أَوْ الْفَرَاشَاتِ، لَيْسَ بِأَجْنَحَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، لَكِنَّهُمَا ارْتَفَعَا فِي الْهَوَاءِ، وَكَانَا يَتَحَرَّكَانِ، ببطء تام وبشكل غريب، كَمَا لَوْ كَانَا يَعْومَانِ، يَشْقَانِ طَرِيقَهُمَا فِي الْهَوَاءِ مِثْلَ السَّابَّاحِينَ، مِثْلَ أَرْوَاحِ تَسِيرِ فِي قَاعِ بَحِيرَةٍ».

«لِمَاذَا لَمْ تَخْبِرْنِي بِذَلِكَ مِنْ قَبْلِ؟»

«لَأَنَّكَ مَا كُنْتَ لِتَصْدُقَنِي مِنْ قَبْلِ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُنِي أَخْبِرُكَ بِهِ الْآنَ، لِأَنَّ الْوَقْتَ آتٍ، إِذَا اسْتَمَعْتَ إِلَى مَا يَقُولُهُ لَكَ الْأُسْتَاذُ، فَسَوْفَ يَأْتِي بِأَسْرَعٍ مِمَّا تَتَخِيلُ».

حين حل الربيع للمرة الثانية، كان العمل في الحقل بمثابة إجازة بالنسبة لي، وقد ألقيت بنفسي فيه ببهجة مهوس، مرحبًا بفرصة أن أحياء مثل شخص طبيعي مرة أخرى، بدلاً من التلكؤ والشكوى من أوجاعي وآلامي، اندفعتُ بأقصى سرعة، مُحَمَّسًا نفسي على الالتزام به، مستمتعا بجهدي، كُنْتُ لا أزال ضئيلا مقارنة بمن في عمري، لكنني كنت أكبر وأقوى، وحتى وإن كان مستحيلا، فعلت كل ما أستطيع لأجاري الأستاذ يهودي نفسه، أفترض أنني خرجتُ لأبرهن على شيء، لأدفعه إلى احترامي، وأجعل الأنظار تلتفت إلى. كانت طريقة جديدة للمقاومة، وكلما طلب الأستاذ أن أبطئ، أن أهدأ ولا أندفع بكل هذه الجدية (قد يقول: «ليست بطولة أولمبية، لسنا هنا لننافس على ميداليات يا فتى»)، أشعر وكأنني أحرزُ نصراً، وكأنني أستعيد السيطرة على روحي تدريجيا.

التأم مفصل خنصري، ما كان يعتبر ذات يوم فوضى رهيبه من نسيج وعظام تحول بشكل لطيف إلى عقب غريب بلا ظفر، كنت أستمتع بالنظر إليه وأمرر إبهامي على الندبة، لامسا جزءاً مني انتهى للأبد. ربما فعلت ذلك خمسين مرة أو مائة مرة في اليوم، وكلما فعلتهُ أستعيد كلمتي «سانت لويس» في رأسي، كنت أكافح لأتشبث بماضي، لكن الكلمات لم تعد إلا كلمات، ممارسة لطقس في الذاكرة، لم تكن تستدعي أية صورة، أو تعيدني إلى حيث كنت، بعد ثمانية عشر شهراً في سيبولا، تحولت سانت لويس إلى شبح بالنسبة لي، يتلاشى المزيد منها يومياً.

بعد ظهيرة أحد الأيام في ذلك الربيع ارتفعت الحرارة بشكل غير عادي، ووصلت إلى مستويات منتصف الصيف، كنا نحن الأربعة

نعمل في الحقول، وحين خلع الأستاذ قميصه ليشعر بقدر أكبر من الارتياح، رأيتُ أنه يرتدي شيئاً ما حول عنقه: سيراً جليداً تتدلى منه كرة صغيرة شفافة مثل جوهرة أو حلية، حين اقتربتُ لأرى بشكل أفضل - محض فضول، دون حافز خفي - رأيتُ أنها العقلة المفقودة من خنصري، ملفوفة في حلية مع سائل شفاف، لا بد أن الأستاذ لاحظ دهشتي، لأنه نظر إلى صدره بتعبير ينم عن الذعر، وكأنه ظن أن عنكبوتا يزحف عليه، حين عرف الحقيقة، أمسك الكرة بأصابعه وعرضها على، مبتسماً ابتسامة رضا، قائلاً: «قطعة صغيرة جميلة، إيه يا والت؟»

قلتُ: «لا أعرف ما يتعلق بالجمال، لكنها تشبهني بشكل رهيب». «ينبغي أن تشبهك، كانت تنتمي إليك، كانت جزءاً منك في السنوات العشر الأولى من حياتك».

«ولا تزال، مجرد أنها انفصلت عن جسدي لا يعني أنها لم تعد جزءاً مني كما كانت من قبل».

«إنها منقوعة في فورملدهايد. محفوظة كما يحفظ جنين ميت في برطمان. لم تعد تنتمي إليك الآن، إنها تنتمي للعلوم».

«نعم، ماذا تفعل إذاً حول رقبتك؟ إذا كانت تنتمي للعلوم، لماذا لا تهبها لمتحف الشمع؟»

«لأن لها معنى خاصاً عندي، مختلف، ألبسها لتذكرني بديني لك، مثل سوط الجلد، هذا الشيء يوقظ ضميري، ولا يمكن أن أتركه يقع في يدي شخص غريب».

«ماذا عن يدي إذا؟ العدل عدل، وأنا أريد عقلتي، إذا كان لأي شخص أن يرتدي هذه القلادة، فينبغي أن يكون أنا».

«أعقد اتفاقاً معك، إذا تركتني أحتفظ بها فترة قصيرة، اعتبرتها قلادتك، وعد، اسمك عليها، وبمجرد أن أجعلك تنطلق من على الأرض، يمكن أن تستردها».

«للأبد؟»

«للأبد، بالطبع للأبد».

«وكم تكون هذه 'الفترة القصيرة'؟»

«لن تكون طويلة، تقف على الحافة بالفعل».

«الحافة الوحيدة التي أقف عليها حافة جهنم، وإذا كانت مكاني فهي مكانك أيضاً، أليس كذلك يا أستاذ؟»

«تستوعب الأمر بسرعة يا بني، متحدين نقف، منقسمين نسقط، أنت لي وأنا لك، ولا أحد يعرف أين نتوقف».

كانت المرة الثانية التي أسمع فيها أخباراً مشجعة عن تقدمي، الأولى من الأم سيوكس، والآن من الأستاذ نفسه، لا أنكر أنني شعرت بالزهو، لكن مع كل ثقتهما في قدراتي، فشلتُ في رؤية اقترابي من النجاح. بعد عصر ذلك اليوم القائظ في مايو، دخلنا فترة من الحرارة المرتفعة، الصيف الأكثر حرارة في الذاكرة الحية. كانت الأرض مرصداً، كلما سرتُ عليها، تشعر وكأن نعليك يذوبان ويفصلان عن حذائك، صلينا من أجل المطر عند العشاء كل ليلة، ولثلاثة أشهر لم تسقط نقطة واحدة من السماء، كان الهواء جافاً جداً، مثيراً للهذيان جداً في جفافه، يمكنك متابعة طنين ذباب الخيل

على بعد مائة ياردة، بدا كل شيء مثيرًا للأعصاب، مزعجا مثل شوكة تحك في سلك شائك، وكانت الرائحة المنبعثة من المرحاض نتنة جدا بحيث تحرك الشعر في منخاريك. ذبل محصول الذرة، وسقط وجف؛ التف الخس إلى أطوال خيالية عملاقة، واقفا في الحديقة مثل أبراج متحولة. بحلول منتصف أغسطس، كان يمكنك أن تسقط حصة في بئر وتعد إلى ستة قبل أن تسمع طقطقة المياه، لم يكن هناك فول أخضر، لم يكن في الكيزان ذرة، ولم تكن هناك طماطم بها عصارة مثلما كان في العام السابق، استقر بنا الأمر على البيض وفخذ الخنزير المدخن، ورغم أنه كان هناك ما يكفينا في الصيف، فإن مخزوننا المتناقص لم يعد يكفي الشهور التالية، قد يقول الأستاذ على العشاء: «اربطوا أحزمتكم يا أبنائي، اربطوا أحزمتكم وامضغوا حتى يفقد الطعام مذاقه تماما، إذا لم نحافظ على ما لدينا أطول فترة، فسوف نعاني من الجوع في شتاء طويل».

رغم كل المحن التي هاجمتنا أثناء الجفاف، كنت سعيدًا، أسعد بكثير مما بدا ممكنا، توارت معظم الأجزاء الرهيبة لبدائتي، وقفت أمامي مراحل كفاحي الذهني، المكاشفة بيني وبين نفسي، لم يعد الأستاذ يهودي عائقًا، كان يصدر أوامره ويختفي من ذهني، يقودني إلى أمكنة باطنية حتى أنسى نفسي، كانت المراحل الجسدية حربًا، تحديًا ضد البشاعة التي تتولد في جمجمة الأستاذ، ولم يبتعد قط عن نظري. كان يراقبني بدقة وهو يتفحص ردود أفعالي، ويشاهد وجهي بحثًا عن أية رجفة ميكروسكوبية من الألم. انتهى ذلك كله، تحول إلى مرشد دمث سخي، يتحدث بصوت رقيق لغاو يغريني بقبول مهمة غريبة بعد أخرى، جعلني أذهب إلى الزريبة وأعد كل قشة في طاولة الحصان، جعلني أفق على ساق واحدة ليلة كاملة،

ثم أقف على الساق الأخرى الليلة التالية بطولها، ربطني في عمود في شمس منتصف النهار وأمرني بأن أكرر اسمه عشرة آلاف مرة، فرض عليَّ عهدًا من الصمت، ولمدة أربعة وعشرين يومًا لم أكلم أحداً، ولم أنبس بصوت حتى وأنا وحدي، جعلني أتحرج عبر الفناء، جعلني أحجل، جعلني أقفز خلال أطواق، علمني كيف أبكي بارادتي، ثم علمني كيف أضحك وأبكي في الوقت ذاته، جعلني أتعلم كيف أتلاعب بالأحجار، وبمجرد أن استطعتُ التلاعب بثلاثة أحجار جعلني أتلاعب بأربعة، عصب عيني أسبوعاً، وسد أذني أسبوعاً، وقيد ذراعي وساقِي معاً أسبوعاً وجعلني أزحف على بطني مثل دودة.

انكسر الطقس في أوائل سبتمبر، أمطار غزيرة، برق ورعد، رياح عاصفة، إعصار كاد يطيح بالمنزل في طريقه، ارتفعت مستويات المياه مرة أخرى، لكن باستثناء ذلك لم نصبح أحسن حالاً مما كنا، تلفت المحاصيل، ودون أي شيء نضيفه إلى إمداداتنا طويلة المدى، كانت النظرة إلى المستقبل كئيبة، وكنا على حافة الهاوية في أفضل الأحوال. ذكر الأستاذ أن المزارعين في المنطقة كلها تعرضوا لخراب مماثل، وصارت الحالة المزاجية في البلدة بشعة، هبطت الأسعار، وكان الرصيد شحيحاً، وكان الحديث عن حجز البنك على الرهن في الأفق. قال الأستاذ: حين تنضب المحافظ تمتلئ الأدمغة بالغضب والسخام. وواصل: «يمكن لهذه المحافظ أن تتعفن ولا يهتمني، لكنهم بعد برهة سيبحثون عن شخص ما يحملونه مسئولية مشاكلهم، وحين يحدث ذلك، نكون نحن الأربعة في حالة أفضل». طوال ذلك الخريف الغريب من العواصف والمستنقعات، بدا الأستاذ يهودي مشتتاً نتيجة القلق، كأنه يتأمل كارثة لا توصف،

شيئا أسود بدرجة تجعله لا يجرؤ على النطق به، بعد تدليلي طوال الصيف، وحتي خلال صرامة تدريباتي الروحية، بدا أنه فقد اهتمامه بي فجأة. تكرر غيابه أكثر، مرة أو اثنتين تلعثم وفاحت رائحة خمر من نفسه، وتخلّى عن كل شيء إلا جلساته الدراسية مع أيسوب، زحف حزن جديد إلى عينيّه، نظرة كآبة ونذير شرّ، بهت معظم ذلك بالنسبة لي الآن، لكنني أتذكر أنه في اللحظات القصيرة التي ينعم عليّ فيها بصحبته كان يعمل بدفء مدهش، ثمة حادث يبرز من ضباب الذاكرة: ذات مساء في أوائل أكتوبر وهو يدخل المنزل وتحت ذراعه جريدة وابتنسامة عريضة على وجهه، قال لي، وهو يجلس ويفرد الجريدة على طاولة المطبخ: «لدي أخبار طيبة لك. فاز فريقك. أمل أن يسعدك هذا، لأنه يقال هنا: إنه لم يصل إلى القمة منذ ثمانية وثلاثين عاما».

قلتُ: «فريقي؟»

«فريق سانت لويس كاردينال. إنه فريقك، أليس كذلك؟»

«تراهن أنه هو. كنتُ مع فريق رديردز حتى النهاية».

«حسنا، فازوا ببطولة العالم للتو، طبقا للمنشور هنا، كانت الجولة السابعة الأكثر إثارة وفتنة».

هكذا علمتُ بفوز فريقي ببطولة ٢٦. قرأ لي الأستاذ يهودي التعليق على الجولة السابعة الدرامية، حين دخل «جروفر كليفلند ألكسندر» ليرمي ثلاث ضربات إلى «توني لازيري» ليخرج من الملعب والقواعد معبأة^(١). في الدقائق القليلة الأولى اعتقدتُ أنه

(١) جروفر كليفلند ألكسندر (١٨٨٧-١٩٥٠)، توني لازيري» (١٩٠٣-١٩٤٦): لاعبا بيسبول أمريكيان. القواعد معبأة: تكون القواعد معبأة في البيسبول حين يوجد عداا في كل قاعدة.

يفبرك الأمر، كان آخر ما سمعته أن ألكسندر لاعب بارز في فريق «فيلي»، وكان لازيري اسماً لا يعني لي شيئاً. بدا الأمر مثل كومة من المكرونة بصلصة ثوم، لكن الأستاذ أخبرني أنه لاعب جديد وأن جروفر انتقل إلى نادى كاردينال في منتصف الموسم. وقد لعب تسع جولات في اليوم السابق مباشرة، مانعاً فريق «يانك» من إحراز البطولة وكل منهما لا يزال له ثلاث مباريات، وكان هناك روجرز هورنسبي^(١) يناديه من منطقة الإحماء لينهي السباق تماماً على الخط. والرجل الكبير يتباطأ، سكرأنا كظربان من مرح الليلة السابقة، منتقلاً إلى اللاعب الشاب لنادي نيويورك، إذا لم تبتعد بوصتين، ربما كانت قصة أخرى، في منطقة الرمية قبل الضربة الثالثة، دفع لازيري ضربة إلى مقاعد الناحية اليمنى من الملعب، ضربة كبرى مؤكدة من ضربة جزاء في الثانية الأخيرة. كانت كافية لتصيبك بسكتة دماغية. ثابر ألكسندر في الجولتين الثامنة والتاسعة ليؤكد الفوز، ويحسم الأمر، وانتهت المباراة والبطولة حين طرد بيب روث^(٢) السلطان الوحيد للضرب العنيف، وهو يحاول أن يسرق القاعدة الثانية، لم يكن هناك قط شيء من هذا القبيل. كانت المباراة الأكثر جنونا واشتعالاً في التاريخ، وكان فريقى ريديبيردز الأبطال، أفضل فريق في العالم.

كان ذلك خطأ فاصلاً بالنسبة لي، حدثاً فارقاً في صغري، وباستثناء ذلك كان الخريف امتداداً كثيباً، فصلاً إضافياً من الضجر والهدوء. بمرور بعض الوقت، صرت قلقاً جداً حتى إنني سألتُ

(١) روجرز هورنسبي (١٨٩٦-١٩٦٣): لاعب بيسبول أمريكي.

(٢) بيب روث (١٨٩٥-١٩٤٨): لاعب بيسبول أمريكي، يلقب بسلطان الضرب العنيف.

أيسوب إن لم يكن لديه مانع: من يعلمني القراءة؟ كان متحمسا، لكن كان عليه أن يناقش الأمر مع الأستاذ يهودي أولاً، وحين وافق الأستاذ، اعترف بأنني تأذيت قليلاً، كان يقول دائماً: إنه يريد أن يبقيني غيباً- كم كان الغباء مزية فيّ بتدريبي- والآن مضى بسرور وغير رأيه دون أي تفسير، لبعض الوقت اعتقدتُ أن ذلك يعني أنه تخلصني، ودب اليأس في قلبي، أسى مروّع نسف كل أحلامي الساطعة وحولها إلى تراب، سألت نفسي أي خطأ ارتكبتُ ولماذا تخلصني، وأنا في أشد الاحتياج إليه؟

وهكذا تعلمتُ الحروف والأرقام بمساعدة أيسوب، وبمجرد أن بدأت، تعلمتها بسرعة جعلتني أندesh من كل الضجة التي تثار حولها، لو لم أطر، يمكن على الأقل أن أقنع الأستاذ بأنني لست غيباً، لكنني لم أبذل إلا مجهوداً ضئيلاً جداً وبسرعة بدأ الأمر مثل انتصار أجوف. توثبت الأرواح حول المنزل لبعض الوقت في نوفمبر حين انتهى مخزوننا من الطعام فجأة، دون أن يخبر الأستاذ أحداً أين وجد النقود ليفعل هذا الشيء، رتب الأمر سرّاً لجلب بضائع معلبة، بدأ حدوث الأمر وكأنه معجزة، صاعقة مطلقة من السماء. وصلت شاحنة إلى بابنا ذات صباح وبدأ رجلان قويان إنزال الكراتين من على ظهرها، كانت هناك مئات الصناديق، وكل صندوق به دستان من علب الطعام: خضروات من كل نوع، لحوم وحساء، حلوى، مشمش وخوخ محفوظ، كميات لا يمكن تخيلها، استغرق الأمر من الرجلين أكثر من ساعة لنقل الشحنة إلى المنزل، وطوال الوقت اكتفى الأستاذ بالوقوف هناك وذراعه مطويتان على صدره، مبتسماً ابتسامة عريضة مثل بومة عجوز ماكرة. حدثت ببلاهة أنا وأيسوب، وبعد برهة دعانا إليه ووضع يداً على كتفي كل منا، وقال: «لا يمكن أن يكون بجودة طبخ الأم سيوكس، لكنها

أفضل قليلا من الهريسة، إيه يا ولدي؟ في الأوقات العصيبة نتذكر فقط من نعتمد عليه، مهما يكن سواد المشاكل التي نواجهها، أجد دائما طريقة للخروج».

انتهت الأزمة بصرف النظر عن الطريقة التي تغلب بها عليها، امتلأ مخزننا مرة أخرى، ولم نعد نتوقف عن تناول الوجبات ونحن نشتهي المزيد، ولم نعد نئن من صوصوة بطوننا، قد تعتقد أن هذا التحول نال امتناننا الأبدي، لكن الحقيقة أننا تعلمنا أن نعتبره أمرا مسلما به، في عشرة أيام، بدا عاديا تماما أن نأكل جيدا، وبنهاية الشهر كان من الصعب أن نتذكر الأيام التي لم نأكل فيها جيدا، وهذا ما يحدث عادة مع ما نريد، مادمت تفقد الشيء تتوق إليه دون توقف، وتقول لنفسك: لو أنني أستطيع فقط أن أحصل على هذا الشيء فسوف تحل كل مشاكلي، لكن بمجرد أن تحصل عليه، بمجرد أن يندفع الشيء المرغوب إلى يديك، يفقد فتنته. تؤكد الحاجات الأخرى نفسها، تظهر رغبات أخرى، وخطوة خطوة تكتشف أنك تعود من حيث بدأت. وهذا ما كان مع قراءة دروسي؛ وهذا ما كان مع الوفرة الجديدة التي رصت في خزانات المطبخ، اعتقدت أن تلك الأشياء ستجعل الأمر مختلفا، لكنها في النهاية لم تكن إلا ظلالة، رغبات بديلة للشيء الوحيد الذي أريده أكثر - وهو بدقة ما لا أستطيع الحصول عليه، أريد أن يحبني الأستاذ مرة أخرى. هذا ما آلت إليه قصة تلك الشهور، كنت جاعا لمشاعر الأستاذ، ولم تكن هناك كمية من الطعام يمكن أن تشبعني، بعد عامين، عرفت أن كل ما كنته ينبعث مباشرة منه، جعلني في خياله، ولم يعد موجودا بالنسبة لي، لأسباب لم أستطع فهمها شعرت بأنني فقدته إلى الأبد.

لم أفكر قط في مسز ويذرสบون، حتى حين سقط من الأم سيوكس تلميح ذات ليلة بشأن «السيدة الأرملة» صاحبة الأستاذ في ويتشيتا لم أفهم شيئاً، كنت متخلفاً بذلك الشأن، في الحادية عشرة أدعي معرفة كل شيء ولا أفهم شيئاً عما يجري بين المرأة والرجل. افترضت أنها تشنجات جسدية متقطعة لشهوة عنيدة، وحين حكى لي أيسوب عن غرس قضيبه في مهبل دافى وجميل (كان قد بلغ السابعة عشرة للتو)، فكرتُ على الفور في العاهرات اللاني عرفتهن في سانت لويس، والنساء البدينات البارعات اللاني يتبخترن في الأزقة في الثانية صباحاً، يبتذلن أجسادهن مقابل عملة باردة وجامدة، لم أكن أعرف القذارة في حب الكبار أو الزواج أو أي شيء مما يعرف بالمشاعر النبيلة. الزوجان الوحيدان اللذان رأيتهما كانا الخال سليم وزوجته بيج، وكان الأمر بينهما يشبه اتحاداً وحشياً، مثل نوبة من البصق واللعن والصخب، ربما يولد إحساساً كنت أجهله تماماً. حين كان الأستاذ يبتعد، كنت أتصور أنه يلعب بوكر في مكان ما أو يتجرع زجاجة من الخمر الرديئة في حانة سيبولا. لم يخطر ببالي أنه في ويتشيتا يغازل سيدة من الطبقة العليا مثل ماريون ويذرสบون- وتدرجياً يتحطم قلبه في هذه العملية، رأيتها أنا نفسي، لكنني كنت مريضاً ومحموماً في ذلك الوقت بدرجة تجعلني أتذكرها بالكاد، كانت هلوسة، شيئاً مختلفاً وُلد في آلام الموت، ورغم ذلك كان وجهها يومض في أعماقي من وقت لآخر، لم أصدق أنها حقيقة، ظننتُ أنها أمي إذا كانت حقيقة- لكنني كنت مصاباً بالهلع، مروّعاً لأنني لا أستطيع التعرف على شبح أمي.

تطلب الأمر كارتئين تقريبا ليستقيم حالي، في أوائل ديسمبر، جرح أيسوب إصبعه وهو يفتح علبة خوخ. بدا وكأنه لا شيء في

البداية، خدش بسيط يندمل على الفور، لكن بدلاً من أن يكون قشرة كالمعتاد، تورم وصار انتفاخاً مرعباً من الصديد لا يندمل، وفي اليوم الثالث كان أيسوب المسكين يتلوى في السرير وحرارته مرتفعة. ولحسن الحظ أن الأستاذ يهودي عاد إلى البيت، لأنه، بالإضافة إلى مواهبه الأخرى، لديه معرفة كافية بالطب، وحين صعد إلى غرفة أيسوب في صباح اليوم التالي ليرى كيف تسير حالة المريض، خرج بعد دقيقتين وهو يهز رأسه ويزرف دموعاً غزيرة. وقال لي: «ليس هناك وقت نضيعه، بدأت الغرغرينة، وإذا لم نتخلص من هذا الإصبع الآن، فمن المحتمل أن تمتد إلى يده وتصل إلى ذراعه. اخرج بسرعة واطلب من الأم سيوكس أن تترك ما تفعله وتغلي قدرين من المياه، وسأنزل إلى المطبخ وأسئ السكاكين، علينا أن نجري العملية خلال ساعة».

فعلتُ ما طلب، وبمجرد أن وصلتُ إلى الأم سيوكس في الساحة، عدتُ إلى المنزل، وصعدتُ إلى الدور الثاني، وقبعتُ بجوار صديقي، بدا أيسوب مروّعاً، تحول بريق سواد بشرته إلى رمادي طباشيري منقط، وكنت أسمع صوت البلغم في صدره ورأسه لا يكف عن الحركة على الوسادة.

قلتُ: «تماسك يا رفيق، لم يعد إلا القليل، سيعالجك الأستاذ، وبسرعة تكون في الدور الأرضي مرة أخرى عند البيانو، تعبث بإحدى مقطوعاتك الحمقاء».

قال: «والت؟ هل أنت يا والت؟» فتح عينيه المحتقنتين ونظر باتجاه صوتي، وكانت حدقتاه ساكنتين بدرجة جعلتني غير متأكد من أنه يستطيع رؤيتي.

أجبتُ: «بالطبع أنا، أي شخص آخر تظن أنه قد يجلس هنا في مثل هذا الوقت؟».

«سأقطع إصبعي يا والت، سأكون مشوها طول العمر، ولن ترغب في أية فتاة أبداً».

«أنت مشوه بالفعل طول الحياة، ولن يمنعك ذلك من الاشتياق للمهبل، أليس كذلك؟ لن يقطع قضيبك يا أيسوب. مجرد إصبع، إصبع في يدك اليسرى، ومادام لم يقطع حمامتك، يمكنك أن تعربد حتى قيام الساعة».

أَنْ: «لا أريد أن أفقد إصبعي، إذا فقدتُ إصبعي فإن ذلك يعني أنه لا يوجد عدل، يعني أن الرب أدار ظهره لي».

«أنا نفسي ليس لدي إلا تسع أصابع ونصف، ولا يسبب ذلك مشكلة كبيرة لي إطلاقاً، بمجرد أن تفقد إصبعك نكون مثل توأمين بالضبط، نكون عضوين مخلصين في نادي الأصابع التسع، أخوين حتى آخر يوم في حياتنا- بالضبط كما يقول الأستاذ باستمرار».

فعلتُ ما أستطيع لأطمئننه، لكن بمجرد بدء العملية، أُرختُ جانباً ونُسيتُ، وقفتُ في المدخل ويدي على وجهي، ناظراً عبر الشقوق من حين لآخر والأستاذ والأم سيوكس يعملان، لم يكن هناك إثير أو مخدر، وصرخ أيسوب وصرخ، مصدراً صخباً مفرعاً ورهيباً لم يهدأ من البداية إلى النهاية، وبقدر أسفي عليه دمرتني هذه الصرخات تقريبا، كانت غير إنسانية، وكان الهلع الذي عبرت عنه عميقاً جداً وممتداً، وكان كل ما أستطيع ألا أبدأ الصراخ أنا أيضاً، واصل الأستاذ يهودي مهمته بهدوء طيب مدرب، لكن الصرخات أثرت على الأم سيوكس بالسوء الذي أثرت به عليّ. وكان هذا آخر ما أتوقعه منها. اعتقدتُ دائماً أن الهنود يخبنون مشاعرهم،

وأنهم أكثر شجاعة ورزانة من البيض، لكن الحقيقة أن الأم سيوكس كانت مرتبكة والدم يتدفق وألم أيسوب يتزايد، لهتت ونشجت وكان سكيناً شقت لحمها، طلب منها الأستاذ يهودي أن تسيطر على نفسها. اعتذرت، لكنها بدأت النسيج مرة أخرى بعد خمس عشرة ثانية، كانت ممرضة مثيرة للشفقة، وبعد برهة أربكت توقفاتها الباكية الأستاذ فأخرجها من الغرفة، وقال: «نحتاج إلى وعاء آخر من الماء المغلي، أسرع يا امرأة، جرياً» «كان مجرد مبرر للتخلص منها، وهي تندفع بجواري إلى الردهة، دفنت وجهها في يديها وبكت وهي تسير بتهور إلى قمة السلم، رأيت كل ما حدث بعد ذلك بوضوح: الطريقة التي تعثرت بها قدمها في الدرجة الأولى، الطريقة التي التوت بها ركبتيها وهي تحاول تصحيح توازنها، ثم السقطة الطائشة على السلم- مسار السقوط المدوي لجسدها الضخم وهي تصطدم بالقاع، سقطت على الأرض بضربة هزت المنزل كله. بعد لحظة انطلقت منها صرخة، ثم قبضت على ساقها اليسرى وبدأت تتلوى على الأرضية، قالت لنفسها: «أنت كلبة عجوز غبية. أنت كلبة عجوز غبية فاسقة، انظري الآن ماذا فعلت، سقطت من فوق السلم وكسرت ساقك اللعينة».

خلال الأسبوعين التاليين، كان المنزل كئيباً مثل مستشفى، كان هناك اثنان معتلان يجب تقديم الرعاية لهما، وقضيت أنا والأستاذ أيامنا نندفع على السلم صعوداً وهبوطاً، نقدم لهما الطعام، ونفرغ قصريرتيهما، ونفعل كل شيء لتجفيف فخذيهما طريحي الفراش. كان أيسوب في ذعر من الشفقة على نفسه والغم، والأم سيوكس تمطر نفسها باللعنات من الصباح إلى الليل، ومع الحيوانات التي يجب رعايتها في الزريبة والغرف التي يجب تنظيفها والأسرة التي

يجب ترتيبها والأطباق التي يجب غسلها والموقد لإعداد الطعام، لم تكن هناك دقيقة أمام الأستاذ أو أمامي لننجز عملنا، كان الكريسماس يقترب، الوقت الذي يفترض أن أخلق فيه بعيداً عن الأرض، وما زلت خاضعا لقوانين الجاذبية كما كنتُ دائماً، كانت أسوأ لحظة مررت بها طوال سنة، تحولت إلى مواطن عادي يقوم بمهامه ويعرف القراءة والكتابة، وإذا استمر الأمر أكثر، ربما انتهى الأمر إلى أخذ دروس في الخطابة والانضمام إلى منظمة بوي سكوت^(١).

ذات صباح، استيقظت مبكراً بعض الشيء عن المعتاد، أُلقيتُ نظرة على أيسوب والأم سيوكس، ورأيتُ أنهما لا يزالان نائمين، ونزلت السلم على أطراف أصابعي، لأثير دهشة الأستاذ باستيقاظي قبل الفجر، وكان من المعتاد أن يكون في المطبخ في تلك الساعة، يعد الإفطار ويستعد ليبدأ اليوم، لكن لم تكن هناك رائحة للقهوة تنطلق من الموقد، أو صوت للحم خنزير يقطع في المقلاة، ومن المؤكد تماماً أن المكان كان خاوياً حين دخلته، قلتُ لنفسِي إنه في الزريبة يجمع البيض أو يحلب إحدى البقرات، لكنني أدركتُ أن الموقد لم يوقد، كان البدء بإشعال النار أولى المهام في صباح الشتاء، وكان الجو في الدور الأرضي قارساً، بارداً بما يكفي لأطلق دفعة من البخار كلما زفرتُ، واصلت الحديث إلى نفسي: حسناً، ربما شعر الرجل العجوز بالملل والتعب وواصل نومه الجميل. وكان ذلك يضفي لمسة جديدة على الأمور بالتأكيد، أليس كذلك؟ كان عليّ أن أوقظه بدل أن يوقظني، وهكذا صعدت السلم مرة أخرى وطرقْتُ باب غرفة نومه، وحين لم يأتِ ردُّ بعد عدة محاولات، فتحتُ الباب وعبرت العتبة بحذر شديد، لم يكن الأستاذ يهودي في أي مكان، لم

(١) بوي سكوت: منظمة عالمية للشباب تأسست في إنجلترا سنة ١٩٠٨.

يكن في السرير، بل إن السرير كان مرتباً أيضاً، وليس هناك ما يدل على أن أحداً نام فيه في تلك الليلة، قُلْتُ لنفسي: هرب دون سابق إنذار، استعد وفرّ، ولن نراه مرة أخرى أبداً.

خلال الساعة التالية، انشغل عقلي تماماً بأفكار يائسة، انتقلت فجأة من الحزن إلى الغضب، من الغيظ إلى الضحك، من الأسى الشديد إلى سخرية مُرّة من الذات، تبخر العالم، وتُرِكْتُ قابعا بين الرماد، وحيداً إلى الأبد بين خرائب محترقة من الخداع.

كان أيسوب والأم سيوكس نائمين في سريريهما، غافلين عن انفعالاتي ودموعي، بشكل أو آخر (لا أتذكر كيف وصلتُ إلى هناك) كُنْتُ في المطبخ مرة أخرى، راقداً على بطني ووجهي مضغوط على الأرضية، أفرك أنفي في الألواح الخشبية القذرة، لم تتبق دموع لتنهمر مني- ليس إلا جيشاناً جافاً وخانقاً، من أثر الفواق والأنفاس الخانقة الحارقة. سَكُنْتُ بسرعة، هدنْتُ تقريباً، وتدرجياً انتشر في داخلي إحساس بالهدوء، وانطلق بين عضلاتي وتسرب باتجاه أصابع يدي ورجلي، لم يعد في رأسي أفكار، ولم يعد في قلبي مشاعر، كُنْتُ بلا وزن داخل جسمي، طافياً في موجة صافية من العدم، انفصلتُ تماماً عن العالم من حولي ولم أعد أبالي به، وكانت المرة الأولى التي فعلتُ فيها ذلك- دون سابق إنذار، دون أدنى فكرة عن أنها على وشك الحدوث، ببطء شديد، شعرتُ بجسمي يرتفع من فوق الأرض، كانت الحركة طبيعية تماماً، رائعة جداً في رقتها، ولم أدرك إلا بعد أن فتحت عيني أن ساقي لا تلامسان إلا الهواء، لم أكن بعيداً جداً عن الأرض - على مسافة لا تزيد عن بوصة أو اثنتين- لكنني كنت معلقاً هناك دون أي جهد، معلقاً مثل القمر في سماء الليل، ساكناً وطائراً، لا أشعر إلا بالهواء يدخل رنتي ويخرج

منهما، لا أستطيع أن أحدد كم من الوقت بقيت مرفرفاً بهذا الشكل، لكن في لحظة معينة، بالبطء والرقّة نفسيهما عدت إلى الأرض. خرج مني كل شيء، وكانت عيناى مغلقتين بالفعل، ودون أي فهم لما حدث لي غلبني النوم، نوم بلا أحلام، غطستُ مثل حجر في قاع العالم.

استيقظت على أصوات، زحف أذية على أرضية خشبية عارية. حين فتحتُ عيني كنت أنظر مباشرة إلى سواد الرجل اليسرى لبنطلون الأستاذ يهودي، وقال وهو يدفعني بقدمه: «تحياتي يا بني، إغفاءة على الأرضية الباردة في المطبخ، ليس مكانا مناسباً لغفوة إذا أردت أن تبقى سليماً».

حاولتُ الوقوف، لكن جسمي بدا فاتراً ومنتفخاً، بذلت كل قوتي لأنهض على كوعي، كان رأسي كتلة مرتجفة من خيوط العنكبوت، ومهما فركت عيني وفتحتهما وأغمضتهما لم أستطع أن أركز على أي شيء بشكل سليم.

واصل الأستاذ: «ما المشكلة يا والت، أنت لا تمشي وأنت نائم، أليس كذلك؟».

«لا يا سيدي، لا شيء من هذا القبيل».

«إذا لماذا أنت كئيب؟ تبدو وكأنك عائد من جنازة».

جرفني إحساس هائل بالأسى حين قال ذلك، وشعرت فجأة أنني على وشك البكاء، قلتُ وأنا أمسك ساقه بذراعي وأضغط خدي على قسبة ساقه: «أوه يا أستاذ، أوه يا أستاذ، اعتقدتُ أنك تركتني ولن تعود أبداً».

حين خرجت هذه الكلمات من شفتي، فهمتُ أنني أخطأت. لم يكن الأستاذ هو الذي سبب لي هذا الشعور بالهشاشة واليأس، بل ما فعلته قبل أن يغلبني النوم مباشرة، استعدتُ هذا كله في دفعة قوية مثيرة للغثيان: اللحظات التي قضيتها بعيداً عن الأرض، اليقين الذي فعلتُ به ما لا أستطيع أن أفعله بكل تأكيد، بدلاً من أن يملأني بالنشوة والسعادة، جعل هذا التقدم المفاجئ الفرع يستبد بي، لم أعد أعرف نفسي، كنتُ مسكوناً بشيء ليس أنا، وكان شيئاً مفرعاً جداً وغريباً جداً في جدته، لم أستطع الحديث عنه، استسلمتُ للبكاء بدلاً من ذلك، تركتُ الدموع تنهمر، وبمجرد أن بدأتُ لم أكن متأكداً من أنني أستطيع التوقف.

قال الأستاذ: «ولدي العزيز، ولدي العزيز، ولدي الجميل». نزل إلى الأرض وأخذني في ذراعيه، وربت على ظهري وضممني إليه وأنا أواصل البكاء. ثم بعد وقفة، سمعته يتحدث مرة أخرى - لكنه لم يعد يوجه كلماته إليّ، للمرة الأولى منذ استعدتُ الوعي، أدرك أن شخصاً آخر في المكان.

قال الأستاذ: «إنه أشجع فتى على الإطلاق، يعمل بجدية، يفني نفسه، جسد يمكن أن يحمل الكثير جداً، وأخشى أن يكون الرفيق الصغير مُجهّداً تماماً».

نظرتُ أخيراً، رفعتُ رأسي من حجر الأستاذ يهودي، ودرتُ بعيني لحظة، وكانت هناك مسز ويذرسيون، تقف في ضوء المدخل، أتذكر أنها كانت ترتدي معطفاً قرمزيًا وقبعة من الفراء الأسود، ووجنتاها لا تزالان متوربتين من برودة الشتاء، ابتسمتُ حين التقت عيوننا.

قالت: «أهلا والت».

قلت وأنا أرتشف آخر دموعي: «أهلا بك مدام».

قال الأستاذ: «قابل أمك الروحية الجميلة، جاءت مسز ويذرنبون لتتقذا، وستمكث في المنزل لبعض الوقت، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها».

قلتُ مدركا السبب الذي جعل وجهها يبدو أليفا بالنسبة لي: «أنت سيدة ويتشيتا، أليس كذلك؟».

قالت: «صحيح، وأنت الفتى الصغير الذي تاه في العاصفة».

قلت، مُخلصًا نفسي من يدي الأستاذ وواقفا في النهاية: «كان ذلك منذ وقت طويل، لا أتذكر الكثير عنه».

قالت: «ربما لا تتذكر، لكنني أتذكر».

قال الأستاذ: «مسز ويذرنبون ليست فقط صديقة للأسرة، إنها نصيرتنا الأولى وشريكة في العمل، عليك فقط أن تعرف النتيجة يا والت، أود أن تضع ذلك في ذهنك وهي هنا معنا، الطعام الذي يغذيك، والملابس التي تسترك، والنار التي تدفئك. كل ذلك جاء تطفًا من مسز ويذرنبون، وسيكون يومًا حزينًا إذا نسيَ ذلك».

قلت، وقد شعرت للتو ببعض النشاط في روعي مرة أخرى: «لا تقلق، لست غيبا، حين تدخل سيدة أنيقة منزلي، أعرف كيف يتصرف جنتلمان».

وبثقة تامة، حولتُ عيني باتجاه مسز ويذرنبون، وبكل ما أستطيع من اتزان وبراعة، غمرت لها أكثر غمزة يمكن أن تشاهدها

امرأة جاذبية وتجاوزا للمعقول، لثقتها بنفسها، لم تخجل مسز ويذرسيون ولم ترتبك. رادةً المعروف، أطلقت ضحكة قصيرة، ثم بهدوء وسكينة مثل قواعد عجز ردت لي غمزة لعبوا، كنت لا أزال مدلاً، وحين حدث ذلك، عرفتُ أننا سنكون صديقين.

لم تكن لدي فكرة عن طبيعة ما رتبته الأستاذ معها، وفي ذلك الوقت لم أفكر في الأمر كثيراً. ما كان يهمني أن مسز ويذرسيون هناك وأن وجودها يعطيني من مهام من قبيل التمريض وأعمال وضيفة، تولت الأمور في ذلك الصباح الأول، وفي الأسابيع الثلاثة التالية دارت أمور المنزل بسلاسة تامة، وللأمانة لم أكن أعتقد أنها تستطيع القيام بذلك، على الأقل حين رأيتها في ذلك المعطف الرائع وذلك القفاز الغالي، بدت امرأة اعتادت على وجود خدم في خدمتها، ورغم أنها كانت جميلة جداً، كانت بشرتها شاحبة جداً في رأبي، وعلى عظامها قدر ضئيل جداً من اللحم. استغرق الأمر بعض الوقت لأعتاد عليها، حيث إنها لم تكن تتوافق مع أية فئة أنثوية عرفتها. كانت تراعى العرف ولم تكن مؤذية، لم تكن ربة منزل خنوفاً، ولم تكن متزمتة أو مشاكسة. لكنها بطريقة ما كانت خليطاً من هذا كله، مما يعني أنك لا تستطيع إطلاقاً أن تتنبأ بتصرفاتها أو تتوقع الخطوة التالية لها، الشيء الوحيد الذي شعرت أنني متأكد منه أن الأستاذ يحبها. كان يهدأ تماماً ويتحدث برقة حين تدخل الغرفة، وأكثر من مرة رأيتة يحدق فيها بنظرة طويلة من عينيه حين تلتفت إلى الناحية الأخرى برأسها، وحيث إنهما كانا ينامان معاً في السرير نفسه كل ليلة، وحيث أنني سمعتُ الفراش يقطق ويهتز بانتظام معين، اعتبرتُ من المسلم به أنها تحمل المشاعر نفسها له،

ما لم أكن أعرفه أنها رفضت الزواج منه ثلاث مرات- لكن حتى لو كنت أعرف، أشك في أن ذلك كان يمكن أن يغير من الأمر شيئاً. كانت في ذهني أمور أخرى، أكثر أهمية بالنسبة لي من تقلبات الحياة العاطفية للأستاذ.

بقيت مع نفسي بقدر المستطاع في تلك الأسابيع، مختبئاً في غرفتي، وأنا أستكشف أسرار موهبتي الجديدة وأهوالها، فعلت كل ما أستطيع لترويضها، لتأقلم معها، لأدرس أبعادها الحقيقية وأقبلها جزءاً أساسياً من نفسي، كان ذلك هو الكفاح: ليس فقط أن أتمكن من المهارة، لكن أن أمتص نتائجها الرهيبة والمدمرة، أن أعرف خباياها، فرضت على مصيراً خاصاً، وقد تبعدني عن الآخرين بقية حياتي، تخيل أنك تستيقظ ذات صباح لتكتشف أن لك وجهاً جديداً، ثم تخيل الساعات التي تقضيها أمام المرأة قبل أن تعتاد عليه، قبل أن تبدأ الشعور بالراحة مع نفسك من جديد، يوماً بعد يوم، كنت أغلق على نفسي في غرفتي، أتمدّد على الأرض، وأتمنى أن يكون جسمي في الهواء. تدرّبت كثيراً بحيث لا يمر وقت طويل قبل أن أتمكن من أن أرتفع في الهواء بإرادتي، أرتفع عن الأرض في ثوان. بعد أسبوعين، عرفت أنه ليس من الضروري أن أستلقي على الأرض، إذا وضعت نفسي في نشوة حقيقية، أكون قادراً على أن أفعل ذلك واقفاً، وأن أحلق ست بوصات في الهواء من وضع رأسي. بعد ثلاثة أيام، عرفت أنني أستطيع أن أبدأ الصعود وعيناوي مفتوحتان، أستطيع بالفعل أن أنظر إلى أسفل وأرى ساقي ترتفعان عن الأرضية، ولا ينكسر السحر.

وأثناء ذلك، كانت حياة الآخرين تدوم حولي، حل أيسوب أربطته، وبدأت الأم سيوكس بمساعدة عصا تعرج مرة أخرى،

والأستاذ ومسز ويذرسبون يهزان سوست السرير كل ليلة، ويملآن المنزل بتأوهاتهما. مع هذا القدر الكبير من الصخب الذي يتجاوز قدرتي على التعامل معه، لم يكن من السهل دائماً العثور على مبرر لغلق غرفتي على نفسي، شعرت مرتين بشكل مؤكد أن الأستاذ ينظر إليّ مباشرة، ويفهم ازدواجيتي ويتساهل فقط لأنه لا يريد أن يفكر في، في أية لحظة أخرى، كان يمكن أن تأكلني الغيرة إذا تجنّبتني بهذا الشكل، إذا عرفت أنه يفضل صحبة امرأة على وجودي الأصيل الحميم، لكنني كنت طائراً، وبدأ الأستاذ يهودي يفقد في نظري خصائصه شبه الإلهية، ولم أعد أشعر بأنني تحت سيطرته. رأيته رجلاً، رجلاً ليس أفضل من الرجال الآخرين أو أسوأ منهم، وإذا أراد أن يقضي وقته في اللهو مع فتاة نحيفة من ويتشيتا، فالأمر يخصه، له مشاغله ولي مشاغلي، وهكذا سارت الأمور منذ تلك اللحظة، لم أكن مدينًا بالفضل إلا لنفسي، وكما تبين، انتقلت فقط إلى المرحلة التالية من تطوري. وكان الأستاذ، مراوغة وبارعاً كما كان دائماً، يسبقني بكثير، وأمامي طريق طويل عليّ أن أقطعه قبل أن أصبح اللاعب البارع الذي ظننتُ أنني أصبحت.

غرق أيسوب في حالته بالأصابع التسع، ظلاً فاتراً لما كان عليه سابقاً، ورغم أنني قضيت معه وقتاً بقدر ما أستطيع، كنت مشغولاً جداً بتجاربتي بشكل لا يسمح لي بأن أهتم به الاهتمام الذي يحتاج إليه. أخذ يسألني عن سبب قضائي ساعات طويلة جداً وحيداً في غرفتي، وذات صباح (لابد أنه كان صباح الخامس عشر أو السادس عشر من ديسمبر) كذبت عليه كذبة صغيرة لأهدئ من شكوكه بشأنني، لم أكن أريد أن يظن أنني لم أعد أهتم به، وفي ظل هذه الظروف بدا من الأفضل أن أكذب بدلاً من الصمت.

قُلْتُ: «إنها طبيعة الدهشة، إذا وعدتْ بألا تنبس بكلمة عنها، فسوف أقدم لك فكرة عنها».

نظر إلى أيسوب بشك: «أنت على وشك القيام بحيلة أخرى من حيلك، أليس كذلك؟».

«أقسم لك ليست هناك حيل، ما أقوله صدق، الحقيقة كاملة من صاحب الشأن».

«ليس عليك أن تلف وتدور، إذا كان لديك ما تقول قل».

«سأفعل، لكن عذني أولاً».

«لا أفضل ذلك، لا أحب أن أعطى كلمة دون سبب كما تعرف».

«أوه، حسناً، يمكنك أن تثق بي في ذلك».

قال وقد بدأ يفقد صبره: «حسناً، ما الأمر يا أخي الصغير؟»

«ارفع يدك اليمنى وأقسم بأنك لن تبوح بذلك أبداً، أقسم بقبر أمك.

أقسم ببياض حدقتيك، أقسم بفرج كل عاهرة في أحياء الزنوج».

تنهد أيسوب، أمسك خصيتيه بيده اليسرى - وكانت الطريقة التي

نقسم بها القسم المقدس - ورفع يده اليمنى في الهواء، وقال «أعدك»،

ثم كرر ما طلبت منه أن يكرره.

قلت، مرتجلاً وأنا أواصل: «حسناً، يبدو الأمر على هذا النحو.

يحل الكريسماس الأسبوع القادم، ومع وجود مسز ويذرسيون في

المنزل، سمعتُ كلاماً عن الاحتفال في الخامس والعشرين، ديك

رومي وحلوى وهدايا، وربما شجرة تنوب عليها حلوى وفشار. إذا

جاءت هذه الحفلة كما أظن، لا أريد أن أفاجأ. تعرف كيف يمكن أن

يكون ذلك، ليس لطيفا أن تتلقى هدية لا تستطيع ردها، لهذا السبب أبقى في غرفتي طوال هذه الأيام، أعد هدية، مخترعا أكبر دهشة وأفضل دهشة يستطيع عقلي الصغير البانس أن يفكر فيها، سأكشف لك عنها خلال بضعة أيام يا أخي الكبير، وأتمنى ألا تُصاب بخيبة أمل».

كان كل ما قلْتُ عن حفلة الكريسماس صحيحا، سمعْتُ عبر الجدران الأستاذ وسيدته يتحدثان عنها، لكن حتى ذلك الوقت لم يحدث أن قدمت لأحد هدية، وقد غرستُ الفكرة في رأسي، رأيْتُها فرصة ذهبية، الفرصة التي انتظرْتُها طويلا، إذا كان هناك عشاء في الكريسماس (وفي الليلة نفسها أعلن الأستاذ أنه سيكون هناك عشاء)، يمكن أن أستغل المناسبة لعرض موهبتي الجديدة، يمكن أن تكون هديتي لهما، يمكن أن أقف وأرتفع في الهواء أمام عيونهم، وفي النهاية يعرف العالم سري.

قضيت بعد ذلك أسبوعاً ونصفا في قلق رهيب، كان القيام بأعمالي المثيرة في السر أمرا، لكن كيف يمكن أن أتأكد من أنني لن أسقط على وجهي حين أخرج أمامهم؟ إذا لم أنجح فسوف أتحوّل إلى أضحوكة، هدف لكل النكت على مدار الأعوام السبعة والعشرين التالية، وهكذا بدأ اليوم الأطول والأكثر تعذيبا في حياتي، من أية زاوية يمكن أن تنتظر إليه، كانت ضربة موسم عيد الميلاد انتصارا، مادبة حقيقية من الضحك والمرح، لكنني لم أستمتع إطلاقاً، كنت بالكاد أمضغ لحم الديك الرومي خوفاً من أن يقف في حلقي، وكان طعم اللفت المهروس يشبه طعم خليط من عجين من النشا والطين،

وحين انتقلنا إلى الردهة لنغني بعض الأغاني ونتبادل الهدايا، كنت على وشك أن أفقد الوعي. بدأت مسز ويذرسيون بإعطائي سويتز أزرق عليه من الأمام رنة^(١) حمراء. تبعته الأم سيوكس بجورب على شكل معينٍ صنعته بيدها، ثم أعطاني الأستاذ كرة بيسبول جديدة بيضاء رائعة، وأخيراً أعطاني أيسوب صورة لسير والتر رالي، قطعها من كتاب ووضعها في إطار أنيق من الأبنوس، كانت كلها هدايا تنم عن سخاء، لكن كلما فككتُ واحدة، لم أستطع أن أفعل أكثر من أن أهمهم بشكر مقيت غير مسموع، كانت كل هدية تعني أنني أقرب أكثر من لحظة الحقيقة، وكانت كل هدية تسحب جزءاً من روحي، غطست في مقدي وحين فتحت آخر هدية، كان لدي كل شيء إلا العزم على إلغاء العرض، قلت لنفسي لست مستعداً ولا أزال أحتاج إلى مزيد من التدريب، وبمجرد أن بدأت في هذا الجدل، لم تكن لدي مشكلة في إقناع نفسي بالعدول عنه. ثم وأنا أحاول لصق مؤخرتي في المقعد إلى الأبد، تبرع أيسوب بالإدلاء برأيه وسقط السقف علىّ.

قال بكل براءة معتقدا أنني عند كلمتي: «الآن جاء دور والت، في جعبته شيء، ولا أستطيع أن أنتظر حتى يفاجئنا به».

قال الأستاذ، متحولاً إلى بواحدة من نظراته الثاقبة الكاشفة: «صحيح، لم نسمع مستر رولي الشاب بعد».

فوجئتُ، لم تكن معي هدية أخرى، وإذا توانيت أكثر، فسوف يرونني الجاحد الأناني الذي كُنْتُه حقاً. وهكذا وقفتُ من مقدي،

(١) رنة: نوع من الأيائل.

وعظام ركبتى تصطك معًا، وقلت بصوت واه جدا: «أحاول الآن، سيداتى سادتى، إذا لم تنجح، لا يمكنكم أن تنسبوا ذلك إلى الرغبة فى المحاولة».

كان الأربعة ينظرون إلى بفضول شديد، بنشوة الحيرة والانتباه، حتى إننى أغلقتُ عيني حتى لا أراهم، أخذتُ نفسًا طويلًا وبطيئًا وزفرته، وفردتُ ذراعى باسترخاء، وتراخ وهي طريقة تدربت عليها ساعات طويلة، ودخلتُ فى نشوتي، بدأتُ أرتفع على الفور تقريبًا، أرتفع عن الأرض ارتفاعًا سلسًا وتدرجيا، وحين وصلتُ إلى ارتفاع ست بوصات أو سبع - أقصى ما كنت أصل إليه فى تلك الشهور الأولى- فتحتُ عيني ونظرتُ إلى جمهوري. كان أيسوب والسيدتان مأخوذتين فى دهشة، كانت أفواه الثلاثة على شكل حرف "o" صغير، لكن الأستاذ كان يبتسم، يبتسم والدموع تنهمر على وجنتيه، وحتى وأنا أرفرف أمامه، رأيتُ أنه يمد يده بالفعل إلى الطوق الجلدي خلف ياقته، وحين نزلتُ إلى الأرض مرة أخرى كان قد سحب القلادة من على رأسه وقدمها لي بكف ممتد، لم ينطق أحد بكلمة، بدأتُ السير باتجاهه، عابرا الغرفة وعيناى مثبتتان فى عينيهِ، لا أجروُ على النظر إلى أي مكان آخر، حين وصلتُ إلى المكان الذي يجلس فيه الأستاذ يهودي، أخذتُ عقلة إصبعي منه ونزلت على ركبتى، ودفنت وجهي فى حجره، بقيت كذلك ما يقرب من دقيقة، وحين واتتني الشجاعة على الوقوف مرة أخرى، جريت من الغرفة، مندفعًا إلى المطبخ ثم خرجت إلى هواء الليل البارد - متلهفا للتنفس، متلهفا للحياة تحت كثافة نجوم الشتاء.

ودعنا

مسز ويذر سبون بعد ذلك بثلاثة أيام، ولوحنا لها من باب المطبخ وهي تنطلق في سيارتها "الكريسler" الخضراء الفاتحة، وحل عام ١٩٢٧، وخلال الشهور الستة الأولى من ذلك العام كنت أعمل بتركيز رهيب، مندفعاً بعض الشيء كل أسبوع، أوضح الأستاذ يهودي أن الارتفاع ليس إلا بداية، كان إنجازاً رائعاً بالطبع، لكنه لم يكن شيئاً يذهل العالم، أعداد من امتلكوا القدرة على الارتفاع عن الأرض، وحتى بعد استبعاد الدراويش الهنود ورهبان التبت والأطباء السحرة في الكونغو، هناك أمثلة عديدة مما يسمى بالقوميات المتحضرة، بلاد البيض في أوروبا وأمريكا الشمالية، قال الأستاذ: في المجر وحدها كان هناك في بداية القرن خمسة من النشيطين الذين يحلقون في الجو، ثلاثة منهم في مسقط رأسه، بودابست، كانت مهارة مذهلة، لكن الجمهور ملها بسرعة، وإذا لم تفعل أكثر من مجرد التحليق بضع بوصات فوق الأرض، فلن تكون هناك فرصة لتحويل الأمر إلى مهنة مربحة. إن فن التحليق لطخه المحتالون والدجالون، الصبية الذين يستعينون بالدخان والمرأة لشتيت انتباه الناس بحثاً عن نجاح سريع، وحتى أكسح السحرة وأكثرهم بهرجة في جولة مسرحية يمكن أن يجعل فتاة تطفو في الجو: مفاجأة مذهلة في ملابس قليلة متألقة وسط الهواء وحولها طوق (انظر: ليست هناك حبال أو سلوك) وتتحرك بطول جسمها الممدد. كان إجراء معيارياً، وجزءاً راسخاً من الذخيرة، وأدى إلى إبعاد المحققين الحقيقيين عن المهنة، يعرف الجميع أنه زائف، وشاع الزيف حتى إن الجمهور حين يرى تحليفاً حقيقياً يصر على الاعتقاد بأنه خدعة.

قال الأستاذ: ”هناك طريقتان فقط لجذب الانتباه، وأية منهما تجعلنا نعيش حياة طيبة، لكنك إذا نجحت في الجمع بين الاثنتين في عمل واحد، ولا نعرف إلى أي مدى قد نذهب، لن يستطيع بنك في العالم أن يحتفظ بالأموال التي نحققها“.

قُلْتُ: ”طريقتان، هل هما جزء من الدرجات الثلاث والثلاثين، أم أننا تجاوزنا ذلك الآن؟“

”تجاوزناها. لقد وصلتَ إلى ما وصلتُ إليه، وأنا في مثل عمرك، وبعد هذه النقطة ندخل مقاطعة جديدة، قارات لم يدخلها أحد من قبل، يمكن أن أساعدك بالنصيحة والتعليمات، يمكن أن تنحرف عن المسار، لكن الأشياء الجوهرية كلها عليك أن تكتشفها بنفسك، وصلنا إلى مفترق الطرق، وكل شيء من الآن فصاعدا يرجع لك.“

”حدثني عن الطريقتين. أعطني حقائق الأمر كله، وسوف نرى؛ إن كنت أنقته أم لا“.

”الارتفاع والحركة- هاتان هما الطريقتان؛ بالارتفاع أعني الارتفاع في الجو، ليس نصف قدم فقط، لكن ثلاثة أقدام، ستة أقدام، عشرين قدماً، كلما ارتفعت أكثر، تكون النتائج أكثر روعة، ثلاثة أقدام رائعة، لكنها لن تكون كافية لإثارة دهشة الجماهير، تضعك فقط أعلى قليلاً من مستوى عيون معظم البالغين، ولا يمكن أن تمارس الحيلة كثيراً، عند ستة أقدام تحلق فوق رؤوسهم، وبمجرد أن تدفعهم إلى النظر إلى أعلى، تخلق الانطباع الذي نريده، عند عشرة أقدام، يكون التأثير فائقاً، عند عشرين قدماً، تكون عاليًا هناك بين الملائكة، والت الشيء المدهش الذي عليك أن تدركه، أن شبَّحاً

من النور والجمال يشع متعة في قلب كل رجل وامرأة وطفل يرفع وجهه إليك“.

”تصيبني بقشعريرة يا أستاذ، حين تتحدث بهذا الشكل، ترتجف عظامي كلها“.

”الارتفاع نصف الأمر فقط يا بني، قبل أن تنطلق، توقف وفكر في الحركة، بذلك أعني أن تتحرك في الجو، إلى الأمام وإلى الخلف، حسب الظروف، لا أهمية للسرعة، لكن المدة حيوية، الجوهر الحقيقي للمسألة، تخيل منظر الانزلاق في الجو لعشر ثوانٍ، يلهث الناس، ويشيرون إليك غير مصدقين، لكن قبل أن يدركوا حقيقة ما يشاهدون، تنتهي المعجزة. الآن مد الأداء إلى ثلاثين ثانية أو إلى دقيقة، يكون أفضل، أليس كذلك؟ تتمدد الروح، ويتدفق الدم بشكل أجمل في عروقتك، والآن مد الوقت إلى خمس دقائق، إلى عشر دقائق، وتخيل نفسك تلف على شكل رقم 8 وترقص في دوائر وأنت تتحرك، حرًا لا تتعب ولا تكل، وخمسون ألف زوج من العيون تصبو إليك وأنت تحلق فوق العشب في ”حدائق بولو“ في مدينة نيويورك، تخيل ذلك يا والت لترى ما كنت أراه طول كل تلك الشهور والسنوات“.

”باسم الرب، يا أستاذ يهودي، لا أظن أنني أحتمل ذلك“.

”لكن انتظر يا والت، انتظر ثانية أخرى، افترض فقط، جدلاً، افترض فقط أنك بضربة حظ استطعت القيام بالأمرين في الوقت ذاته“.

”الارتفاع والحركة معًا؟“

”نعم يا والت، الارتفاع والحركة معًا، ماذا بعد؟“

”أطير، أليس كذلك؟ أطير في الجو مثل طائر“.

”ليس مثل طائر، يا صغيري، مثل رب، ستكون أعجوبة العجائب يا والت، قدس الأقداس. مادام بقى الرجال يسировون على الأرض، سيؤولهونك بوصفك الرجل الأعظم بينهم“.

قضيت معظم الشتاء أعمل وحدي في الزريبة، كانت الحيوانات هناك لكنها لم تلتفت إليّ، راقبت مآثري ضد الجاذبية بلامبالاة تامة، من حين إلى آخر، قد يتوقف الأستاذ هناك ليرى كيف تسير الأمور، لكنه لم يكن يتفوه بأكثر من بضع كلمات لتشجيعي، تبين أن يناير كان أصعب الشهور، ولم أحرز أي تقدم، صار التحليق سهلاً مثل التنفس بالنسبة لي، لكنني كنت أتوقف عند الارتفاع نفسه، عند ست بوصات، ولم تخطر فكرة الحركة في الجو على بالي، لم تكن المسألة أنني لا أستطيع أن أتعلق بتلك الأشياء، لا أستطيع حتى أن أتصورها، وأعمل كما كنت أعمل لأطوع جسدي للتعبير عنها، لم أعر على طريقة لأبدأ، ولم يكن الأستاذ يساعدي، كان يقول: ”المحاولة والخطأ، المحاولة والخطأ، هكذا يمكن تلخيص الأمر، وصلت الآن إلى الجزء الصعب، ولا تتوقع أن تصل إلى السماوات في ليلة“.

في أوائل فبراير، ترك أيسوب والأستاذ المزرعة ليتجولا بين الكليات والجامعات في الشرق. كانا يرغبان في حسم المكان الذي يلتحق به أيسوب في سبتمبر، ويخططان للابتعاد شهراً. ولا أحتاج إلى إضافة أنني توسلت للذهاب معهما. سيزوران مُدنا مثل بوسطن ونيويورك، حواضر ضخمة بها اتحاد كبير لأندية البيسبول وبها تروللي، وكانت فكرة البقاء في الريف أصعب من أن أقبلها، لو تقدمت بعض الشيء في الارتفاع والحركة، ربما لم يكن تركهما لي بهذه البشاعة، لكنني لم أحرز أي تقدم، وأخبرتُ الأستاذ أنني أحتاج

إلى تغيير المشهد لتسير الأمور مرة أخرى. ضحك بطريقته اللطيفة وقال: ”زمنك أت، يا بطل، لكن الدور على أيسوب الآن، لم يضع الفتى المسكين عينيه على رصيف أو إشارة مرور لسبع سنوات، ومن واجبي أن أفرجه على جزء صغير من العالم، يمكن للكتب، رغم كل شيء، أن تأخذك بعيداً فقط. حان الوقت ليختبر الأمور على حقيقتها“.

قلتُ، مبتلعا خيبة أمني: ”تحدث عن الحقيقة، تأكد من رعاية الصديق الصغير لأيسوب. إذا كانت هناك خبرة يتوق إليها، فهي الفرصة ليضعها في موضع آخر غير يديه“.

”اطمنن يا والت. يرجع الأمر إلى الأجندة. أعطتني مسز ويذرسيون مزيداً من المال لهذا الغرض بالتحديد“.

”كان ذلك أمراً طيباً منها، ربما ستفعل الشيء ذاته بالنسبة لي ذات يوم“.

”أنا متأكد من أنها ستفعل، لكنني أشك في أن تحتاج إلى مساعدتها“.

”سنرى. طبقاً لما تسير عليه الأمور الآن، لست مهتماً إطلاقاً“.

”وهناك سبب آخر للبقاء في كانساس والقيام بعملك. إذا واصلت العمل، ربما تكون هناك مفاجأة أو اثنتان لي حين أعود“.

وهكذا قضيتُ شهر فبراير وحيداً مع الأم سيوكس، أشاهد تساقط الجليد وأستمع إلى عصف الرياح عبر البراري، في أول أسبوعين، كان الطقس شديد البرودة فلم أستطع الخروج إلى الزريبة، قضيت معظم وقتي أتسكع في المنزل، مكتئباً بدرجة جعلتني لا أفكر في ممارسة أعمالي، وحتى مع وجود اثنتين فقط واصلت الأم سيوكس

مهامها، ومع الجهد الإضافي نتيجة ساقها المصابة، كانت تشعر بالتعب سريعاً، وكنت أضايقها وأربكها، محاولاً الوصول إليها للتحدث معها، وهي تقوم بعملها، لسنتين لم أفكر إلا في نفسي، متقبلاً الناس بدرجة ما كما يبدو ظاهرياً. لم أبال قط بمعرفة ماضيهم، لم أهتم حقاً بمعرفة حقيقتهم قبل أن أدخل حيواتهم، الآن فجأة، سيطر على دافع قهري بأن أعرف كل ما أستطيع عن كل منهم. أظن أن هذه الرغبة بدأت لأنني افتقدتُهما كثيراً جداً- الأستاذ وأيسوب، لكنني افتقدتُ أيضاً مسز ويذرسيون، تمنيت أن تكون معنا في المنزل، وكان المكان أكثر كآبة بكثير بعد أن تركته، وكان طرح الأسئلة وسيلة لاستحضارهم، وكلما تحدثت الأم سيوكس عنهم أكثر قل إحساسي بالوحدة.

رغم كل إصراري وإلحاحي لم أحصل منها على الكثير نهاراً، حكاية عارضة، نتف ضئيلة متفرقة، إشارات موحية، كانت الأمسيات ملائمة أكثر للحديث، ومهما ضغطتُ عليها، كان من النادر أن تبدأ قبل أن نجلس للعشاء، كانت الأم سيوكس شخصية كتومة، لا تستسلم لثرثرة فارغة أو تتكلم في أمور غير مهمة، لكن بمجرد أن تستقر في حالة مزاجية مناسبة، تكون رائعة في رواية القصص. كانت تحكي ببسر، ولا تغرق في الكثير من التفاصيل المثيرة، وكانت تتمتع بموهبة التوقف كثيراً وسط الجملة أو الفكرة، وكانت تلك الوقفات القصيرة في القص تنتج تأثيرات مذهلة إلى حد ما. تمنحك فرصة للتفكير، للتخليق مع القصة بنفسك، وحين تبدأ مرة أخرى، تكتشف أن رأسك امتلأ بكل أنواع الصور الجلية التي لم تكن موجودة من قبل.

ذات ليلة، لسبب لم أفهمه، أخذتني إلى غرفتها في الدور الثاني، طلبت مني أن أجلس على السرير، وبمجرد أن أخذتُ وضعا مريحاً، فتحتُ غطاء صندوق قديم بال في الركن. اعتقدتُ دائماً أنه مكان لتخزين ملأاتها وبطاطينها، لكن تبين أنه ممتلئ بأشياء من ماضيها: صور فوتوغرافية وخرز، وأحذية دون كعب وفساتين من جلد خام، نصال، قصاصات من الصحف، وزهور مضغوطة، حملت هذه الذكريات واحدةً واحدةً إلى السرير، وجلستُ بجواري، وشرحت لي ما تعنيه. واكتشفتُ أنها عملت بالفعل مع "بفلو بل"، وكان الشيء الذي لفت انتباهي حين نظرت إلى صورها القديمة جمالها. كانت أنيقة وممشوقة، بمجموعة كاملة من الأسنان البيضاء وجديلتين طويلتين جميلتين، كانت أميرة هندية معتادة، امرأةً حلماً مثل فتيات الأفلام، وكان من الصعب أن تربط بين الفتاة الصغيرة الرائعة والمرأة القصيرة الممتلئة العرجاء التي ترعى لنا البيت، وتقبل حقيقة أنهما شخص واحد. قالت: إن الأمر بدأ وهي في السادسة عشرة في قمة جنون رقصة الشبح^(١) التي اجتاحت أرض الهنود في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر. كانت أوقاتاً سيئة، سنوات نهاية العالم، واعتقد الهنود الحمر أن السحر هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذهم من الفناء، كان سلاح الفرسان يزحف من كل جانب، يحشدونهم من البراري في معسكرات صغيرة، وكان لدى الضباط ذوي المعاطف الزرقاء رجال كثيرون جداً بدرجة تجعل الهجوم المضاد غير محتمل. كان رقص رقصة الشبح آخر خطوط المقاومة: أن تهتز وترتج بجنون، أن تثب وتتمايل مثل 'الأسطوانات المقدسة'^(٢) والكرات اللولبية تتحرك في الأسن، كان

(١) رقصة الشبح: رقصة ترتبط بحركة دينية بين الشعوب الأمريكية الأصلية.

(٢) الأسطوانات المقدسة: أعضاء طوائف دينية تعبر عن حماسها الروحي بالصراخ والحركات العنيفة.

يمكن أن تطير من جسمك، ورصاصات الرجل الأبيض لم تمسك بعد، ولم تقتلك بعد، ولم تفرغ دمك من عروقك بعد. انتشرت الرقصة في كل مكان، وفي النهاية ألقى سييتنج بل^(١) بنفسه مع الراقصين، ارتعب جيش الولايات المتحدة، خائفاً من أن يكون التمرد في طريقه، وطلبوا من العم الأكبر للأمم سيوكس أن يتوقف. لكن الولد العجوز طلب منهم اقتحامها، وكان يستطيع أن يرقص في بيته^(٢) إذا أراد، ومن هم ليتدخلوا في شئونه الخاصة؟ وهكذا استدعى الجنرال ذو المعطف الأزرق (أظن أن اسمه مايلز أو نايلز) بافلو بل لاجتماع مع الرئيس. كانا رفيقين في الماضي حين كان سييتنج بل يعمل في عرض «وايلد ويست»، وكان 'كودي' الأبيض الوحيد الذي يثق فيه. وهكذا قطع بل رحلة شاقة إلى المعسكر في داكوتا الجنوبية^(٣) مثل جندي أصيل، لكن بمجرد وصوله إلى هناك، غير الجنرال رأيه ولم يسمح له بمقابلة سييتنج بل، خُدع بل بشكل مفهوم، لكن بالضبط وهو على وشك أن ينفجر، وقع بصره على الأم سيوكس الشابة (وكان اسمها «من تبتسم مثل الشمس») وأشار إليها بوصفها واحدة من جماعته، على الأقل لم تنته الرحلة بلا طائل. بالنسبة للأم سيوكس ربما كان ذلك يعني الفرق بين الحياة والموت، بعد بضعة أيام من دخولها عالم الاستعراض، قُتل سييتنج بل في عراك مع بعض الجنود الذين كانوا يسجنونه، وبعد ذلك بوقت قصير، تعرض ثلاثمائة امرأة وطفل ومسن لمذبحة على أيدي فوج من

(١) سييتنج بل (١٨٣٤-١٨٩٠): قائد الهنكبابا سيوكس قاد شعبه للانتصار على الجنرال جورج كاستر في معركة سنة ١٨٧٦.

(٢) في الأصل، تبيي: بيت محمول عند بعض الشعوب الأمريكية الأصلية.

(٣) داكوتا الجنوبية: ولاية في شمال وسط الولايات المتحدة.

سلاح الفرسان فيما يعرف بمعركة «وندديني»،^(١) التي لم تكن معركة بقدر ما كانت غدرًا، مذبة جماعية للأبرياء».

كانت هناك دموع في عيني الأم سيوكس وهي تخوض في هذا الحديث، هممت: «انتقام كاستر^(٢)، كنت في الثانية من عمري حين ملأ كريزي هورس^(٣) جسمه بالسهم، وحين بلغت السادسة عشرة، لم يبق شيء».

قلت: «شرح لي أيسوب ذلك ذات مرة، لكن الأمر غامض بعض الشيء الآن، لكنني أتذكره وهو يصف كيف كان يمكن ألا يكون هناك عبيد سود من أفريقيا إذا لم تطلق الشعوب البيض يدها مع الهنود، قال إنهم كانوا يريدون تحويل الهنود الحمر إلى عبيد، لكن الرئيس الكاثوليكي في البلاد القديمة منع ذلك، هكذا ذهب القراصنة إلى أفريقيا بدلًا من ذلك وجمعوا أعدادا كبيرة من السود وساقوهم في سلاسل. هكذا قال لي أيسوب، وأعرف أنه لا يكذب، كان يفترض أن يُعامل الهنود معاملة حسنة. مثل مقولة «عش ودع الآخرين يعيشون» التي يرددها الأستاذ كثيرًا».

ردت الأم سيوكس: «يفترض ذلك، لكن الأمور لا تسير كما يفترض».

(١) وندديني: مذبة حدثت في ٢٩ ديسمبر ١٩٨٠، بالقرب من مجرى ماني معروف بهذا الاسم.

(٢) كاستر (١٨٣٩-١٨٧٦): ضابط أمريكي، قاد بعض المعارك في الحرب الأهلية والحروب ضد الهنود.

(٣) كريزي هورس (١٧٤٩-١٨٧٧): قائد من السيوكس، اسمه الحقيقي Tashunca-Uitco، قاوم انتهاكات البيض في الهضاب السوداء وانضم إلى سيتنج بل في هزيمة كاستر في معركة Little Bighorn (١٨٧٦).

«حققت هدفًا هناك يا أمي، إذا لم تدعي ما تؤمنين به، يمكنك أن تقدمي وعودًا كما تشائين، ولن يغير ذلك من الأمر شيئًا».

سحبت مزيدًا من الصور بعد ذلك، ثم بدأت في برامج المسرح، وفواتير المصقات، وقصاصات الصحف، زارت الأم سيوكس كل مكان، ليس فقط في أمريكا وكندا، بل وفي الناحية الأخرى من المحيط أيضًا. مثلت أمام ملك إنجلترا وملكته، وقعت أوتوجرافها من قيصر روسيا، وشربت شمبانيا مع سارا برنار^(١). بعد خمس سنوات أو ست من التجول مع «بافلو بل»، تزوجت من أيرلندي اسمه «تيد»، فارس صغير قطع سباق الحواجز عبر الجزر البريطانية. كان لديهما بنت اسمها «دافوديل»، وكوخ حجري يتألق فيه صباح صاف وزهور قرنفلية متسلقة في الحديقة، ول سبع سنوات لم تعرف سعادتها حدودًا. ثم داهمتها الكارثة. قتل تيد ودافوديل في تحطم قطار، وعادت الأم سيوكس إلى أمريكا محطمة القلب. تزوجت من مصلح أنابيب اسمه تيد أيضًا، لكن على العكس من تيد الأول، كان تيد الثاني سكيرًا وفضًا، وتدرجيا بدأت الأم سيوكس نفسها تشرب، وتأسى بشدة حين تقارن حياتها الجديدة بالقديمة، وانتهى بهما الأمر إلى العيش معًا في كوخ من ورق مغطى بالقار في ضواحي ممفيس بولاية تينيسي، ولولا الظهور المفاجئ للأستاذ يهودي بالصدفة تمامًا في طريقهما ذات يوم في صيف ١٩١٢، ربما صارت الأم سيوكس جثة قبل الأوان. كان يسير وأيسوب الصغير في ذراعيه (بعد أن أنقذه بيومين فقط مع حقل القطن) حين سمع صراخًا وعويلاً ينبعثان من كوخ مهدم تسميه الأم سيوكس منزلها. كان تيد الثاني قد بدأ للتو يضربها بقبضتيه المكسوتين بالشعر، محطما ستا أو

(١) سارا برنار (١٨٤٤-١٩٢٣): ممثلة فرنسية.

سبعا من أسنانها مع الضربات الأولى، ودخل الأستاذ يهودي، ولم يكن قط شخصا يبتعد عن المشاكل، دخل الكوخ، وبرقة وضع طفله المعوق على الأرضية، وأنهى الصخب بالتسلل خلف تيد الثاني، غارسا إبهامه ووسطاه في عنق الحثالة، وضغط بما يكفي لشحنه إلى أرض الأحلام. ثم غسل الأستاذ الدم من لثتي الأم سيوكس وشفثيها، وساعدها في الوقوف على قدميها، وألقى نظرة على قذارة المكان، ولم يحتج إلى أكثر من اثنتي عشرة ثانية ليصل إلى قرار، قال للمرأة المحطمة: «عندي اقتراح للتنفيذ، اتركي هذه القملة على الأرضية وتعالني معي، معي ولد مصاب بالكساح في حاجة إلى أم، وإذا وافقت على رعايته، أوافق على رعايتك، لا أمكث في أي مكان وقتا طويلا، عليك أن تستعدي للسفر، وأقسم بروح أبي أنني لن أعرضك أنت والطفل للجوع».

كان الأستاذ في التاسعة والعشرين حينذاك، نموذجا مُشعًا من الرجولة بشارب مقتول وربطة عنق مربوطة بأناقة تامة. انضمت الأم سيوكس إلى القوة معه في ذلك الصباح، وفي السنوات الخمس عشرة التالية لازمته في كل منعطفات مساره، وربت أيسوب كأنه ابنها، لا أتذكر كل الأمكنة التي تحدثت عنها، لكن بدا أن أفضل القصص كانت تتركز دائما حول شيكاجو، البلدة التي ترددوا عليها كثيرا. ومنها تتحدر مسز ويزرسبون، وبمجرد دخول الأم سيوكس في هذا الموضوع يبدأ رأسي يلف، قدمت الخطوط العريضة فقط، لكن الحقائق المجردة كانت مثيرة جا للفضول، مسرحية غريبة جا، ولم يمض وقت طويل حتى جسدتها في دراما مكتملة. تزوجت ماريون ويزرسبون من زوجها الراحل وهي في العشرين أو الحادية والعشرين. وكان هو نفسه قد تربى في كانساس، وكان من عائلة

ثرية من ويتشيتا، فر إلى المدينة الكبيرة حين ورث، وصفته الأم سيوكس بأنه وسيم ومرح، واحد من أولئك الساحرين الخجولين الذين يمكن أن يفتنوا المرأة في ثوان. عاش الزوجان الشابان في نعيم ورخاء ثلاثة أعوام أو أربعة، لكن مستر ويدرنبون كان ضعيفا تجاه الجياد، ناهيك عن الولع بهواية لعب الكوتشينة ودياً خمس عشرة ليلة أو عشرين ليلة في الشهر، وحيث إنه كان يبرهن على حماس أكثر مما يبرهن على مهارة في رذائله المفضلة، تقلصت ثروته التي كانت هائلة ذات يوم إلى قدر ضئيل. وقرب النهاية، صار الوضع محبطاً جداً حتى بدا وكأن عليه هو وزوجته أن يعودا إلى بيت العائلة في ويتشيتا، وكان عليه، تشارلي ويدرنبون، المنغمس في لعب البولو ولاعب الجوكر في «نورث سايد»، أن يبحث عن وظيفة من التاسعة صباحاً إلى الخامسة مساءً في شركة تأمين موحشة. وكان ذلك حيث دخل الأستاذ يهودي الصورة- في الغرفة الخلفية من قاعة بول في شارع روش^(١) في الرابعة صباحاً مع مستر ويدرنبون واثنين آخرين أو ثلاثة مجهولين، يجلسون جميعاً حول طاولة خضراء وفي أيديهم ورق كوتشينة، وكما يقولون في الصحف المسلية، لم تكن ليلة شارلي، وكان على وشك أن يفشل، كان معه ثلاثة أولاد وشايبان ولم يكن معه يلعب بها. كان الأستاذ يهودي الوحيد المتبقي في اللعبة، وحيث إنها بوضوح آخر فرصة جيدة لشارلي يمكن أن تسنح له، قرر أن يغامر بكل شيء. رهن في البداية كل ممتلكاته في سيبولا بولاية كانساس (وكانت ذات يوم مزرعة جده)، موقِعاً على المنزل والأرض في قصاصة

(١) بول: لعبة من لعب الحظ تشبه اليانصيب حيث توضع النقود في صندوق ويحصل عليها الفائز. شارع روش Rush Street: شارع في شيكاغو.

من الورق، وحين استمر الأستاذ يهودي وزاد عليه، وقع الجنتلمان قصاصة أخرى من الورق تخلي فيها عن كل الحقوق في زوجته. كان الأستاذ يهودي معه أربع سبعات، وحيث إن أربع ورقات من نوع واحد تفوز على ثلاثة أوراق من نوع وورقتين من نوع، بصرف النظر عن نوع الورق، كسب المزرعة والمرأة، وتهادى شارلي ويدرنبون المسكين المهزوم إلى بيته، منهزمًا تمامًا، في الفجر، ودخل البيت وزوجته نائمة، وانتزع مسدسًا من الطاولة المجاورة للسرير، حيث أطلق النار على رأسه وتطاير دماغه على السرير.

هكذا نصب مستر يهودي خيمته في كانساس. بعد سنوات من التجوال وجد أخيرًا مكانًا يسميه مكانه، ورغم أنه لم يكن بالضرورة المكان الذي كان في عقله، لم يكن على وشك أن يزدري ما منحته إياه تلك السبعات الأربع. ما أربكني كيف عالج الأستاذ يهودي الأمر. إذا كان زوجها قد مات، من أين قدم لها ما يلزم ليعيش في راحة تامة في قصرها في ويتشيتا، لتشبع نفسها بملابس رائعة وسيارات فخمة ويتبقى لديها ما يكفي لتمول مشروعات الأستاذ يهودي؟ وكانت عند الأم سيوكس إجابة جاهزة على هذا السؤال. لأنها بارعة. بدأت مسز ويدرنبون بمجرد أن استوعبت الطرق الخليعة لزوجها، بدأت تجري تعديلات في الدفاتر، تضع جزءًا من دخلهما الشهري في استثمارات ذات عائد مرتفع، البورصة، وأسهم شركات، ومعاملات مالية أخرى. وحين صارت أرملة، حققت أنشطتها أرباحًا طائلة إلى حد ما، مضاعفة المبلغ الأولي أربع مرات، وبهذه الثروة الصغيرة المنظمة في حوزتها، كانت تستطيع بسهولة أن تأكل وتشرب وتمرح. سألت: لكن ماذا عن الأستاذ يهودي؟ كسب جمالها وانهمك في لعبة البوكر، وإذا كانت

مسز ويذرسبون تخصصه، لماذا لم يتزوجا؟ لماذا لا تكون هنا معنا ترتق جوربه وتطهي طعامه وتحمل أطفاله في رحمها؟

هزت الأم سيوكس رأسها ببطء إلى الخلف وإلى الأمام، وقالت: «إنه عالم جديد نعيش فيه، لم يعد لأحد أن يمتلك أحدًا، المرأة ليست سلعة يبيعها الرجال ويشترونها، وخاصة النساء الجديديات اللاني على شاكلة سيدة الأستاذ. إنهن يحبين ويكرهن، يمتلكن ويغازلن، يرغبن ولا يرغبن، وبمرور الوقت يغصن عميقًا تحت جلد الآخر، إنه عرض حقيقي، يتحد لعب الأطفال والحماقة والتهريج معًا، ومن المؤكد أن الوضع سيبقى على هذا النحو حتى الموت».

منحتني هذه القصص الكثير مما يشغل تفكيري في الساعات التي أقضيها وحيدًا، لكنني كلما أمعنت التفكير فيما قالته الأم سيوكس صار أكثر التواء والتباسًا، تعب رأسي من محاولة استيعاب مداخل هذه الأفعال المعقدة ومخارجها، وعند نقطة معينة توقفتُ، قانلاً نفسي سألتف وصلات دماغي إذا واصلت التفكير بهذا الشكل، الكبار كائنات لا يمكن فهمهم، وإذا كبرت أنا نفسي، أعد بأن أكتب خطاباً لذاتي القديمة أشرح فيه كيف سارت الأمور بتلك الطريقة - لكنني كان لدي ما يكفي، كان من المريح أن أتصرف بهذا الشكل، لكن بمجرد أن تخلّيت عن هذه الأفكار، وقعت في ضجر عميق، مرهق جداً في تشابهه السقيم، فعذتُ في النهاية إلى العمل، ليس لأنني أردتُ ذلك، لكن لأنني لم يخطر على بالي طريقة أخرى أملأ بها وقتي.

أغلقْتُ على نفسي في غرفتي مرة أخرى، وبعد ثلاثة أيام من العمل غير المثمر، اكتشفتُ أنني كنت أعمل بشكل خطأ، كانت المشكلة كلها تكمن في الطريقة، وضعت في عقلي بشكل ما أن

الارتفاع والحركة يمكن أن تتحققا فقط في عملية من خطوتين، الأولى أن أرتفع بقدر ما أستطيع، ثم أندفع وأتحرك، دربت نفسي على القيام بشيء واحد، وتصورت أنني أستطيع أن أنجز الشيء الثاني بلمصقه مع الأول، لكن الحقيقة أن الشيء الثاني كان يلغي ما جاء قبله، مرارا وتكرارا، أرتفع في الهواء بالطريقة القديمة، لكن بمجرد التفكير في السير إلى الأمام، أعود ثانية إلى الأرض، تلامس قدماي الأرض مرة أخرى قبل أن أتحرك، فشلتُ مرة، فشلت ألف مرة، وبمرور الوقت شعرتُ باشمزاز شديد، عذبي العجز بشدة، حتى انتابتنى نوبات غضب وضربت الأرض بقبضتي، في النهاية، في حالة تامة من الغضب والهزيمة، ارتفعت وقفزت مباشرة في الحائط، على أمل أن أسقط فاقدا الوعي. قفزتُ وفي جزء من الثانية، قبل أن يصطدم كتفي بالجص، شعرتُ بأنني أطفو - حتى وأنا أندفع إلى الأمام، فقدت التماس مع الجاذبية، منطلقا إلى أعلى باندفاع مبهج مألوف وأنا أخلق في الجو، قبل أن أدرك ما يحدث، اندفعت بعيدا عن الحائط وسقطت على الأرض متألما، ارتجف جانبي الأيسر كله من الارتطام، لكنني لم أبال، نهضت على قدمي ورقصت قليلا حول الغرفة، وأنا أضحك ساخرا في الدقائق العشرين التالية. اكتشفت السر، فهمتُ قلت لنفسي: انس الزوايا القائمة، فكرز على شكل قوس، فكرز على شكل منحنى، لم تكن المسألة الصعود ثم الانطلاق، كانت المسألة الصعود والانطلاق في الوقت ذاته، أن أثب في إيماءة سلسلة متصلة إلى ذراعي العدم العظيم الذي يكتنف كل شيء.

عملت مثل كلب في الأيام الثمانية عشر أو العشرين التالية، تدربتُ على التقنية الجديدة حتى تجسدت في عضلاتي وعظامي، وصارت فعلا انعكاسيا لم يعد يحتاج إلى تفكير. كانت الحركة مهارة

يمكن تحسينها لتصل إلى درجة الكمال، مشية في الهواء تشبه الحلم لا تختلف جوهرها عن السير على الأرض، وبالضبط كما يتعثّر الطفل ويسقط في خطواته الأولى، تعثرت كثيرا وسقطت وأنا أبداً فرد جناحي، كانت المدة قضية دائمة بالنسبة لي في ذلك الوقت، مسألة المدة التي يمكن أن أسير فيها والمسافة التي أقطعها، اختلفت النتائج الأولى بشدة، تراوحت من ثلاث ثوانٍ إلى خمس عشرة ثانية، وحيث إنني كنت أتحرك ببطء مؤلم، كانت أفضل مسافة قطعها سبعة أقدام أو ثمانية، ليست حتى المسافة من جدار إلى آخر في الغرفة. لم أكن أسير بخطوات قوية بارعة، كانت مشية شبحية ثقيلة، بالطريقة التي يتقدم بها بهلوان على سلك مرتفع، ومع ذلك واصلتُ العمل بثقة، لم أعد عرضة لغيوبة اليأس كما كنت من قبل. كنت أنطلق إلى الأمام، ولم يكن لشيء أن يوقفني، حتى لو لم أرتفع أعلى من البوصات الست أو السبع المعتادة، تصورت أن من الأفضل أن أركز على الحركة في ذلك الوقت، بمجرد أن أنجز بعض البراعة في تلك المنطقة، يمكنني أن أعود إلى الارتفاع وأعالج تلك المشكلة أيضاً، أدركت أنني لن أترشح عن هذه الخطة حتى إذا كان عليّ أن أفعل ذلك كله مرة أخرى، كيف كان يمكن أن أعرف أن ذلك الوقت يمر بسرعة، وبقيت أيام أقل مما تخيل أي منا؟

بعد عودة الأستاذ يهودي وأيسوب، دبت الروح في المنزل كما لم يحدث من قبل، كانت نهاية عصر، وكنا جميعاً نتطلع إلى المستقبل، متوقعين الحياة الجديدة التي تنتظرنا بعيداً عن حدود المزرعة، سيكون أيسوب أول المبتعدين - إلى «بييل» في سبتمبر - وإذا جرت الأمور طبقاً للجدول، فإن بقيتنا سيتبعونه بحلول نهاية السنة، مررت إلى المرحلة التالية من تدريبي، ويتوقع الأستاذ أن

أكون جاهزاً للاداء أمام الجمهور خلال تسعة أشهر تقريباً. لا يزال الطريق طويلاً بالنسبة لشخص في عمري، لكنه تحدث عنه بوصفه شيئاً حقيقياً، وكان استخدامه لكلمات مثل «حجوزات»، «المواقع»، و«صافي حصىلة شباك التذاكر»، يبقيني في حالة من الإثارة الدائمة. لم أعد والت رولي، النكرة التافه المعدم، صرت والت الولد العجيب، المتهور الصغير الذي تحدي قوانين الجاذبية، الأول والوحيد في الجو، بمجرد أن نشق الطريق ويرى العالم ما أفعله، ستتار حولي ضجة، وأصبح أكثر شخصية يدور الحديث عنها في أمريكا.

وبالنسبة لأيسوب، كللت رحلته إلى الشرق بنجاح مطلق، أجروا له اختبارات خاصة، عقدوا مقابلة معه، فحصوا محتويات مجتمته المبهمة، وطبقا لكلام الأستاذ، أذهل عددا كبيراً منهم. لم ترفضه أية كلية، لكن بيل عرضت عليه منحة دراسية لأربع سنوات. بالإضافة إلى الطعام والمسكن ومبلغ صغير للمعيشة. مما رجع كفتهم؛ بولا بولا^(١)، يا أصحاب العزيمة في العالم اتحدوا، وحين أتذكر هذه الحقائق الآن، أفهم الإنجاز الذي حققه صبي أسود علم نفسه ليتسلق أسوار تلك المعاهد التي لا تعرف التعاطف. لم أكن أعرف شيئاً عن الكتب، ولم يكن لدي مقياس لأقيس قدرات صديقي مقابل قدرات أي شخص آخر، لكنني أمنت إيماناً أعمى بأنه عبقرى، واستقبلت فكرة أن مجموعة من المتجهمين والمغرورين في كلية بيل يرغبون في أن يكون طالباً بها بوصفها فكرة طبيعية، أنسب شيء في العالم.

إذا كنت غيباً جداً بحيث لا أدرك أهمية انتصار أيسوب، فقد أذهلتني أكثر الملابس الجديدة التي عاد بها من الرحلة، عاد في

(١) بولا بولا: أغنية جامعة بيل.

معطف من الجلد الطبيعي وقبعة باللونين الأزرق والأبيض، وبدا غريبًا جدًا في ذلك المظهر حتى إنني لم أقاوم الضحك حين دخل من الباب. أعد له الأستاذ بدلتين بنيتين من التويد في بوسطن، وحين عاد إلى البيت، اعتاد أن يرتديهما في المنزل بدلًا من ملابس الحقل القديمة، وكانت تكتمل بقميص أبيض، وياقة منشأة، وربطة عنق، وحذاء لامع ملون. كان بهذا الشكل مؤثرًا تمامًا. وكأنه صار أكثر انتصابًا، وأكثر تبجيلًا، وأكثر إدراكًا لأهميته. بدأ يحلق كل صباح رغم ذلك لم يكن عليه أن يفعل ذلك، وكان عليّ أن أبقى بصحبته في المطبخ وهو يملأ كوبه برغوة الصابون ويغمس موسه مستقيم الحد في الدلو البارد، ممسكا له بمرآة صغيرة وهو يحكي لي عما رأى وفعل في المدن الكبيرة على ساحل الأطلنطي. فعل الأستاذ أكثر من مجرد إلحاقه بكليّة، فرّجّه على عصره، وكان أيسوب يتذكر كل الدقائق: البقع العالية، البقع المنخفضة، وكل ما بينها من بقع، تحدث عن ناطحات السحاب، المتاحف، العروض المتنوعة، المطاعم، المكتبات، الأرصفة المكتظة بالبشر من كل لون وشكل. قال ذات صباح وهو يكشط في لحيته غير المرئية: «كانساس وهم، مكان للتوقف في الطريق إلى الحقيقة».

قلتُ: «ليس عليك أن تخبرني بذلك، هذا الثقب متخلف جدًا، جفت الولاية قبل أن يسمعوا حتى عن الحظر^(١) في بقية البلاد».

«شربت بيرة في مدينة نيويورك يا والت».

«حسنًا، تصورت أنك فعلت بالضرورة».

(١) الحظر: فترة من ١٩٢٠-١٩٣٣ تم فيها حظر تصنيع المشروبات الكحولية وبيعها في الولايات المتحدة.

«في حانة. منشأة غير قانونية في شارع ماك دوجال، في قلب قرية جرينيتش مباشرة، تمنيت أن تكون معي».

«لا أحتمل مذاق البيرة يا أيسوب. لكن أعطني ويسكي 'بوربون' قويا، وسوف أشرب أكثر من أي رجل».

«لا أقول إن طعمها جيد، لكن المثير أن أكون وسط كل أولئك البشر، أترجع شرابي في مكان مزدحم بهذا الشكل».

«أراهن أنه ليس الأمر الوحيد المثير الذي فعلته».

«لم يكن الوحيد، ليس بحال من الأحوال، كان مجرد أمر من كثير».

«أراهن على أن حمامتك قامت ببعض التدريبات الطيبة أيضا، إنني أخمن بطيش فقط، بالطبع، وصحخ لي إن كنتُ مخطئاً».

توقف أيسوب والموس في الجو، استغرق لحظة في التفكير، وبدأ يبتسم ابتسامة عريضة في المرأة: «لنقل فقط إنها لم تُهمل، يا أخي الصغير، ونترك الأمر عند هذا الحد».

«هل يمكن أن تخبرني باسمها؟ لا أقصد أن أكون ملحاً، لكن لدي فضول في معرفة من كانت تلك الفتاة المحظوظة».

«حسناً، إذا كان من الضروري أن تعرف، اسمها (مابل)».

«مابل. ليس سيئاً، كل الأمور في الاعتبار، تبدو مثل دمية ببعض اللحم على عظامها، كبيرة أم صغيرة؟»

«ليست كبيرة، وليست صغيرة، لكنك أصبت مباشرة بشأن اللحم. مابل أ بدن النساء التي تأمل أن تغرس أسنانك فيهن

وأسودهن، إنها ضخمة جدًا، لم أعرف أين تبدأ وأين تنتهي، كان الأمر مثل مصارعة مع فرس النهر يا والت، لكن بمجرد أن تتهمك في الأمر، تتكفل الطبيعة ببقية الأمر، تزحف إلى سريرها ولدا، وبعد نصف ساعة تخرج رجلا».

وقد وصل أيسوب إلى الرجولة قرر أن اللحظة حانت للجلوس وكتابة سيرته الذاتية، وهذا ما خطط أن يقضي فيه تلك الشهور قبل مغادرة البيت - أن يحكي قصة حياته حتى ذلك الوقت، من ولادته في كوخ ريفي في جورجيا إلى انتشاله في ماخور هارلم^(١)، ملفوفًا في الذراعين المترهلين لمابل العاهرة، بدأت الكلمات تتدفق، لكن العنوان حيره، وأتذكر كم تردد بشأنه. ذات يوم يسميه «اعترافات لقيط زنجي»؛ وفي اليوم التالي يغيره إلى «مغامرات أيسوب: التاريخ الحقيقي والآراء الصريحة لصبي ضائع»؛ وفي اليوم الذي بعده يصبح «الطريق إلى بيل: حياة طالب زنجي من أصوله الوضيعة إلى الحاضر»، هذه العناوين ليست إلا بعضها، وطوال عمله في الكتاب، استمر يحاول العثور على عناوين مختلفة، يراوغ أفكاره ويراوغها ثانية حتى شيد كوما من صفحات العنوان بطول المخطوطة نفسها. لا بد أنه كان يكد ثماني ساعات أو عشرًا يوميًا في التأليف، وأتذكر اختلاس النظر من الباب وهو يجلس محنًا إلى مكتبه، متعجبًا كيف لشخص أن يجلس ساكنًا كل هذا الوقت، منهمكا فقط في توجيه سن قلمه على ورقة فولسكاب بيضاء. كانت خبرتي الأولى بتأليف الكتب، وحتى حين يدعوني أيسوب إلى غرفته ليقرا علي فقرات من كتابه، أجد من الصعب أن يقضي المرء كل هذا الصمت والتركيز مع قصص

(١) جورجيا: ولاية في جنوب شرق الولايات المتحدة. هارلم: حي في مدينة نيويورك.

تأتي مندفعة من شفتيه، كنا جميعًا في الكتاب- الأستاذ يهودي والأم سيوكس وأنا - وبالنسبة لأذني الخرقاء الساذجة، كان العمل مؤهلاً تمامًا ليكون تحفة فنية، ضحكت من بعض الأجزاء، وبكيت من أخرى، وماذا يريد المرء من كتاب أكثر من أن يشعر بذلك الوخر من البهجة والأسى؟ والآن أكتب كتابي الخاص، لا يمر يوم دون أن أفكر في أيسوب هناك في غرفته. كان ذلك منذ خمسة وستين عامًا، وما زلت أراه يجلس إلى مكتبه يخربش ذكريات شبابه والنور يتدفق عبر النافذة، مبصرًا جزيئات الغبار تتراقص حوله، وإذا ركزت بما فيه الكفاية، ما زلت أسمع نفسه يدخل رثتيه ويخرج، ما زلت أسمع سن قلمه يخربش على الورق.

بينما كان أيسوب يكتب داخل البيت، كنت أنا والأستاذ يهودي نقضي أيامنا في الحقول، نكد ساعات لا تعد في عملنا، في نوبة من التفاؤل بعد عودته أعلن على العشاء أنه لن يكون هناك غرس في تلك السنة. قال: «لنذهب المحاصيل إلى الجحيم. لدينا من الطعام ما يكفي للشتاء، وبحلول الربيع مرة أخرى، سنكون قد رحلنا عن هذا المكان منذ فترة طويلة، ورأيي أنه إثم أن نزرع أشياء لن نحتاج إليها أبدًا». كانت هناك بهجة عامة بشأن هذه السياسة الجديدة، ولمرة واحدة كانت بداية الربيع خالية من العمل المضني والحرق، أسابيع لا متناهية من انحناء الظهور والخوض في الوحل، تحول تقديمي المفاجئ في الحركة إلى فرصة مناسبة، وكان الأستاذ يهودي واثقًا جدًا حتى أنه أهمل الحقل. كان القرار الوحيد المعقول الذي يمكن أن يتخذه رجل، قضينا مدتنا جميعًا، ولماذا نأكل النفايات ونحن بعد قليل سنعد للذهاب؟ وذلك لا يعني أننا لم نكد هناك - وخاصة أنا - لكنني استمتعت بالعمل ومهما دفعني الأستاذ لم أرغب في التوقف قط، بمجرد أن

صار الطقس دافئا، كنا نخرج باستمرار حتى بعد أن يحل الظلام، نعمل على ضوء الكشف في المروج البعيدة والقمر يرتفع في السماء، لم أعرف التعب، غرقت في سعادة غمرتني من تحد إلى التحدي التالي، بحلول أول مايو كنت أسير بشكل روتيني من عشر ياردات إلى اثنتي عشرة ياردة، وبحلول الخامس من مايو، وصلت إلى عشرين ياردة، وفي أقل من أسبوع وصلت إلى أربعين: مائة وعشرون قدماً حركة في الجو، عشر دقائق تقريبا متواصلة من السحر الخالص، وحين خطرت للأستاذ فكرة أن أتدرب فوق الماء، كانت هناك بركة في الركن الشمالي الشرقي من الممتلكات، ومن ذلك الوقت بدأنا العمل هناك، منطلقين في عربة كل صباح بعد الإفطار إلى نقطة لا نرى من عندها المنزل - وحدنا معاً في الحقول الصامتة، من النادر أن نتبادل كلمة لساعات طوال، في البداية أرفعني الماء، وحيث إنني لا أعرف السباحة، لم يكن هزلاً أن أختبر براعتي على تلك المادة. لابد أن عرض البركة كان ستين قدماً، ومستوى المياه في نصفها على الأقل أعلى من رأسي، سقطت فيها ست عشرة مرة أو عشرين مرة في اليوم الأول، وفي أربع من هذه السقطات كان على الأستاذ أن يقفز ليلتقطني، وبعد ذلك، كنا نذهب مزودين بقوط وملابس للغيار، لكن بحلول نهاية الأسبوع لم تعد ضرورية، لم أكن أنظر إلى أسفل، اكتشفت أنني أستطيع أن أندفع على السطح دون أن أبتل، كان الأمر بهذه البساطة، وفي الأيام الأخيرة من مايو ١٩٢٧، كنت أسير على المياه بالمهارة التي كان يسير بها المسيح نفسه. في وقت ما من منتصف هذه الفترة، قام ليندبيرج^(١) برحلته

(١) ليندبيرج (١٩٠٢-١٩٧٤): طيار أمريكي، أول من عبر الأطلنطي بمفرده في ٢٠-٢١ مايو ١٩٢٧.

الفردية عبر الأطلنطي، مسافراً دون توقف من مدينة نيويورك إلى باريس في ثلاث وثلاثين ساعة. سمعنا عن الرحلة من مسز ويذرسمون، التي انطلقت ذات يوم من ويتشيتا بحزمة من الجرائد في المقعد الخلفي لسيارتها، كان الحقل منفصلاً تماماً عن العالم، حتى الأخبار الرئيسية التي من قبيل هذا الخبر تمر دون أن يلاحظها أحد، إذا لم ترغب في قطع كل تلك المسافة ما كنا سمعنا أي شيء عن ذلك. استغربت دائماً من تزامن عمل ليندبيرج تماماً مع جهودي، في اللحظة ذاتها التي شق فيها طريقه عبر المحيط اجتزت بحيرتي الصغيرة في كانساس- نحن الاثنان في الجو معاً، كل منا ينجز عمله الفذ في الوقت ذاته، بدا الأمر وكأن السماء انفتحت فجأة للإنسان، وكنا أول رائدين، كولومبس وماجلان الطيران البشري، لم أعرف «النسر الوحيد» من ثقب في الحائط، لكنني شعرت بالارتباط معه بعد ذلك، كما لو كنا نشترك في رابطة أخوية خفية. لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة أن يكون اسم طائرته «روح سانت لويس». إنها بلدتي، أيضاً، بلد الأبطال، أبطال القرن العشرين، ودون حتى أن يعرف، سمى ليندبيرج طائرته على شرفي.

بقيت مسز ويذرسمون معنا يومين وليلتين، وبعد أن تركتنا، عدتُ أنا والأستاذ إلى العمل، وحولنا بؤرة الاهتمام من الحركة إلى الارتفاع، فعلت ما أستطيع مع الانتقال على المستوى الأفقي؛ وحين الوقت لأحاول مع الانتقال على المستوى الرأسي. كان ليندبيرج ملهمي، أو من بذلك تماماً، لكنني أردت أن أتفوق عليه: أن أفعل بجسمي ما فعله بآلة. ربما على مستوى أقل، لكنه أكثر إثارة للإعجاب بشكل مطلق، شيء يقزم شهرته في ليلة، لكنني حاولت ولم أتقدم بوصة، لأسبوع ونصف، كافحت أنا والأستاذ

قرب البركة، مروعين بالقدر نفسه بالمهمة التي حددناها لأنفسنا، وفي نهاية ذلك الوقت لم أصل إلى ارتفاع أعلى مما وصلتُ إليه من قبل، وفي مساء الخامس من يونيو، قدم الأستاذ يهودي اقتراحا جعل الأمور تتحسن فجأة.

قال: «أفكرُ فقط، يبدو لي أن الأمر قد يكون له علاقة بقلادتك، لا تزن أكثر من أوقية أو اثنتين، لكنه وزن قد يكون كبيرًا بالنظر إلى حسابات ما تحاوله. بالنسبة لكل مليمتر ترتفعه في الهواء يزيد وزن الشيء بتناسب هندسي مع الارتفاع- مما يعني أنك، بمجرد أن تكون على بعد ست بوصات من الأرض، تحمل ما يعادل أربعين رطلاً إضافيًا، وهو ما يساوي نصف وزنك الإجمالي، إذا كانت حساباتي صحيحة، فلا غرابة في أن تكون قد مررت بذلك الوقت الصعب». قُلْتُ: «ألبس تلك القلادة منذ الكريسماس، إنها تعويذة حظي، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا دونها».

«تستطيع يا والت، حين ارتفعت عن الأرض أول مرة، كانت حول رقبتني، هل تتذكر؟ لا أقول إنك لا ترتبط بها عاطفياً، لكننا هنا نفتح مسائل روحية عميقة، وربما لا نستطيع أن تنهكك تمامًا في أن تفعل ما عليك، وعليك أن تتخلى عن جزء من نفسك قبل أن تحقق كل ما تؤهلك له موهبتك».

«لا معنى لهذا الكلام، إنني ارتدي ملابس، أليس كذلك؟ أنتعل حذاء وجوربا، أليس كذلك؟ إذا أخذتني القلادة إلى أسفل، أخذتني الأشياء أيضاً، وأنا متأكد تماماً من إنني لن أعرض أعمالي دون ملابس».

«لن يؤذيك أن تحاول، لن تخسر شيئاً يا والت، ويمكن أن تكسب كل شيء. إذا كنت مخطئاً، ليكن، وإن لم أكن مخطئاً فسيكون من البشاعة ألا تواتينا الفرصة أبداً لنكتشف ذلك».

وضعني في هذا الموقف، وبكثير من الشك والتردد خلعت تعويذة الحظ الطيب ووضعتها في يد الأستاذ. قلت: «حسناً، نجرب، لكن إذا تبين أن الأمر ليس كما تقول، فستكون آخر مرة نتحدث في هذا الموضوع».

في الساعة التالية تمكنت من مضاعفة رقمي السابق، وصعدت إلى ما بين اثنتي عشرة بوصة وأربع عشرة بوصة، وبحلول الليل، ارتفعتُ قدمين ونصف عن الأرض، مبرهنًا على أن حدس الأستاذ يهودي كان صحيحاً، بصيرة نبوية في أسباب فنون الارتفاع ونتائجها، كانت الإثارة مدهشة. أن أشعر بنفسى محلقاً على مثل تلك المسافة من الأرض، أن أكون بكل معنى الكلمة على حافة الطيران - لكن أعلى من قدمين كان من الصعب أن أحفظ وضعي الأفقي دون أن أترنح وأدوخ، كان كل شيء بالنسبة لي جديداً في الأعلى، لم أشعر بتوازني الطبيعي، شعرت بأنني أطول من المعتاد، وكأنني مركب من قطع ولست قطعة متصلة، يستجيب الرأس والكتفان بطريقة بينما تستجيب القصبتان والكاحلان بطريقة أخرى. وحتى لا أنقلب، كنت أسترخي في وضع الانبطاح حين أصعد، وعرفت غريزيا أن تمدد جسمي كله على الأرض أكثر أماناً وراحة من الوقوف على أخمصي القدمين فقط. كنت لا أزال قلقاً بدرجة تحول دون التفكير في الحركة إلى الأمام في ذلك الوضع، لكن في وقت متأخر من تلك الليلة، بالضبط قبل التوقف عن العمل والذهاب إلى البيت للنوم، طويت رأسي تحت صدري ونجحت في القيام بشقلبة بطيئة في الجو، مكملًا دائرة كاملة متصلة دون أن أمس الأرض مرة.

عدت أنا والأستاذ إلى المنزل في تلك الليلة منتشيين بالمتعة، بدا لنا كل شيء ممكناً: تحقيق الارتفاع والحركة، الصعود في طيران فعلي، حلم الأحلام، أظن أنها أعظم لحظائنا معاً، اللحظة التي تجسد فيها أخيراً مستقبلنا كله، لكن في السادس من يونيو، بعد ليلة فقط من الوصول إلى القمة، تعرض تدريبنا لتوقف فجائي لا يمكن معالجته، حدث أخيراً ما أفزع الأستاذ يهودي منذ فترة طويلة، وحين حدث، حدث بعنف شديد، أحدث فوضى واضطراباً في قلوبنا، بحيث لم يعد أي منا كما كان إلى الأبد.

سارت معي الأمور بشكل جيد طوال اليوم، وكما كانت عادتنا في ذلك الربيع العجيب، قررنا أن نواصل حتى الليل، في السابعة والنصف، تناولنا عشاء من سندوتشات أعدتها لنا الأم سيوكس في ذلك الصباح ثم واصلنا عملنا والظلام يحل بالحقول المحيطة بنا، لا بد أن الوقت اقترب من العاشرة حين سمعنا صوت أحصنة. كانت مجرد دمدمة شاحبة في البداية، اضطراب في الأرض جعلني أفكر في رعد بعيد، وكان عاصفة رعدية تتخمر في مكان ما في بلد مجاورة. أكملت شغلبتين فقط على حافة البركة وكنت أنتظر تعليقات الأستاذ، لكن بدل أن يتكلم بصوته الهادئ المعتاد، قبض على ذراعي فجأة، في إيماءة كلها هلع، وقال: «أنصت»، ثم قال مرة أخرى: «أنصت إلى ذلك. إنهم قادمون. أبناء العاهرات قادمون». أنصت بدقة، وتأكدت من أن الصوت يرتفع، مرت ثانيتان وفهمت أنه صوت جياد، قعقة حوافر قطيع تندفق باتجاهنا.

قال الأستاذ: «لا تتحرك، ابق مكانك ولا تحرك عضلة حتى أعود».

ثم ودون أن ينطق بأي تفسير، بدأ يجري باتجاه المنزل، منطلقاً بين الحقول مثل عداء، تجاهلت أمره وانطلقت خلفه، بأقصى ما يمكن أن تحملني بها ساقي، كنا على بعد ربع ميل من المنزل، لكن قبل أن نقطع مائة ياردة، رأينا النيران بالفعل، موجة متوهجة من الأحمر والأصفر تندفع باتجاه السماء المظلمة، سمعنا صيحات وأغاني حرب، ووابلاً من طلقات تدوي، ثم سمعنا صوتاً واضحاً لصرخات بشرية. استمر الأستاذ في الجري، لتتسع المسافة بيننا باستمرار، لكنه توقف بمجرد أن وصل إلى مجموعة من أشجار السنديان على الجانب البعيد من الزريبة، اندفعت إلى حافة الأشجار، لأواصل الطريق كله إلى المنزل، لكن الأستاذ رأي بطرف عينه وأوقعتني على الأرض قبل أن أسير خطوة أخرى، قال: «فات الميعاد. إذا دخلنا الآن فسوف نُقتل، إنهم اثنا عشر ونحن اثنان، ومعهم جميعاً بنادق ومسدسات، صل للرب ألا يجدونا يا والت، لكن لا شيء يمكن أن نفعله للآخرين».

وهكذا وقفنا في ياس خلف الأشجار، نراقب منظمة «كو كلوكس كلان»^(١) تقوم بعملها. اثنا عشر رجلاً واثنا عشر حصاناً يقفزون حول الفناء، مجموعة من القتل الصانحين بأغطية بيض على رؤوسهم، وكنا عاجزين عن مقاومتهم. سحبوا أيسوب والأم سيوكس من المنزل المحترق، ووضعوا حبلاً حول رقبتيهما وربطوهما في شجرة دردار على جانب الطريق، كل منهما في غصن. صرخ

(١) كو كلوكس كلان: منظمة سرية تأسست في الجنوب عقب الحرب الأهلية لإعادة تأكيد تفوق البيض عن طريق الأعمال الإرهابية. وهناك جمعية أخرى تأسست للهدف نفسه في جورجيا سنة ١٩١٥.

أيسوب، ولم تنطق الأم سيوكس بشيء، وفي دقائق كانا ميتين، قتل أفضل صديقين لي أمام عيني، وكل ما استطعت القيام به أن أشاهد، وأقاوم دموعي والأستاذ يهودي يثبت راحته على فمي، بمجرد انتهاء عملية القتل، غرس رجلان من المنظمة صليبا خشبيا في الأرض، وسكبا عليه جازولين وأشعلا النيران فيه. احترق الصليب والمنزل يحترق، صاح الرجال أكثر، وأطلقوا مجموعات من الطلقات في الهواء، ثم امتطوا جيادهم جميعا وانطلقوا في اتجاه سيبول، كان المنزل متوهجا، قذيفة من الحرارة والأخشاب التي تطلق، وبرحيل آخر رجل، سقط السقف بالفعل، وانهار على الأرض في وابل من الشرر والشهب. بدا الأمر وكأنني رأيت الشمس تنفجر. بدا وكأنني شاهدت نهاية العالم.

II

دفناهما في المزرعة في تلك الليلة، أنزلنا جسديهما في قبرين دون علامات بجوار الزريبة، كان علينا أن نتلو بعض الأدعية، لكن رثائنا كانت مليئة بالحزن فلم نستطع، وهكذا غطيناهما بالتراب ولم نقل شيئاً، ونحن نعمل في صمت والماء المالح ينساب على وجناتنا. ثم، ودون أن نعود إلى المنزل المحترق، دون أن نهتم حتى بمعرفة إن كانت بعض متعلقاتنا لا تزال سليمة، ربطنا الفرس في العربة وانطلقنا في الظلام، تاركين سييولا خلفنا إلى الأبد.

استغرق الأمر الليلة بطولها ومنتصف الصباح التالي لنصل إلى منزل مسز ويذرสบون في ويتشيتا، وبقيّة ذلك الصيف كان أسى الأستاذ سيئاً جداً حتى ظننت أنه قد يتعرض لخطر الموت هو نفسه، نادراً ما يتحرك من السرير، ونادراً ما يأكل، ونادراً ما يتحدث؛ باستثناء الدموع التي تنهمر من عينيه كل ثلاث ساعات أو أربع، لم تكن هناك وسيلة لتعرف إن كنت تنظر إلى رجل أو كتلة من الحجارة. كان الرفيق الكبير منهكاً تماماً، يُدمره الأسى واتهام الذات، ومهما تمنيت أن يقلع عن هذا، كانت حالته تسوء بمرور الأسابيع، وكان يهتم أحياناً نفسه: "رأيت المصيبة قادمة، رأيته قادمة، ولم أرفع إصبعاً لأوقفها، إنها غلطتي؛ موتها غلطتي، لم أفعل شيئاً طيباً إذا كنت قد قتلتها بيدي، والرجل الذي يَقتل لا يستحق الرحمة، لا يستحق الحياة".

ارتجفت لرؤيته بهذه الحالة، خاملاً لا يفعل شيئاً مفيداً، وعلى المدى البعيد أرعبني ذلك بقدر ما أرعبني ما حدث لأيسوب والأم

سيوكس — وربما أكثر، لا أقصد أن أبدو بارد القلب بشأن ذلك، لكن علينا أن نعيش الحياة، ومصدومًا بمذبحة صديقي، وأنا لا أزال طفلًا، يرقة صغيرة، متوترًا ومتراخيًا، لم أكن أريد أن أستمّر في البكاء والحداد لفترة طويلة، زرفتُ دموعي، لعنت الرب، ضربت رأسي في الأرضية، لكن بعد الاستمرار في ذلك لبضعة أيام، كنت على استعداد لترك ذلك ورائي والانهماك في أمور أخرى، لا أفترض أن الكلام مستحب جدًا بالنسبة لي شخصيًا، لكن لا معنى للتظاهر بأنني أشعر بما لا أشعر به. افتقدتُ أيسوب والأم سيوكس، تفت لأن أكون معهما مرة أخرى- لكنهما رحلًا، ولن يعودا بأي قدر من التوصل، كنت أشعر بأن الوقت حان لتتحرك ونعمل، كان رأسي لا يزال مكتظًا بالأحلام بشأن مهنتي الجديدة، وشرها بقدر ما قد تكون تلك الأحلام، لم أستطع الانتظار لأبدًا، لأنطلق إلى السماء وأذهل العالم بعظمتي.

تخيل إحباطي، حينذاك، وأنا أشاهد يونيو ينتهي ويوليو يبدأ والأستاذ يهودي لا يزال فائرًا؛ تخيل انهيار روعي المعنوية ويوليو يصبح أغسطس، ولم يكشف عن علامة للنهوض من المأساة. لم يعطل ذلك خططي فقط، لكنني شعرتُ بخيبة الأمل، بالارتباك، والترنح، تكشف لي عيبًا جوهريًا في شخصية الأستاذ، وامتعضت منه لافتقاره للصلاية الداخلية، رفضه لمواجهة قذارة الحياة، اعتمدتُ عليه سنوات طويلة جدًا، وسحبت قوة كبيرة جدًا من قوته، وصار يتصرف مثل أي متفائل أحمق، صار واحدًا آخر من الرجال الذين يرحبون بالخير حين يأتي ولا يقبلون الشر، شعرت بالغثيان حين رأيته يسقط على هذا النحو، واستمر أساءه، ولم أستطع إلا أن أفقد

بعض إيماني به. ولولا مسز ويذرسيون، كانت هناك فرصة لأن أقبل الهزيمة وأنشق، قالت لي ذات صباح: ”أستاذك رجل عظيم؛ ومشاعر الرجال العظماء عظيمة، إنهم يشعرون أكثر من الرجال الآخرين- يستمتعون أكثر، ويغضبون أكثر، ويحزنون أكثر، إنه يتألم الآن، وسيستمر الأمر أطول مما يستمر مع شخص آخر. لا تدع ذلك يفزعك يا والت، سوف يتغلب على ذلك في النهاية، ينبغي أن تصبر“.

هذا ما قالت، لكن في أعماقي لا أثق أنها كانت تؤمن بتلك الكلمات. وبمرور الوقت، شعرتُ أنها بدأت تستاء منه مثلي تمامًا، وأحببتُ اتفاقنا في تلك المسألة المهمة. كانت مسز ويذرسيون امرأة لاذعة، أعيش في منزلها وأقضي كل يوم في صحبتها، فهمتُ أن بيننا صفات مشتركة أكثر بكثير مما توقعتُ، كانت تتصرف بأفضل ما تستطيع حين تزور المزرعة، بكل ذوق وتحفظ حتى لا تزعج أيسوب والأم سيوكس، لكنها الآن على أرضها، حرة في التخلي عن ذلك والكشف عن طبيعتها الحقيقية، في أول أسبوعين، أدهشني تقريبًا كل ما يتعلق بتلك الطبيعة، تتبدى في عادات سيئة ونوبات اندفاعية من الانغماس في الملذات. لا أتحدث فقط عن ولعها بالخمير (ليس أقل من ست كؤوس جن بالصودا أو سبع يوميا)، أو شغفها بالسجائر (تنفث ماركات عتيقة مثل ”بكيوني“ و”سويت كابورال“ من الصباح إلى الليل)، لكن عن انحلال عام مؤكد، كما لو كان يكمن خلف مظهرها المتأنق روح طليقة لموس تكافح لتتحرر. كان فيها كلمة السر، وبمجرد أن تتناول دورة أو اثنتين من مشروبها المفضل، تنزلق إلى أكثر اللغات التي سمعتها على الإطلاق من

شفّتي امرأة فظاظة وسوقية، مطلقة النكت اللاذعة بالسرعة التي تتجشأ بها بندقية آلية الطلقات، بعد كل الحياة النظيفة التي قضيتها في المزرعة، وجذتُ من المنعش أن أختلط بسيدة لا تتقيد بهدف خلقي سام، كل هدفها في الحياة أن تستمتع وتكسب من المال أقصى ما تستطيع. صرنا صديقين، وتركنا الأستاذ يهودي في كربه وانتظرنا بشغف نهاية الأيام شديدة الحرارة وسام الصيف الحار في ويتشيتا.

كنت أعرف إعجابها بي، لكنني لا أريد أن أبالغ في عمق المشاعر، على الأقل في تلك المرحلة المبكرة. كان لدى مسز ويذرسيون سبب محدد لإسعادي، وبينما كنت أحب أن أشبع غروري بأنها وجدت في هذا الصاحب الأصيل، ذلك الرفيق الذكي المتهور، فقد كانت الحقيقة أنها تفكر في مستقبل حسابها المصرفي، لأي سبب آخر يمكن لامرأة في نباهتها وجاذبيتها الجنسية أن تهتم بقضاء الوقت مع طفل غر مثلي؟ رأيتني فرصة تجارية، دولارًا في شكل ولد، وكانت تعرف أن مهنتي لو وجدت الرعاية الحقيقية والفتنة، فسوف تجعلها أغنى امرأة في البلاد، لا أقول: إننا لم تكن لنا بعض أوقات اللهو معًا، لكنها كانت دائما في خدمة اهتماماتها، وكانت تتملقني وتشجعني لإبقائي في الحظيرة، لتتأكد من أنني لن أفر قبل أن تستغل موهبتي.

هكذا علينا أن نتقبل الأمور، لا ألومها على التصرف بهذا الشكل، وإذا كنت مكانها، ربما فعلت الشيء نفسه، لا أنكر أنني أحيانا أنزعج من رؤية ضالة تأثير سحري عليها، طوال تلك الأسابيع والشهور الموحشة واصلت التدريب بشكل روتيني ما لا يقل عن ساعة أو اثنتين يوميًا، وحتى لا أروّع من يمر بجوار المنزل، أبقى في الداخل، أعمل في البهو العلوي والستائر منسدلة.

لا يقتصر الأمر على أن مسز ويذرسبون لم تبال إلا نادرًا بمشاهدة هذه الجلسات، لكنها أيضا في المرات القليلة التي دخلت عليّ فيها صدفة، شاهدت مشهد ارتفاعي دون مبالاة، وتفحصتني بنظرة خاوية لجزار يفحص قطعة من اللحم. مهما كانت الأعمال التي أقوم بها فذة، تقبلتها بوصفها جزءًا من النظام الطبيعي، ليست أكثر غرابة أو أصعب تفسيرًا من سطوع القمر أو صخب الرياح، ربما كانت تسكر بدرجة تجعلها لا تلاحظ الاختلاف بين معجزة وحدث يومي معتاد، أو ربما كان غموضه لا يؤثر فيها، لكن حين يتعلق الأمر بالتسلية، تندفع خلال عاصفة ممطرة لترى معرض صور من الدرجة الثالثة أسرع مما تندفع لتراني أطفو فوق الطاولات والمقاعد في غرفة معيشتها، لم يكن عملي إلا وسيلة لغاية بالنسبة لها، ومادامت كانت الغاية مؤكدة، لم تكن لتهتم بالوسيلة.

لكنها كانت طيبة معي، وما كنت لأحرمها من ذلك، مهما تكن دوافعها، لم تبخل على اللهو، ولم تتردد مرة في أن تدفع نقودًا لأجلي، بعد يومين من وصولي، أخذتني للتسوق في وسط ويتشيتا، وزودتني بمجموعة جديدة كاملة من الملابس. بعد ذلك كانت هناك قاعة الأيس كريم، ومحل الحلوى، وماكينات التسلية التي تعمل بالنقود، كانت تسبقني بخطوة دائمًا، وحتى قبل أن أعرف أنني أريد شيئًا تعرضه عليّ بالفعل، وتدفعه في يدي بغمزة وربّنة رقيقة على الرأس، بعد كل الأوقات الصعبة التي مررتُ بها، لا أستطيع أن أقول: إنني كنت أرفض أن أقضي أيامًا في كنف الرفاهية. كنت أنام في سرير ناعم بملاءات مزخرفة ووسائد من الريش، وأكل وجبات ضخمة طهتها لنا نيلي بوجز الخادمة الملونة، وكنت من قبل

لا ألبس سروالاً داخلياً يومين متتاليين. كنا في معظم الأيام نهرب عسراً من الحر باللف في الريف في السيارة الزمرد، نتجول في الطرق الخالية والنوافذ مفتوحة والهواء يندفع إلينا من الجانبين، كانت مسر ويدرسيون تحب السرعة، وأظن أنني لم أرها أسعد مما كانت وهي تضغط قدمها على دواسرة الوقود: ضاحكة بين جرعات من قارورها الفضية، وشعرها الأحمر المعقود يرفرف طليقاً، لم يكن لدى المرأة مخاوف، أو إحساس بأن سيارة تسير بسرعة سبعين ميلاً أو ثمانين في الساعة يمكن أن تقتل فعلياً شخصاً ما، فعلت أقصى ما في وسعى لأبقى هادئاً وهي تنطلق بها على هذا النحو، لكن بمجرد أن نصل إلى خمسة وستين أو سبعين لم أكن أسيطر على نفسي. كان الفرع المتفجر داخلي يؤثر على معدتي، وبعد وقت قصير تخرج مني ضرطة بعد أخرى، سلسلة كاملة من القنابل يصاحبها موسيقى صاحبة مقطوعة. ولا أحتاج إلى أن أضيف أنني كنت أموت تقريباً من الخجل، لأن مسر ويدرسيون لم تكن شخصية تدع حماقة من هذا النوع تمر دون تعليق، عندما حدث ذلك أول مرة، أطلقت ضحكة قوية جداً حتى إنني ظننت أن رأسها طار بعيداً عن كتفيها. ثم دون سابق إنذار، داسرت بقوة على الفرامل وأوقفت السيارة، وهي تتدحرج وترتجف مثل قلب.

قالت: "بضع روائع أخرى من هذا النوع، ويكون علينا أن نسير بالسيارة ونحن نضع أقتعة غاز".

قلت مقدماً الرد الوحيد الممكن: "لا أشم شيئاً".

استنشقت مسر ويدرسيون بصوت مرتفع، ثم لوت أنفها وعبرت عن اشمزازها: "شم ثمانية، يا رفيق؛ إن فرقة كاملة من الفتيان تسافر معنا، تنتزع أحلاماً وردية من مؤخرتك".

قلت، مغيرًا التكتيك بمهارة: ”مجرد قليل من الغاز، وإذا لم أخطئ، لن تسير السيارة إلا إذا ملأتها بالغاز“.

”يعتمد الأمر على ”الأوكتان“ يا حبيبي، التجربة الكيميائية التي نناقشها هنا، يمكن أن تفجرنا“.

”أجل، حسنا، إنها على الأقل طريقة للموت أفضل من أن نصطدم بشجرة“.

قالت: ”لا تقلق يا سكر“، خافضة نبرتها بشكل غير متوقع، مدت يدها ولمست رأسي، وبرقة مشت بأناملها بين شعري: ”إنني سائقة رائعة جدا. مهما كانت السرعة التي نسير بها، أنت آمن دائما مع ليدي ماريون“.

قلتُ، مستمتعا بضغط يدها على فروة رأسي: ”يبدو ذلك طيبًا، لكنني سأشعر بأنني أفضل بكثير إذا كتبت ذلك“.

أطلقت قهقهة قصيرة من حنجرتها وابتسمت، وقالت: ”هذه فكرة للمستقبل، إذا كنت تعتقد أنني أسير بسرعة كبيرة جدا، أغلق عينيك فقط وصيخ، كلما صحت أعلى سيكون الأمر أكثر بهجة بالنسبة لكلينا“.

وهذا ما فعلتُ، أو على الأقل ما حاولتُ أن أفعله. في الرحلات اللاحقة كنت أسعى دائما إلى غلق عيني حين يصل مؤشر السرعة إلى خمسة وسبعين، لكن في مرات قليلة كانت الضربات تتسلل عند السبعين، وتسالت ذات مرة عند خمسة وستين (حين بدا الأمر وكأننا على وشك الاصطدام بشاحنة قادمة وابتعدت في الثانية الأخيرة). لم تؤثر هذه الزلازل على تقديري لذاتي، لكن لم يكن هناك أسوأ من الصدمة التي حدثت في أوائل أغسطس حين

تسرب كل شيء وانتهى بي الأمر إلى التبرز في سروالي، كان يوما حارا بشكل بشع، لم تسقط أمطار لأسبوعين، وكل ورقة على كل شجرة في الريف المنبسط مغطاة بالغبار، ومسز ويدرسيون أكثر سُكْرًا بقليل من المعتاد، على ما أظن، وحين خرجنا من حدود المدينة دخلت في حالة من حالات الإثارة البشعة، دفعتُ عربتها فوق الخمسين في الطلعة الأولى، وبعد ذلك لم يكن هناك ما يوقفها. كان الغبار يتطاير في كل مكان، تدفق على الزجاج الأمامي، يتراقص في ملابسنا، يضرب أسناننا، ولم تفعل شيئا سوى الضحك، ضاغطة على دواسة البنزين كما كانت تسعى إلى كسر رقم "موكي دجوي". أغلقت عيني وصرخت كما ينبغي، متشبثا بلوحة العدادات والسيارة تنطلق وتهدر عبر الشارع الجاف المغطى بالحصى، بعد عشرين ثانية أو ثلاثين من تصاعد الهلع أدركت أن قتلى وشيك، سأموت على ذلك الطريق الغبي، وتلك لحظاتي الأخيرة على الأرض، وحين ذلك انزلق البراز من الشرخ: اندفع سيجار رخو وزلق إلى السروال الداخلي ببلى دافئ مقرز، وبدأ ينزلق إلى ساقي، وحين أدركتُ ما حدث، لم أستطع التفكير في استجابة أفضل من الانفجار في البكاء.

وأثناء ذلك استمرت في قيادة السيارة، وحين توقفت السيارة بعد عشر دقائق أو اثنتي عشرة دقيقة، كنت قد نُقِعْتُ تماما- في العرق والبراز والدموع، غرقت في كتلة من السوائل والبؤس.

أعلنت مسز ويدرسيون، وهي تشعل سيجارة لتستمتع بانتصارها: "حسنًا، يا راعي البقر- فعلناها- حططنا علامة القرن، أراهنك على أنني أول امرأة فعلت ذلك على الإطلاق في كل هذه الولاية المتزمتة، ما رأيك؟ جيد جدا لعجوز مثلي، أليس كذلك؟"

قلتُ: "لستِ عجوزًا يا مدام".

"آه، رائع أقدر ذلك؛ تتعامل برقة مع السيدات، يا فتى، ستصرعن خلال بضع سنوات بهذا النوع من الحديث".

كنت أرغب في الاستمرار في الحديث معها على هذا النحو، بهدوء تام ويسر وكان شيئًا لم يحدث، لكن وقد توقفت السيارة، يمكن ملاحظة الرائحة المنبعثة من سروالي، وكنت أعرف أنها مسألة ثوان وينكشف سري. لسعني الخزي مرة أخرى، وقبل أن أنطق بكلمة أخرى، كنت أبكي في يدَي بجوارها.

سمعتها تقول: "يسوع، يا والت، يا يسوع العظيم؛ فعلتها هذه المرة، أليس كذلك؟"

قلت، دون أن أجرو على النظر إليها: "آسف، لم تكن لي حيلة في الأمر".

"ربما نتيجة كل تلك الحلوى التي أطعمتك إياها، بطنك ليست معتادة عليها".

"ربما، أو ربما فقط أفتقر إلى الشجاعة".

"لا تكن غيبًا يا فتى، تعرضت عموماً لحدث تافه، يحدث للجميع".

"بالتأكيد، يحدث مدام كان المرء يضع حفاضة، لم أرتبك هذا الارتباك قط في حياتي كلها".

"انس، ليس هذا وقت الأسف على نفسك، علينا أن ننظف تلك المؤخرة الصغيرة قبل أن ينز منها أي براز على المقعد، هل تسمعني يا والت؟ لا أبالي بحركات أمعائك البشعة، أريد فقط ألا

تحمل سيارتي هذا البلاء، خلف هذه الشجرة بركة، وإلى هناك أخذك الآن، ننظف الخردل والبهارات، وتعود في حالة جيدة وكأنك شخص جديد“.

لم يكن أمامي إلا الذهاب معها، كان أمراً بشعاً تماماً أن أنهض وأسير، ماذا عما يحدث في سروالي الداخلي من حركة وانزلاق، وحيث إنني لم أقمع بكائي، واستمر صدري في الارتفاع والارتجاف، مُطلقاً أصواتاً غريبة شبيهة مكتومة. سارت مسز ويزرسبون أمامي، متجهة إلى البركة، كانت تبعد عن الطريق بمائة قدم تقريبا، معزولة عما يحيط بها بحاجز من الأشجار والشجيرات الهزيلة، واحة صغيرة وسط البراري، حين وصلنا إلى حافة المياه، طلبت أن أخلع ملابسِي، وهي تحثني بنبرة حازمة، لم أكن أرغب في ذلك، على الأقل وهي تنتظر إليّ، لكن بمجرد أن أدركت أنها لن تعطيني ظهرها، ثبت عيني على الأرض وأذعنت للمحنة، في البداية خلعت لي حذائي ونزعت جوربي؛ ثم ودون أي توقف، فكت حزامي، وأزرار بنطلوني وشدته، سقطت الملابس الداخلية إلى كاحلي في شدة واحدة، وهناك كنت أقف وعضوي مكشوف أمام امرأة ناضجة، وساقاي البيضاويان ملوثتان بعصيدة بنية وفتحة الشرج تفوح منها رائحة كريهة وكأنها زبالة عفنة. كانت بالتأكيد من اللحظات السيئة في حياتي، لكن مسز ويزرسبون بآريحية (وهو فضل لم أنسه قط) لم تصدر صوتا، لم تصدر أنفَ اشمنزاز، ولم تلهث. بكل عطف أم تحمّي رضيعها، غمست يديها في الماء وبدأت تنظيفي، ترش وتحك جلدي العاري حتى محت كل آثار العار.

قالت وهي تنشفني بمنديل سحبته من حقيبتها الحمراء المرصعة بالخرز: ”البعيد عن العين بعيد عن العقل“.

قلت: ”حسنا، لكن ماذا نفعل بهذه الملابس الداخلية القذرة؟“
”نتركها للطيور، هذا ما يجب، وينطبق الأمر على النباتات أيضا.“

”وتتوقعين أن أعود إلى البيت بهذا الشكل؟ دون أية هدمة على مؤخرتي؟“

”لماذا لا؟ ذيل قميصك يصل إلى ركبتيك، وعلى أية حال ليس هناك الكثير مما تحتاج إلى إخفائه. إننا نتحدث عن أمور ضئيلة جدا يا بني، جواهر تاج بلاد الأقزام.“

«لا تطعني فيما يخصني يا مدام، ربما تكون تافهة في نظرك، لكنني أزهو بها بالقدر نفسه».

«تزهو بها بالطبع، والعصفور الجميل يزهو بها يا والت، بتلك البندقتين وبالوركين الناعمين لبيني دُل. لديك كل ما يؤهلك لتكون رجلا»- وهنا، مما أذهلني بشكل هائل، أمسكت بالكتلة كلها في كفها وهزتها برفق- «لكنك لم تصبح رجلا بعد، وبالإضافة إلى ذلك لن يراك أحد في السيارة. لن نذهب إلى قاعة الآيس كريم اليوم وسنعود مباشرة إلى البيت، وإذا كان ذلك يجعلك أفضل، سادخلك المنزل من الباب الخلفي، ما رأيك في ذلك؟ أنا الوحيدة التي أعرف ذلك، ويمكنك أن تكون على يقين تام من أنني لن أقول لأحد أبداً».

«ولا حتى الأستاذ؟»

«وخاصة الأستاذ، ما حدث هنا اليوم سر بيني وبينك بشكل قاطع».

يمكن أن تكون هذه المرأة شخصية جيدة، وإذا وضعنا هذا الأمر في الاعتبار، كانت الأفضل، في أوقات أخرى، رغم ذلك، لم أعرف رأسها من ذيلها، بمجرد أن تعتقد أنها الصدر الحنون، تنقلب وتفعل شيئاً غير متوقع- تضايقتك، مثلاً، أو تزجرك، أو تتجاهلك- ويتحول العالم الصغير الجميل الذي تعيش فيه فجأة إلى عالم بغيض؛ كانت هناك أشياء كثيرة لا أفهمها، أشياء تتعلق بعالم الكبار تتجاوز إدراكي، لكنني بدأتُ تدريجيًا أفهم أنها كانت تتوق للأستاذ يهودي، كانت تنغمس في الكآبة وهي تنتظر قدومه، وإذا استمرت الأمور فترة أطول بكثير، ما كنت أشك في أن تنفجر غضبًا.

جاءت نقطة التحول بعد ليلتين من حادث التبرز، كنا نجلس على كراسي الحديقة في الفناء الخلفي، نشاهد اليراع يندفع إلى الشجيرات ويخرج منها ونستمع إلى صرار الليل يغني أغانيه الرنانة. كان ذلك بمثابة تسلية هائلة في تلك الأيام، حتى فيما يعرف بالعشرينيات الصاخبة، أكره فضح زيف الأساطير الشعبية، لكن لم ينتشر الكثير منها في ويتشيتا، وبعد شهرين من ترك ذلك الحصن الهادئ من أجل الصخب واللهو، استنفدنا الموارد المتاحة، شاهدنا كل الصور المتحركة، أكلنا كل أنواع الآيس كريم، لعبنا بكل ماكينات البنبول، وأخذنا دورة في كل مدن الملاهي، لم يعد الأمر يستحق جهد الخروج، ومرت ليال عديدة ونحن نجلس فقط، تاركين الخدر ينتشر في عظامنا مثل مرض قاتل، كنت أشفط كأساً من عصير الليمون الفاتر في تلك الليلة، على ما أتذكر، ومسز ويذرسيون في نوبة أخرى من نوبات سُكرها، ولم يكسر أحدنا الصمت لأكثر من أربعين دقيقة. قالت أخيراً، متتبعة مساراً غامضاً من مسارات التفكير: «اعتذتُ أن أعتقد، اعتدتُ أن أعتقد أنه أجراً جواديمكن أن يخرج من الإسطنبول».

أخذت رشفة من مشروبي، وتطلعت إلى النجوم في سماء الليل،
وتثاءبْتُ، قائلاً: «من؟»، ولم أبال بالتخلص من ضجري.

«من تظن يا سكير؟» كان كلامها متلعثماً ومن الصعب فهمه، لو
لم أكن أعرفها بشكل جيد لا اعتبرتها حمقاء غبية.

«أوه»، قلْتُ، مدركاً فجأة إلى أين تتجه المحادثة.

«أجل، ذلك الشخص، مستر بيردمان، ذلك هو الشخص الذي
أتحدث عنه».

«حسناً، إنه في حالة سيئة يا مدام، تعرفين ذلك، وكل ما نستطيع
أن نفعله هو أن نتمنى لروحه أن تبرأ قبل فوات الأوان».

«لا أتحدث عن روحه يا مغفل، أتحدث عن قضيبه، إنه لا يزال
لديه واحد، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك، لم أعتد أن أسأله عنه».

«حسناً، على الرجل أن يقوم بمهمته، لا يمكن أن يترك فتاة في
وضع صعب لشهرين ويتوقع أن يفلت من العقاب، لا تسير الأمور
بهذا الشكل، المرأة تحتاج إلى الحب، تحتاج إلى أن تدلل وتطعم،
بالضبط مثل أي حيوان آخر».

حتى في الظلام وليس هناك من يرى، شعرتُ بالخجل: «هل
أنت متأكدة من أنك ترغبين في أن تحدثيني عن ذلك يا مسز
ويذر سبون؟»

«ليس هناك شخص آخر يا حبيبي، وبالإضافة إلى ذلك، أنك كبير بما يكفي لأن تعرف هذه الأمور، ألا تريد أن تمارس الحياة مثل كل أولئك الأغبياء الآخرين، أليس كذلك؟».

«تصورت دائما أنني سأترك الطبيعة ترعى نفسها».

«أنت مخطئ، على الرجل أن يرعى جرة عسله، عليه أن يتأكد من أن السدادة محكمة وأنها لن تسمح بتسرب العصارة. هل تسمع ما أقول؟».

«أظن ذلك».

«تظن ذلك؟ أية إجابة غبية هذه؟»

«أجل، أسمعك».

«ليس لأنه لا تتوفر لي عروض أخرى، تعرف، أنني فتاة صغيرة بصحة جيدة، وأنا معتلة ومرهقة من الانتظار على هذا النحو، كنت أخدع نفسي طوال الصيف، ولن يحتمل أكثر، لا أستطيع أن أوضح الأمر أكثر من ذلك، أليس كذلك؟».

«ما سمعته؛ أنك بالفعل رفضت الزواج من الأستاذ ثلاث مرات».

«حسنا، تغيرت الأمور، أليس كذلك يا مستر مُدع؟»

«ربما تغيرت، وربما لا؛ لا أعرف».

كانت على وشك التحول إلى البشاعة، ولم أرغب في أي شيء من ذلك - أن أجلس وأستمع إلى حماقتها عن خيبة أمل فرجها، لم

أكن مستعداً للتعامل مع هذا النوع من المواضيع، ومنزِعْجاً كما لو كنت الأستاذ نفسه، لم يكن لدي قلب لأنضم إليها في الهجوم على رجولته. كان يمكن أن أنهض وأنصرف، على ما أظن، لكنها كانت ستبدأ الصراخ في وجهي، وبعد تسع دقائق يكون كل رجال شرطة ويتشيتاً معنا في الفناء، يسحبوننا إلى السجن بتهمة تعكير الهدوء.

وقد كان، لم أكن في حاجة إلى القلق، قبل أن تنطق بكلمة أخرى، انفجر صوت عال فجأة من داخل المنزل، أظن أنه كان صوت دوى أكثر مما هو صوت انهيار، انفجار طويل أجوف تبعه على الفور عدة ضربات مدوية: صفع، صفع، صفع، وكان الجدران على وشك الانهيار. لسبب ما رأيت مسز ويذرسيون ذلك ممتعا، ألقت برأسها إلى الخلف في نوبة ضحك، وفي الثواني الخمس عشرة التالية اندفع الهواء من حنجرتها مثل سرب من الجنادب الطائرة. لم أسمع ضحكة بهذا الشكل من قبل. بدت مثل واحدة من الأوبئة العشرة^(١)، مثل مائتي جن، مثل أربعمائة ضبع تجوب شوارع «كريزي تاون»، ومع استمرار الضربات، بدأت تصيح بأعلى صوتها. صرخت: «هل تسمع؟ هل تسمع، يا والت! إنها أنا! إنه صوت أفكارى، صوت الأفكار تثب في دماغي! مثل الفشار بالضبط يا والت! جمجمتي تكاد تنفلق إلى اثنتين! ها، ها! رأسي كله يكاد ينفجر إلى أشلاء!» حينذاك بالضبط، حل مكان الضربات صخب تكسير زجاج، انكسر أول شيء ثم الثاني: أكواب، مرايا، قنينات، وابل صم الأذن،

(١) الأوبئة العشرة: الإشارة إلى الأوبئة العشرة التي اجتاحت مصر كما وردت في العهد القديم، أو ما يعرف بالأوبئة التوراتية، وقد ورد ذكرها في سفر الخروج من الإصحاح السابع إلى الثاني عشر.

كان من الصعب معرفة ما يحدث، لكن كل شيء كان يتحطم بشكل مختلف، واستمر الأمر لوقت طويل، قد أقول لأكثر من دقيقة، وبعد الثواني القليلة الأولى كانت الجلبة في كل مكان، كان الليل كله يصرخ بصوت الزجاج المحطم. دون حتى أن أفكر، قفزتُ على قدمي وعدت باتجاه المنزل، حاولت مسز ويدرسيون أن تتبعني، لكنها كانت سكرانة بدرجة لا تجعلها تتحرك مسافة كبيرة، كان آخر ما يمكن أن أتذكره أن أنظر خلفي وأرى عثرتها- انبطحت على وجهها، بالضبط مثل مدمن في الرسوم الهزلية، أطلقت صرخة، ثم - مدركة أنه لا جدوى من محاولة النهوض- بدأت في نوبة أخرى من القهقهة، تركتها على هذا النحو: تتدحرج على الأرض وتضحك، مفرغة أحشاءها المسكينة الممتلئة بالخمور على كل أرجاء الحديقة.

الفكرة الوحيدة التي ومضت في رأسي أن شخصًا اقتحم المنزل وهجم على الأستاذ يهودي؛ لكنني حين دخلت من الباب الخلفي وبدأت أتسلق السلالم، ساد الهدوء مرة أخرى. بدا ذلك غريبًا، والأكثر غرابة ما حدث بعد ذلك. سرّْتُ في الردهة إلى غرفة الأستاذ، وطرقت الباب بتردد، وسمعته يناديني بصوت طبيعي واضح تمامًا: «ادخل». وهكذا دخلت، وكان هناك الأستاذ يهودي نفسه، يقف في روب الحمام وشبشب في وسط الغرفة، ويداه في جيوبه وعلى وجهه ابتسامة ضئيلة تنم عن فضول، كان كل ما حوله محطما، السرير عشر قطع، والجدران مثقوبة، ومليون ريشة بيضاء تسبح في الهواء، أطر لصور محطمة، زجاج محطم، مقاعد محطمة، أجزاء محطمة من أشياء غير معروفة- كلها مُلقاة على الأرض مثل الأبقاض. سمح لي بثانيتين لأستوعب ما أرى، ثم تكلم، يخاطبني بهدوء رجل خرج للتو من حمام دافئ،

قال: «مساء الخير يا والت. ماذا أتى بك إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة؟»

قلت: «الأستاذ يهودي، هل أنت بخير؟»

«بخير؟ بالطبع إنني بخير، ألا أبدو بخير؟»

قلت مُشيرًا على الدمار تحت قدمي: «لا أعرف، أجل، حسنا، ربما تبدو بخير، لكن هذا، ماذا هذا؟ لا أستوعب، المكان يعج بالفوضى، إنه محطم تماما».

«تمرين في التطهر يا بني».

«تمرين في ماذا؟»

«لا بأس، إنه نوع من طب القلوب، بلسم للأرواح المعتلة».

«هل تعني أنك تخبرني بأنك فعلت كل هذا بنفسك؟»

«كان ينبغي أن يحدث؛ أسف على الفوضى، لكن كان ينبغي أن يحدث ذلك عاجلا أو آجلا».

من الطريقة التي نظر بها إليّ، شعرتُ أنه عاد إلى ذاته القديمة المفعمة بالحياة، استعاد صوته نبرته المتغطرة، وبدا أنه يخلط العطف والتهكم بالبراعة القديمة المألوفة، قلت وأنا لا أجرو على التمني: «هل يعني ذلك، هل يعني ذلك أن الأمور ستكون مختلفة الآن؟»

«إننا مضطرون إلى تذكر الموتى؛ إنه قانون جوهري، إذا لم نتذكرهم، فسوف نفقد الحق في أن نصف أنفسنا بالإنسانية، هل توافقني يا والت؟»

«نعم، يا سير، أوافقك، لا يمر يوم لا أتذكر فيه حبيبينا العزيزين وما حدث لهما؛ إن ذلك مجرد..».

«مجرد ماذا يا والت؟»

«لكن ذلك الوقت يضيع، ومن الظلم ألا نفكر في أنفسنا أيضاً.»

«لك عقل ذكي يا بني، ربما لا يزال هناك أمل بالنسبة لك.»

«لا يتعلق الأمر بي فقط، تفهم؛ هناك مسز ويذرسبون أيضاً، تصرفت في الأسبوعين الأخيرين بشكل هستيري تماماً. إذا لم تخذعني عيناى الآن، أعتقد أنها فقدت الوعي في الحديقة، وأنها تغط في بركة من قيئها.»

«لن أعتذر عن أمور ليست في حاجة إلى اعتذار، فعلت ما ينبغي عليّ، واستغرق ما استغرق، الآن يبدأ فصل جديد. فرت العفاريث، وانقشعت ظلمة ليل الروح»، سحب نفساً عميقاً، وأخرج يديه من جيوبه، وقبض على كتفي بقوة: «ماذا تقول أيها الفتى؟ هل أنت مستعد لتفرجهم على أعمالك؟»

«مستعد يا ريس، تأكد من أنني مستعد، جهز مكاناً فقط لي وأنا أفعلها، وأنا ولدك إلى أن يفرق الموت بيننا.»

قدمت

أول عرض عام في ٢٥ أغسطس ١٩٢٧، وظهرت باسم والت الولد العجيب لحجز لعرض واحد في معرض مقاطعة باوني في لارند بولاية كانساس، كان من الصعب أن أتخيل ظهوراً أول أكثر تواضعاً، لكن كما تبين، كاد أن يكون عرضي الأخير. لم يكن ذلك لأنني أديت العرض بشكل سيئ، بل لأن الجمهور كان فظاً جداً ووضيعةً، مليئاً بالسكراري والصائحين، ولولا تصرف الأستاذ بذكاء ربما لم أعش لأرى يوماً آخر.

احاطوا بالحبال حقلاً على الجانب الآخر من معارض البساتين، بجوار الأكوشاك ومعهم كيزان ذرة ضخمة وبقرة برأسين وخنزير وزنه ستمائة رطل، وأتذكر أننا سرنا ما يقرب من نصف ميل قبل الوصول إلى بركة صغيرة بها ماء أخضر قاتم وزبد أبيض يطفو على السطح، أذهلتني بشاعة المكان لتقديم هذا الحدث التاريخي، لكن الأستاذ أراد أن أبدأ صغيراً، بأقل قدر ممكن من الضجة والصخب. قال لي ونحن ننزل من سيارة مسز وينر سبون: «حتى تي كوب»^(١) لعب في دوري الأحراش. عليك أن تؤدي بعض العروض تحت المستوى الذي تراهن عليه. أدّ بشكل جيد هنا، وسنبدأ الحديث عن ازدهار عظيم خلال بضعة أشهر».

ولسوء الحظ لم يكن هناك مدرج للمتفرجين، مما أدى إلى قدر كبير من إرهاق السيقان والشكاوي بالتأكيد، ومع تذاكر بعشرة سنتات، كان الجمهور يشعر بالخداع قبل أن أدخل، لم يكن هناك أكثر من ستين أو سبعين من مجموعة من الأجلاف الأغبياء

(١) تي كوب (١٨٨٦-١٩٦١): لاعب بيسبول أمريكي شهير، حقق أرقاماً قياسية في عدة بطولات كبرى.

يرتدون أفرولات وقمصاناً من القطن- كانوا مندوبين من المؤتمر الدولي الأول للمتخلفين، وكان نصفهم يتجرعون خموراً رديئة من قنينات بنية صغيرة لأدوية الكحة وانتهى النصف الآخر من قنيناتهم ويتوقون للمزيد. حين خطا الأستاذ يهودي إلى الأمام في سترة سوداء وقبعة من الحرير ليعلن للعالم عن العرض الأول لوالث الولد العجيب، بدأ التعليق والجدل. ربما لم تعجبهم ملابسه، وربما اعترضوا على لهجته، لهجة بروكلين بودابست، لكنني متأكد من أنه لم يصلح من الأمر أن أرتدي أسوأ الأزياء في سجلات صناعة الترفيه: روبا أبيض طويلاً جعلني أبدو مثل قزم يوحنا المعمدان، يكتمل بصندل من الجلد وحزام من خيوط القنب مربوط حول خصري، أصر الأستاذ على ما يسميه «مظهر من العالم الآخر»، لكنني بدوت مثل أحرق في ذلك الشكل، وحين سمعت مهرجاً يصيح بأعلى صوته — «والث الفتاة العجيبة» — أدركت أنني لا أشعر بذلك وحدي.

إذا كانت الشجاعة قد واثنتني لأبدأ، فقد كان ذلك بسبب أيسوب فقط، كنت أعرف أنه ينظر إلى من حيثما كان، ولن أخذه، كان يعتمد على لأتألق، ومهما ظن بي هؤلاء الرعاع الحمقى السكارى، فإنني أدين لأخي بتقديم أفضل ما أستطيع، سرتُ إلى حافة البركة واستغرقت فرد الذراعين والنشوة، مكافئاً لتجاهل الصغير والإهانات، سمعتُ بعض التآوهات والآهات حين ارتفع جسمي عن الأرض- لكن بشكل مبهم، بشكل مبهم فقط، لأنني بالفعل كنت في عالم منفصل، منفصلاً عن الصديق والعدو أيضاً في مجد صعودي، كان أول عروضي على الإطلاق، لكنني كنت أبدو بالفعل مثل شرطي، وأنا متأكد من أنني يمكن أن أتغلب على الجمهور لولا الأحرق الذي أخذ على نفسه أن يقذف قنينة

باتجاهي، تسع عشرة مرة من عشرين، تسبح القذيفة بجواري دون أن تصيبني بأذى، لكنه كان يوم الرميات والمحاولات الخطأ، وقذف ذلك الشيء اللعين بعض الشراب في الرأس، أفسدت الضربة تركيزي (ناهيك عن فقد الوعي)، وقبل أن أعرف رأسي من قدمي، كنت أغطس مثل حقيبة ثقيلة إلى قاع المياه، لو لم يكن الأستاذ يقف على أطراف أصابعه ليغوص خلفي دون أن يبالي بخلع معطفه وثيابه الرسمية، ربما غرقت في تلك الحفرة القذرة الموحلة، لتكون أول صفقة وآخر صفقة ألتقاها.

وهكذا غادرنا لارند في خزي، منطلقين خارجها وأولئك البلهاء المتعطشون للدماء يقذفوننا بالبيض والحجارة والبطيخ، وبدا أن لا أحد اهتم باقترابي من الموت نتيجة تلك الضربة في الرأس، وواصلوا الضحك والأستاذ الرائع ينقذني من السكارى ويحملني إلى الأمان في سيارة مسر ويدرสบون. كنت لا أزال فيما يشبه الهذيان من زيارتي لقاع البركة، وسعلت وتقيأت على قميص الأستاذ وهو يجري عبر الحقل وجسمي المبلل يرتعد في ذراعيه، لم أسمع كل ما قيل، لكن وصل ما يكفي إلى أذني لأعرف أن الآراء بشأننا انقسمت بحدّة. تبنى البعض النظرة الدينية، مؤكدين بوقاحة أننا متحالفون مع الشيطان، ووصفنا آخرون بأننا مشعوذون ودجالون، وهناك آخرون لم يكن لهم رأى على الإطلاق. كانوا يصيحون لمتعة خالصة في الصباح، سعداء فقط لمجرد كونهم جزءاً من الأذى وهم يندفعون بصرخات غضب غير مصحوبة بكلمات، ولحسن الحظ، كانت السيارة في انتظارنا في الجانب الآخر من المنطقة المحاطة بالحبال، ونجحنا في دخولها قبل أن يلحق بنا الأجلاف، اصطدمت بضع بيضات في الزجاج الخلفي ونحن ننطلق بالسيارة، لكن الزجاج لم يتحطم، ولم تدوْ طلقات، وعموماً أظن أننا كنا محظوظين بالهروب بجلدنا.

لابد أننا سرنا ميلين قبل أن يجد أحدهما الشجاعة لينطق بكلمة، كنا في المزارع والمراعي، قطع شارعاً جانبياً وعراً في ثيابنا المنقوعة في المياه لدرجة التشبع. مع كل رجة من السيارة، تندفع دفقة أخرى من ماء البركة وتسقط على المقاعد الجلدية الفاخرة في سيارة مسز ويذرسمون، يبدو الأمر مضحكاً وأنا أرويه الآن، لكنني لم أكن لأغرى بالضحك إطلاقاً حينذاك، كنت أجلس هناك فقط مُنهكاً في المقعد الأمامي، محاولاً السيطرة على مزاجي وأتصور الخطأ الذي حدث، رغم أخطاء الأستاذ وسوء تقديره، لم يبد من الإنصاف أن أوجه له اللوم، كان غارقاً في أشياء كثيرة، وكنت أعرف أن الأمر لم يكن كما ينبغي إطلاقاً، لكن غلطتي أنني وافقته، ما كان ينبغي قط أن أسمح لنفسني بالاندماج في مثل هذه العملية التي تم تقييمها والتخطيط لها بشكل سيئ، كان هدفي على الخط هناك، وكان على أن أتذكر أن حمايته مسئوليتي.

قال الأستاذ باذلاً أقصى ما يستطيع ليرسم ابتسامة: «جسناً يا رفيق، مرحباً بك في عالم الترفيه».

قلت: «لم يكن عالم ترفيه، ما حدث هناك كان هجوماً واعتداءً، يشبه الدخول في كمين والصلح».

«إن التعامل مع الجمهور فظاظة وفوضى، يا بني. بمجرد رفع الستارة، لا تعرف أبداً ما يحدث».

«لا أقصد أن أكون قليل الأدب يا سيدي، لكن هذا الكلام ليس إلا هراء».

قال، مستمتعا بردي الشجاع: ”أوه هُو؛ الفتى الصغير في نوبة غضب، وأي كلام تفترض أن ننهمك فيه يا مستر رولي؟“

”حديث عملي يا سير، حديث يجعلنا نتوقف عن تكرار أخطائنا.“
”لم نرتكب أخطاء، واجهنا فقط جمهوراً رديئاً، هذا كل ما في الأمر، أحياناً تكون محظوظاً، وأحياناً لا تكون.“

”لا علاقة لهذا بالحظ؛ فعلنا اليوم الكثير من الأمور الغبية، ودفعنا الثمن في النهاية.“

”أظن أنك كنت ممتازاً، لولا القنينة الطائرة لكان نجاحاً عظيماً.“
”حسناً، لأمر ما، أود بصدق أن أتخلص من هذه الثياب؛ إنها تتعلق بأفزع جزء رأيت على الإطلاق للفت أنظار الجمهور، لسنا في حاجة إلى زخارف تتعلق بالعالم الآخر، ينال العرض قدرًا كافيًا من هذا بالفعل، ولا نريد أن نربك الناس بارتداء ملابس مَلَك غريب – إنها تنفرهم – تجعلني أبدو وكأنني أفترض أنني أفضل منهم.“
”أنت أفضل يا والت، لا تنسَ ذلك أبدًا.“

”ربما يكون الأمر كذلك، لكن بمجرد أن نشعرهم بذلك نغرق، كانوا ضدي حتى قبل أن أبدأ.“

”لا علاقة للملابس بذلك، كانوا جماهير من السكارى، ملوثين حتى النخاع، حُولا، لم يروا حتى ما فعلته.“

”أنت أفضل المعلمين يا أستاذ، وأنا ممتن حقًا لك لإنقاذ حياتي اليوم، لكن في هذه النقطة الخاصة، أنت مخطئ بقدر ما يخطئ أي

إنسان، تفوح من الملابس رائحة كريهة، آسف أن أكون فظا بهذا الشكل، لكنني لن أرتديها مرةً أخرى مهما صحت في وجهي“.

”لماذا أصبح في وجهك؟ إننا معًا في هذا يا بني، وأنت حر في التعبير عن آرائك، أخبرني بما عليك أن تفعله“.

”على مستوى؟“

”رحلة العودة إلى ويتشيتا طويلة، ولا مبرر لمناقشة هذه الأمور الآن“.

قلت، قافزًا خلال الباب الذي فتحه لي للتو: ”لا أريد أن أتذمر، لكن هكذا أرى الأمر، لن يسعى إلينا الناس إلا إذا كسبنا من البداية، هؤلاء الحمقى لا يحبون أي شيء فاجر، لم يعتادوا على البذلة الفخمة التي ترتديها، ولم يعتادوا على ملابس الشواذ التي أرتديها، وكل هذه المبالغات التي دفعتهم إليها في البداية- لم تحتملها عقولهم“.

”لم يكن إلا هراء، علينا فقط أن ندخلهم في حالة مزاجية مناسبة“.

”بصرف النظر عما تقول، كيف نتجنب ما حدث مستقبلاً؟ ليكن الأمر بسيطاً وشعبياً، تعرف شيئاً مثل ”سيداتي وساداتي، أتشرف بأن أقدم“، ثم تراجع وتجعلني أتقدم، إذا ارتديت بدلة قديمة عادية من القطن وقبعة جميلة من القش، لن ينزعج أحد، سوف يعتقدون أنك شخص ودود طيب القلب خرج ليكسب رزقه بشرف، هذا هو المفتاح، الأمر كله. تجولت أمامهم مثل فلاح صغير مندهش لا يعرف شيئاً في أفروول من القطن وقميص من الصوف، دون حذاء، دون جورب، شخص تافه حافٍ مثلهم، مثل أبنائهم وأبناء

إخوتهم، يلقون نظرة عليّ ويسترخون كأنني فرد من العائلة، وحين أبدأ الارتفاع فيها في الجو، تخذلهم قلوبهم، الأمر بهذه البساطة. هذتهم، وفاجئهم بالضربة؛ ذلك جيد بالضرورة دقيقتان في العرض، وسوف نروضهم تمامًا“.

استغرقت الرحلة إلى البيت ثلاث ساعات تقريبًا، تكلمت طوال الطريق، معبرًا عن رأيي للأستاذ بطريقة لم أمارسها من قبل، تناولت كل ما أفكر فيه- من الملابس إلى الموقع، من الحصول على التذاكر إلى الموسيقى، من عدد مرات العرض إلى الدعاية- وتركني أتكلم، لم يطرح أسئلة، ربما كان حتى مرّوًا بعض الشيء من آرائ الشاملة القوية، لكنني كنت عصر ذلك اليوم أقاتل من أجل حياتي، ولم يكن من المفيد أن أعثر على سبب لأتوقف وأخفف من وقع الكلمات، ألق الأستاذ يهودي بسفينة مليئة بالثقوب، وبدل أن يحاول سد هذه الثقوب والمياه تندفع وتغرقنا، كنت أريد أن أسحب السفينة إلى الميناء وأعيد بناءها من الألف إلى الياء، استمع الأستاذ إلى أفكاري دون أن يقاطعني أو يسخر مني، وفي النهاية استسلم لمعظم النقاط التي أثيرتها، لم يكن من السهل بالنسبة له أن يتقبل فشله مُخرّجًا استعراضيًا، لكن الأستاذ يهودي كان يريد أن تسيّر الأمور كما أريد، وكان كبيرًا بما يكفي لأن يعترف بأنه أخذنا في المسار الخطأ. ولا يرجع ذلك إلى أنه لم تكن لديه خطة، لكنها كانت خطة عتيقة، تتلاءم أكثر مع الأسلوب السخيف الذي نشأ عليه، أسلوب ما قبل الحرب، أكثر مما تتلاءم مع قفزة العصر الجديد ولغته. كنت أبحث عن شيء حديث، شيء سلس ورائع ومباشر، وتدرجيا نجحت في إقناعه، بدفعه إلى مقارنة مختلفة.

لكنه رفض أن يتبع هذه المقاربة في مسائل معينة، كنت حريصًا على نقل العرض إلى سانت لويس والاستعراض أمام بلدتي القديمة، لكنه قتل هذا الاقتراح في مهده، قال: ”هذه أخطر منطقة على وجه الأرض بالنسبة لك، وحين تعود إلى هناك، توقع وثيقة موتك. تذكر كلماتي. سانت لويس علاج سيئ، مكان سام، ولن تخرج من هناك حيا على الإطلاق“. لم أستطع أن أفهم هذا العنف، لكنه تحدث مثل شخص عقله مبرمج، ولم تكن هناك وسيلة لمقاومته. وكما تبين، ثبت أن هذه الكلمات في الصميم. بعد شهر فقط من نطقه بها، ضرب سانت لويس أسوأ إعصار في القرن. اجتاح الإعصار البلدة مثل قذيفة من الجحيم، وبعد أن اجتاحتها بخمس دقائق، انهار ألف مبنى ومات مائة شخص، واستلقى ألفان آخران يتضورون وسط الدمار بعظام مكسورة ودماء تتدفق من جروحهم. كنا في طريقنا إلى مدينة فيرنون في ولاية أوكلاهوما، في المحطة الخامسة في رحلة من أربع عشرة محطة، حين التقطت الطبعة الصباحية من جريدة محلية ورأيت الصور في الصفحة الرئيسية، تقيأت إفطاري تقريبًا. اعتقدت أن الأستاذ فقد لمسته، لكن مرة أخرى أسأت الظن به، كان يعرف أشياء لا يمكن أن أعرفها، ويسمع أشياء لا يمكن أن يسمعها غيره، ولا يمكن أن يكون في العالم ند له. كلما شككت في كلماته مرة أخرى، قلتُ لنفسِي، ليخسف بي الرب الأرض ويبعثر جثتي للخنازير.

لكنني أسير بسرعة كبيرة جدًا. لم يأت الإعصار إلا في سبتمبر، وكنا لا نزال في الخامس والعشرين من أغسطس، لا أزال أنا والأستاذ يهودي نجلس في ملابسنا الرطبة، ولا نزال في طريق

العودة إلى منزل مسز ويذرسيون في ويتشيتا، بعد محادثتنا الطويلة عن تعديل العرض، بدأت أشعر ببعض التحسن في آرائنا، لكنني لا أستطيع أن أبالغ كثيرًا وأقول: إن عقلي كان في حالة طيبة تمامًا. كان إسدال الستار على سانت لويس أحد الأمور، اختلاف بسيط في الآراء، لكن أزعجتني أمور أخرى بشكل أكثر عمقا، يمكنك أن تسميها أخطاء جوهريّة في الترتيب، وقد عريت روحي كثيرًا جدًا، تصورت أن عليّ أن أمضي إلى النجاح. وهكذا انهمكت فجأة وطرحت موضوع مسز ويذرسيون. لم أجروا أن أتكلّم عنها من قبل، وكنت أمل ألا يتراجع الأستاذ ويوبخني.

قلت، مُتقدّمًا بأقصى ما أستطيع من حذر: "ربما يكون أمرًا لا يخصني، لكنني لا أفهم حتى الآن لماذا لم تأت مسز ويذرسيون معنا".

قال الأستاذ: "لم ترغب في أن تكون معنا، تظن أنها قد تنحسنا".
"لكنها سدننا، أليس كذلك؟ هي التي تدفع الفاتورة، اعتقدت أنها ترغب في أن تلازمنا وتراقب استثمارها عن قرب".
"إنها ما يسمونه الشريك الصامت"^(١).

«صامت؟ إنك تضحكني يا ريس، هذه السيدة تكاد تكون أكثر صخبًا من قسم في مصنع للسيارات. يمكنها أن تمضغ أذنك وتبصقها قطعًا قبل أن تستقبل كلمة».

«في الحياة، نعم لكنني أتكلّم عن العمل، في الحياة لا شك في أن لها لسانًا لا يتوقف، لن أجادلك في ذلك».

(١) الشريك الصامت: من يشارك بأمواله في مشروع ولا يشارك في إدارته.

«لا أعرف مشكلتها، لكن طوال الأيام التي كنت لا تعمل فيها، فعلت أشياء غريبة وبشعة، لا أقول: إنها سيئة، لكنني تعصبت أحياناً وأنا أراها تتصرف على ذلك النحو».

«كانت في حالة ذهول، لا تستطيع أن تلومها يا والت، كان عليها أن تستوعب بعض الأمور الفظة في الشهور الماضية، وهي أضعف بكثير مما تظن، عليك فقط أن تكون صبوراً معها».

«ذلك بالضبط ما قالتَه عنك».

«إنها امرأة بارعة، ربما متوترة بعض الشيء، لكنها ذكية وطيبة».

«أخبرتني الأم سيوكس- لتسترخ روحها في سلام ذات مرة بأنك كنت تخطط للزواج منها».

«كنت، ولم أعد، ثم كنت، ولم أعد؛ الآن من يعرف. إذا كانت السنوات علمتني شيئاً يا بني، فهو أن أي شيء يمكن أن يحدث، حين يتعلق الأمر بالرجال والنساء كل الرهانات مستبعدة».

«أجل، إنها امرأة لعوب، أسلم معك بذلك، بمجرد أن تظن أنك قيدتها، تتخلص وتقر إلى المرعى التالي».

«بالضبط، وهو ما يفسر أن من الأفضل أحياناً ألا تفعل شيئاً، إذا اكتفيت بالوقوف والانتظار، هناك فرصة ليأتي ما تتمنى».

«ذلك عميق جداً بالنسبة لي يا سيدي».

«لست الوحيد في ذلك يا والت».

«لكن إذا حدث وارتبطت بها، أظن أن الأمور لن تسير بسلاسة كبيرة».

«لا تقلق بشأن ذلك، ركز في عملك فقط، واترك أمر الحب لي، لا أريد نصيحة من أحد، إنها أغنيتي، وسأغنيها بطريقتي».

لم تواتني القدرة لأدفع الأمر أكثر من ذلك، كان الأستاذ يهودي عبقرى وساحراً، لكن كان يبدو لي بوضوح أنه لا يفهم شيئاً عن النساء. كنتُ مطلعا على أعمق أفكار مسز ويذرسيون، استمعتُ في أحيان كثيرة إلى أسرارها البذيئة وهي مخمورة، وعرفت أن الأستاذ لن يستطيع الانسجام معها إذا لم يتصرف بشجاعة وحزم، لا ترغب في التواني، ترغب في أن تَقْتَحِمَ وتَفْتَحَ، وستكون فرصته أسوأ كلما طال ترده. لكن كيف أخبره بذلك؟ لا أستطيع، لا أستطيع إن كنت أعرف قدر نفسي، وهكذا ظل فمي مغلقاً، وتركت الأمور تسير، قلت لنفسي: إنها إوزته اللعينة، وإذا عزم بشدة على طهيها، من أكون لأقف في طريقه؟

وهكذا عدنا إلى ويتشيتا وانشغلنا بوضع الخطط لبداية جديدة، لم تنطق مسز ويذرسيون بكلمة عن بقع المياه على المقاعد، لكنني أفترض أنها اعتبرتها من نفقات العمل، جزءاً من المخاطرة حين تضع عينيك على كسب مبالغ كبيرة، استغرق الأمر حوالي ثلاثة أسابيع للانتهاء من الاستعدادات- جدولة العروض، وطباعة الإعلانات التي توزع باليد والملصقات، والتدريب على النظام الجديد- وأثناء ذلك الوقت اندمج الأستاذ ومسز ويذرسيون معاً تماماً، في علاقة غرامية أكثر بكثير مما توقعتُ، اعتقدت أنني ربما كنت مخطئاً تماماً، وأن الأستاذ يعرف بالضبط ما يفعله. لكننا، يوم السفر، اقترفنا خطأ، خطأ تكتيكياً فاضحاً كشف ضعف استراتيجيته العامة، رأيت الخطأ بعيني، وأنا أقف في الرواق، والأستاذ والخليلة يودع كل منهما الآخر، وكان ما رأيته مؤلماً، فصلاً صغيراً محزناً في قصة الحسرة.

قال: «فترة طويلة جدا يا أخت، سنراك بعد شهر وثلاثة أيام»، وقالت: «تذهبان يا أولاد- إلى تلك البرية الموحشة»، وساد بعد ذلك صمت رهيب، وحيث إن الأمر ضايقني، فتحتُ فمي للثرثار وقلتُ: «ماذا تقولين يا مدام؟ لماذا لا تقفزين إلى السيارة وتأتين معنا؟».

رأيت عينيها تسطعان حين قلتُ ذلك، وبالضبط كما أن كلمة «دوج» (كلب) هي نفسها كلمة «جود» (رب) حين نتهاجها بالعكس، كانت على استعداد للتخلي عن ست سنوات من عمرها لتلقي بكل شيء وتسافر، التفتتُ إلى الأستاذ وقالتُ: «ما رأيك؟ ينبغي أن آتي معكما أم لا؟» لكنه، بغروره المعتاد، ربت على كتفها وقال: «براحتك يا عزيزتي»، اغرورقت عيناها لثانية، لكن حتى حينذاك لم يضع كل شيء، لا تزال آمله في سماع كلمات مناسبة منه، انطلقت مرة أخرى وقالت: «لا، قرر أنت، لا أريد أن أكون عقبة في الطريق». وقال: «أنت حرة يا ماريون، ليس لي أن أحدد ما ترغبين فعله». وانتهى الأمر، رأيت النور يخبو في عينيها؛ وتقلص وجهها إلى تعبير متوتر ساخر؛ ثم هزت كتفها وقالت: «لا تبال، هنا الكثير جدا مما ينبغي عمله على أية حال». ثم دفعت ابتسامة شجاعة ضئيلة إلى شفتيها وأضافت: «أرسل إليَّ بطاقة بريدية حين تسنح لك الفرصة، آخر ما سمعتُ، لا تزال البطاقة بينس».

وكان يا ما كان، كانت هناك فرصة العمر، وضاعت إلى الأبد، تركها الأستاذ تفلت من بين أصابعه، وكان أسوأ ما في الأمر أنني لا أعتقد حتى أنه أدرك ما فعل.

سافرنا في سيارة مختلفة في هذه المرة- فورد سوداء مستخدمة اشترتها مسز ويذرسيون لنا بعد عودتنا من لارند، سمّتها السيارة العجيبة، وحيث إنها لا تُضاهي السيارة الكريسler في الحجم والمرونة، كانت تفعل كل ما يُطلب منها. انطلقنا في صباح ممطر في منتصف سبتمبر، وعلى بعد ساعة من ويتشيتا، نسيت بالفعل ما شاهدته في الرواق مما يتعلق بلمسات القلوب والزهور. ثبتت أشعة عقلي على أوكلاهوما، أول ولاية حجزت للرحلة، وحين دخلنا ريديبرد بعد يومين، كنت مستثارة مثل جاك في الصندوق^(١) وأكثر جنونا من قرد. قلتُ لنفسِي: سينجح العرض هذه المرة، نعم يا سيدي، من هنا يبدأ كل شيء، حتى اسم المدينة أذهلني بوصفه فالأ طيبًا، وحيث إنني لم أكن إلا شخصًا يؤمن بالخرافة في تلك الأيام، كان للاسم تأثير قوى على روعي المعنوية. ريديبرد، بالضبط مثل نادي البيسبول الذي أشجعه في سانت لويس، رفاقي القدامى الأعزاء، الكاردينال.

كان العرض نفسه في ملابس جديدة، لكن بدا كل شيء مختلفًا إلى حد ما، وقد أعجبوا بي للوهلة الأولى- مما يعني أنني كسبت نصف المعركة. قدمني الأستاذ يهودي بأفضل ما يكون، كانت ملابس هوك فين^(٢) التي أرديها الكلمة الأخيرة في التقليل من الشأن، وعموما بهرنا الجمهور تمامًا، أغمى على ست نساء أو سبع، صرخ الأطفال، وحبس الكبار أنفاسهم غير مصدقين، لثلاثين دقيقة أبقيتهم مسحورين، يثبون ويهبطون في الجو،

(١) جاك في الصندوق: لعبة أطفال عبارة عن صندوق يظهر منه فجأة نموذج لشخصية عند رفع الغطاء.

(٢) هوك فين Huck Finn: ولد مؤذ في رواية لمارك توين.

يراقبون جسمي الضئيل على سطح بحيرة واسعة متلألئة، وفي النهاية، مندفعاً إلى ارتفاع قياسي مقداره أربعة أقدام ونصف؛ أصبح عائدًا إلى الأرض بنجاح، كان الاستحسان مدويًا بانتشاء. هتفوا وصرخوا، قرعوا الأواني والمقالي، قذفوا قصاصات ملونة في الهواء، كانت أول مرة أذوق فيها طعم النجاح، وقد أحببته، أحببته بطريقة لم أحب بها شيئاً من قبل ومن بعد.

دنبار وباتيس. جامبو وبلانكتسفيل. بيكنز وموز وبيت إيل. وبانوكا. بوجي ديبوت وكنجفيسر. جيرتي ورنجلينج، وماربل سيتي. لو كان فيلمًا، لبدأت صفحات النتيجة تتطاير من على الحائط. نراها ترفرف على خلفية من الطرق الريفية والعشب، لتومض أسماء هذه البلدات ونحن نواصل التقدم بالفورد السوداء عبر خريطة شرق أوكلاهوما، وتكون الموسيقى عذبة مليئة بالحيوية، انفجار قصير يقلد صخب رنين آلات النقود، لقطة بعد لقطة، وكل منهما تذوب في الأخرى. سلال كبيرة تمتلئ حتى الحواف بقطع العملة، وبيوت من طابق واحد على جانب الطريق، أيد متشابكة وأقدام تدق، أفواه مفتوحة، ووجوه جاحظة العيون تحديق في السماء، يستغرق كل هذا التسلسل عشر ثوانٍ تقريبًا، وحين ينتهي، تكون قصة ذلك الشهر قد عُرِفَتْ لكل شخص في المسرح. أه الوسائل القديمة للخداع في هوليوود، ليس هناك ما يشبهه بالنسبة للأشياء المندفعة حولنا، ربما لا يكون دقيقًا، لكنه يؤدي الغرض.

مراوغات الذاكرة كثيرة جدًا، إذا فكرتُ في الأفلام الآن فجأة فقد يرجع ذلك إلى أنني رأيت الكثير منها في الشهر الذي تلا ذلك، بعد انتصار أوكلاهوما، لم يعد الحجز مشكلة، وقضيتُ أنا والأستاذ

معظم وقتنا على الطريق، ننتقل من موضع إلى آخر، عرضنا في تكساس وأركانساس ولويسيانا، متوغلين أكثر وأكثر في الجنوب مع قدوم الشتاء، وكنت أميل إلى ملء وقت الفراغ بين العروض بزيارة دار سينما محلية لإلقاء نظرة خاطفة على آخر الأفلام، كان الأستاذ مشغولاً عادة- كان يتباحث مع مدراء المعارض وباعة التذاكر، وتوزيع الإعلانات والملصقات في البلدة، ضبط المسائل الأساسية للعرض التالي - مما يعني أنه كان من النادر أن يكون لديه وقت للذهاب معي، وكنت - غالباً - أعود لأجده وحيداً في الغرفة، يجلس في مقعد يقرأ كتابه، كان الكتاب نفسه دائماً- مجلداً أخضر صغيراً بالياً يحمله في كل أسفارنا- صار أليفاً بالنسبة لي مثل خطوط وجهه وملامحه. كان من المدهش أنه باللاتينية، واسم المؤلف سيبينوزا، تفاصيل لم أنسها قط، حتى بعد كل تلك السنوات، حين سألت الأستاذ عن السبب الذي يجعله يواصل دراسة هذا الكتاب مرات ومرات، قال لي لأنه لا يستطيع أبداً أن يسبر أغواره، قال: كلما تعمقت فيه، يكون هناك الأكثر، وكلما كان هناك الأكثر، تستغرق قراءته وقتاً أطول. قلت: «كتاب سحري، لا ينتهي أبداً».

«أجل، نافورة، لا يُستنفذ، تشرب النبيذ وتضع الكأس على الطاولة، عجبي، تمد يدك إلى الكأس مرة أخرى لتكتشف أنها لا تزال ممتلئة».

«وهذا هو أنت، سكران مثل مخادع بثمان كأس واحدة».

قال، متحولاً فجأة من النظر إلى التحديق من النافذة: «لا يمكن أن أعبر عن الأمر أفضل من ذلك. تسكر بالعالم، يافتي، تسكر بسر العالم».

يا يسوع، لكنني كنت سعيداً على الطريق معه، مجرد التنقل من مكان إلى آخر كان كافياً لرفع روعي المعنوية، لكن حين تضيف كل المكونات الأخرى - الجماهير، العروض، الأموال التي كسبناها - من المؤكد أن تلك الشهور الأولى كانت أفضل الشهور التي قضيتها في حياتي، حتى بعد انتهاء الإثارة الأولى والتعود على الروتين، لم أكن أريد التوقف، لم تكن الأسرّة المنبجعة، والإطارات المنبسطة، والطعام الرديء، وكل المنافسات والخمول وفترات الملل شيئاً بالنسبة لي، لم تكن إلا حصى يندفع من جلد وحيد القرن. كنا نركب الفورد وننطلق خارج البلدة، سبعون شخصاً أو مائة يختبئون في شاحنة، ثم نغادر المكان إلى المحطة التالية في الحملة، نشاهد المشهد الطبيعي يتدافع ونحن نفكر في تفاصيل العرض الأخير، كان الأستاذ أميراً بالنسبة لي، يشجع دائماً ويتشاور ويستمع إلى ما أقول، ولم يشعرني قط بأنني أقل أهمية منه، تغيرت أشياء كثيرة بيننا منذ الصيف، وبدا حينذاك أننا في وضع جديد، كأننا وصلنا إلى نوع من التوازن الدائم. يقوم بوظيفته وأقوم بوظيفتي، معاً نؤدي العمل.

لم تنهر سوق الأسهم إلا بعد عامين، لكن الانهيار الاقتصادي بدأ بالفعل في المناطق النائية، وكان المزارعون وسكان الريف في المنطقة كلها يشعرون بالضيق، كنا نمر بالكثير من البائسين في أسفارنا، وعلمني الأستاذ يهودي ألا أنظر إليهم أبداً، قال: إنهم يحتاجون والت الولد العجيب، وعليّ ألا أنسى أبداً المسؤولية الناجمة عن ذلك، أن تشاهد صبيّاً في الثانية عشرة من عمره يفعل ما لم يفعله من قبل إلا القديسون والأنبياء يشبه صاعقة من السماء، وكان يمكن لعروضي أن ترفع الروح المعنوية لآلاف الأرواح المعذبة،

ولم يكن ذلك يعني أنني لا ينبغي أن أفعل ذلك على وجه السرعة، لكن لو لم أفهم أن عليّ أن أمسّ قلوب الناس، لما كسبتُ ما أستحق بعد ذلك، وأعتقد أن ذلك هو السبب في أن الأستاذ بدأ عملي في تلك الأمكنة النائية، تلك التجمعات الفقيرة في أركان منسية وشقوق على الخريطة، كان يريد أن تنتشر شهرتي ببطء، لدعم البدء من القاع إلى القمة. لم يكن الأمر مجرد دفعي إلى نشاط جديد، كانت طريقة للتحكم في الأمور، للتأكد من أنني لن أكون فقاعة في فئان.

من أكون لأعرض؟ الحجز منظم بطريقة منهجية، والعائد طيب، وهناك دائماً سقف يظلنا حين ننام في الليل، كنت أفعل ما أريد، مما يمنحني شعوراً طيباً، مبهجاً جداً، ولم يكن الأمر يختلف بالنسبة لي إذا كان من يروني أقدم العروض من باريس فرنسا أو باريس تكساس، من وقت لآخر، بالطبع، كنا نواجه عائقاً على الطريق، لكن يبدو أن الأستاذ يهودي كان مستعداً لكل المواقف، ذات مرة، على سبيل المثال، جاء ضابط التغيب عن المدارس يطرق باب المنزل الذي نستأجره في دبلن بولاية الميسيسيبي، قال للأستاذ مشيراً بإصبعه الطويل النحيل إليّ: لماذا لا يذهب هذا الولد إلى مدرسة؟ تعرف أن هناك قوانين تمنع هذا ونظماً ولوائح، إلخ. تصورت أننا غرقنا، لكن الأستاذ اكتفى بإبتسامة وطلب من الجنتلمان الدخول، ثم سحب ورقة من الجيب العلوي لمعطفه، كانت مغطاة بما يبدو أنها طوابع وأختام رسمية، وبمجرد أن قرأها الضابط، التقط قبعته بارتباك واعتذر عما سببه لنا من ارتباك وانصرف، لا يعلم إلا الرب ما كان مكتوباً في تلك الورقة، لكنها أوفت بالغرض بسرعة، قبل أن أنطق بكلمة طوى الأستاذ الخطاب وأعادته إلى جيب المعطف، سألت:

«ماذا يحوي؟» لكن حتى رغم أنني سألتُ مرة أخرى، لم يرد عليّ قط، كان يكتفي بالضرب على جيبه والابتسام، ناظرًا باعتماد بشع وسعيدًا بنفسه، كان يذكرني بقط انتهى من تناول طائر العائلة، ولا يريد أن يخبرني بالطريقة التي فتح بها القفص.

من الجزء الأخير من سنة ١٩٢٧ مرورًا بالنصف الأول من ١٩٢٨، عشت في شرنقة من التركيز التام، لا أفكر قط في الماضي، لا أفكر قط في المستقبل. أفكر فقط فيما يحدث، ما أفعله في هذه اللحظة أو تلك، في المتوسط، لم نكن نقضي أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة في ويتشيتا، وبقية الوقت على الطريق، منطلقين في طريقنا إلى أمكنة كثيرة في السيارة العجيبة السوداء، لم يأت أول توقف حقيقي إلا في منتصف مايو، كان عيد ميلادي الثالث عشر يقترب، وكان الأستاذ يعتقد أنها قد تكون فكرة جيدة أن نأخذ أسبوعين إجازة، قال: علينا أن نرجع إلى منزل مسز ويذرسيون، ونأكل بعض الطعام المنزلي من باب التغيير، نسترخي ونحتفل ونعد أموالنا، ثم، بعد أن نلعب دور الباشا، نحزم حقائبنا ونرحل مرة أخرى، بدا لي ذلك رائعًا، لكن بمجرد أن وصلنا إلى هناك واستقر بنا المقام لقضاء الإجازة، شعرتُ بأن هناك شيئًا خطأ. لم يكن في الأستاذ أو مسز ويذرسيون. كان الاثنان رائعين، والعلاقة بينهما منسجمة جدًا، ولم يكن شيئًا يتعلق بالمنزل، كان طهي نيلي بوجز في قمته، والسرير مريحًا، وطقس الربيع ممتاز؛ لكن ونحن نمر من الباب، غزا قلبي ثقل لا يمكن تفسيره، نوع معتم من الأسى والانزعاج، افترضتُ أنني سأكون أفضل بعد أن أنام الليل، لكن هذا الشعور لم يفارقني؛ كان يقبع في داخلي مثل كتلة غير مهضومة من الطعام، ومهما قلتُ

لنفسي، لم أستطع التخلص منه، وفي الحقيقة، بدا أنه يكبر، لتكون له حياته الخاصة، وبدرجة وصلت في الليلة الثالثة، بعد أن لبست بيجامتي وزحفت في السرير، إلى أنني سيطرت على رغبة جارفة في البكاء، بدا الأمر جنوناً، لكن بعد نصف دقيقة كنت أنتحب في الوسادة، باكياً في دفقة من البؤس والندم.

حين جلستُ لتناول الإفطار مع الأستاذ يهودي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، لم أسيطر على نفسي، خرجت الكلمات من فمي حتى قبل أن أعرف أنني سأنطق بها، كانت مسز ويذرسمون لا تزال في الدور العلوي في السرير، وأنا وهو فقط على المائدة، في انتظار أن تخرج نيلي بوجز من المطبخ وتقدم السجق والبيض المقلي. قُلْتُ: «هل تذكر ذلك القانون الذي أخبرتني به؟».

رفع الأستاذ عينه، وكان يدس أنفه في صحيفة، عن العناوين الرئيسية ورمقتي بنظرة طويلة فارغة، وقال: «قانون؟ عن أي قانون تتحدث؟».

«ألا تتذكر، القانون الخاص بالمهام. لن نكون بشراً إذا نسينا الموتى».

«بالطبع أتذكر».

«حسناً، يبدو لي أننا نكسر هذا القانون تماماً».

«كيف يا والت؟ أيسوب والأم سيوكس في أعماقنا، في قلوبنا أينما ذهبنا، لا شيء إطلاقاً يغير ذلك».

«لكننا ابتعدنا فقط، أليس كذلك؟ قتلتهما عصابة من الشياطين والأبالسة، ولم نفعل شيئاً فيما يتعلق بهذا».

«لم نكن نستطيع، لو طاردناهم لقتلونا أيضًا».

«صحيح ربما، لكن ماذا عن الآن؟ إذا كان من المفترض أننا نتذكر الموتى، فليس أمامنا إلا أن نطارِد أولئك الأوغاد ونراهم يأخذون جزاءهم، أقصد، يا للجحيم، كانت لنا أوقات قديمة رائعة، أليس كذلك؟ التجول في الريف في سيارتنا، نجمع أموالاً كثيرة، ونختال أمام العالم مثل لاعبين بارعين، لكن ماذا عن صديقي أيسوب؟ ماذا عن الأم سيوكس العجوز الرائعة؟ تحللا في قبريهما، والرعاع الذين شنقوهما لا يزالون أحراراً».

قال الأستاذ: «اهدا»، وهو يتأملني بدقة والدموع تتدفق مرة أخرى وتبدأ تنساب على وجنتي، كان صوته حاداً وربما على حافة الغضب، وقال: «من المؤكد أننا نستطيع مطاردتهم، يمكن أن نتابعهم ونقدمهم للعدالة، لكن تلك مهمتنا الوحيدة بقية حياتنا، لن يساعدنا البوليس، أضمن لك ذلك، وفكر مرة أخرى إذا كنت تظن أن المحلفين سيدينونهم. 'الكلان' في كل مكان يا والت، إنهم يملكون اللعبة الفاسدة تمامًا. إنهم ذوو الابتسامات الرائعة الذين اعتدّت أن تراهم في شوارع سيبولا- توم سكر، جود مكنالي، هارولد دود- كلهم جزء منها، كلهم دون استثناء. الجزار، الخباز، صانع الشمعدان، علينا أن نقتلهم بأنفسنا، وبمجرد أن نطاردهم سيطاردوننا، سيسيل دم كثير يا والت، وسيكون معظمه دماً».

قلت، مستنشقا في نوبة أخرى من البكاء: «ليس عدلاً، ليس عدلاً، وليس صواباً».

«تعرف ذلك، وأعرف ذلك، مادمنّا نعرفه، فإن أيسوب والأم سيوكس تتم رعايتهما».

«إنهما يتعذبان يا أستاذ، ولن تهدأ روحاهما أبداً حتى نفعل ما علينا».

«لا يا والت، أنت مخطئ. إنهما بالفعل ينعمان بالهدوء».

«أجل؟ وما يجعلك خبيراً إلى هذا الحد بما يفعله الموتى في قبورهم؟».

«لأنني كنت معهما، كنت معهما وتحدثت إليهما، ولم يعودا يعانيان، يريدان أن نواصل عملنا، هذا ما أخبراني به، يريدان أن نتذكرهما بالاستمرار في العمل الذي بدأناه».

قلت وأنا أشعر فجأة بجلدي يزحف فيه الخدر: «ماذا؟ عن أي شيء تتحدث؟»

«يأتيان إليّ يا والت، كل ليلة تقريباً طوال الشهور الستة الماضية، يأتيان ويجلسان على سريري، يغنيان أغاني ويربتان على وجهي، إنهما أسعد مما كانا في هذا العالم، صدّقني. أيسوب والأم سيوكس ملكان الآن، ولم يعد هناك ما يمكن أن يؤذيهما».

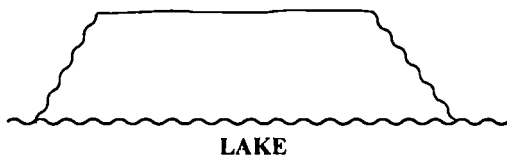
كان ذلك من أغرب ما سمعتُ وأكثره تخيلاً، لكن الأستاذ يهودي قاله بقناعة شديدة، وبصدق واضح وهدوء، ولم أشك قط في أنه يقول الحقيقة، حتى لو لم يكن ذلك حقيقياً بالمعنى المطلق، فلا شك في أنه كان يؤمن به- وحتى لو لم يكن يؤمن به، فقد انتقل إلى أحد أقوى عروضنا على الإطلاق. جلستُ هناك في خشب محمو، تاركاً الرؤية تتسكع في رأسي، محاولاً أن أمسك بصورة أيسوب والأم سيوكس وهما يغنيان للأستاذ في منتصف الليل، لا يهم حقاً إن حدث ذلك أو لم يحدث؛ لأن ذلك غيّر في الحقيقة كل

شيء بالنسبة لي، بدأ الألم يخف، وبدأت السحب السوداء تتبدد، وحين قمت من على الطاولة في ذلك الصباح، انتهى أسوأ أشكال الأسى. في النهاية، كان ذلك الشيء الوحيد الذي يعينني، إذا كذب الأستاذ، فلا بد أنه كذب لسبب، وإذا لم يكذب، تبقى القصة كما رواها، وليس هناك سبب للدفاع عنه؛ أنقذني بطريقة أو أخرى، بطريقة أو أخرى أنقذ روعي من بين فكي الوحش.

بعد عشرة أيام بدأنا من حيث توقفنا، منطلقين من ويتشيتا في سيارة أخرى جديدة، كانت مكاسينا تمكننا من شراء شيء أفضل وهكذا استبدلنا بالفورد العجيبة، بيرس أرو رمادية فضية بمقاعد جلدية ولوحات تشغيل بحجم الأرائك، استخدمنا السيارة السوداء من أوائل الربيع وهو ما يعني أن مسر ويدر سبون عُوْضَتْ عما أنفقته في البداية، وكانت هناك أموال في البنك لي وللاستاذ، ولم يعد علينا أن ننق القليل كما كان علينا من قبل، ارتفعت العملية كلها درجة أو اثنتين: مدن أكبر للعروض، فنادق صغيرة بدلاً من غرف المنازل والنزل لنستريح فيها، وتنقل أكثر أناقة، كنت في حالة جيدة تماماً حين رحلنا، مشحوناً تماماً ومستعداً للف، وفي الشهور القليلة التالية اندفعتُ إلى محطة بعد أخرى، مضيفاً طرقاً وحركات جديدة للعرض كل أسبوع تقريباً، كبرت وتعدت على الجماهير، وشعرتُ بارتياح أثناء العروض التي أقدمها، وبأنني قادر على أن أحسن وأنا أواصل، وأن أبتكر بالفعل واكتشف تحولات جديدة في منتصف العرض، في البداية التزمْتُ دائماً بالروتين، وتتبعْتُ بصرامة الخطوات التي وضعناها أنا والأستاذ من قبل، لكنني تجاوزت كل ذلك، بدأت أعمل بثقة، ولا أخشى التجريب. كانت الحركة قوتي دائماً، كانت قلب العرض، الشيء الذي يفصلني عن كل من حلق في الجو قبلي، لكن ارتفاعي

لم يكن أفضل من المتوسط، كان عاديًا، خمسة أقدام، كنت أريد أن أحسنه، أن أضاعف ذلك الارتفاع مرتين أو ثلاثا إن استطعتُ، لكنني لم أعد أتمتع برفاهية جلسات التدريب طوال اليوم، العمل القديم الحر تحت إشراف الأستاذ يهودي لعشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة مستمرة، صرت محترفًا، مع كل الأعباء وقيود التنظيم التي يخضع لها محترف، وكان المكان الوحيد للتدريب أمام جمهور حقيقي.

ذلك ما كنت أفعله، خاصة بعد تلك الإجازة القصيرة في ويتشيتا، ولدهشتي الهائلة وجدت أن الضغط الهمني، ترجع بعض أجمل حيلتي إلى تلك الفترة، ودون تحفيز عيون الجماهير لي، أشك في أنني كنت أحشد الشجاعة لمحاولة القيام بنصف ما قمت به. بدأ كل شيء بفقرة السلم، وكانت أول مرة أستخدم فيها «دعامة خفية»- الاسم الذي ابتكرته لاختراعي. كنا في شمال ميتشجان، ووسط العرض، بالضبط وأنا أرتفع لأبدأ عبور البحيرة، رأيت مبنى عن بعد، كان بناء ضخماً من الطوب، ربما كان مستودعاً أو مصنعاً قديماً، وكانت هناك نيران تتطاير من أحد جدرانها. لاحظت تلك السلاالم المعدنية، كان ضوء الشمس ينعكس عليها في تلك اللحظة بالضبط، وكانت تبرق بشدة في شمس الأصيل، ودون تفكير في الأمر، رفعتُ قدمي في الهواء، كما لو كنت على وشك صعود سلم حقيقي، ووضعتها على درجة غير مرئية؛ ثم رفعتُ القدم الأخرى ووضعتها على الدرجة التالية، لم أشعر بشيء صلب في الجو، لكنني واصلتُ رغم ذلك، صعدتُ تدريجياً سلماً يمتد من طرف البحيرة إلى الآخر، حتى لو لم أراه، فقد رأيت صورة محددة له في عقلي. وبأفضل ما أتذكر، كان يبدو على النحو التالي:



في أعلى نقطة منه - البسطة في المنتصف - كان تقريبا تسعة أقدام ونصف فوق سطح الماء - أربعة أقدام كاملة أعلى مما صعدت من قبل. والغريب أنني لم أتردد، بمجرد أن تجلت الصورة في ذهني بوضوح، عرفتُ أنني أستطيع الاعتماد عليها لاجتيازه، كل ما كان عليّ القيام به أن أتبع شكل الجسر المتخيل، وقد دعمني وكأنه حقيقي، بعد بضعة دقائق، كنت أنزلق عبر البحيرة دون أي تردد أو تعثر، اثنتا عشرة درجة إلى أعلى، اثنتان وخمسون درجة من جانب إلى آخر، ثم اثنتا عشرة درجة إلى أسفل، وكانت النتائج رائعة.

بعد هذا التقدم المفاجئ، اكتشفتُ أنني أستطيع استخدام دعائم أخرى بالفعالية ذاتها، مادمت أستطيع تخيل الشيء الذي أريده، مادمت أستطيع تصويره بدرجة عالية من الوضوح والتحديد، كان يتوفر لي في العرض، هكذا طورتُ بعض أبرز الأجزاء في عملي: طريقة السلم الحبل، طريقة الانزلاق، طريقة المرجحة، وطريقة السلك المرتفع، ابتكارات لا تحصى كنت رائدها، لم تعزز هذه التحولات متعة الجمهور فقط، لكنها دفعتني إلى علاقة جديدة تمامًا مع عملي، لم أعد مجرد إنسان آلي، قرد سيئ يقوم بالمجموعة نفسها من الحيل في كل عرض - تطورت إلى فنان، مبدع حقيقي يقدم عروضًا لنفسه بقدر ما يقدمها للآخرين، أمتعني شيء غير متوقع، مغامرة عدم معرفة ما يحدث من عرض إلى آخر، إذا لم يكن حافزك إلا أن تحظى بالحب، أن تحظى بإعجاب الجماهير،

فلا بد أن تقع في عادات سيئة، وفي النهاية يمل منك الجمهور، عليك أن تختبر نفسك باستمرار، أن تحفز موهبتك بقدر ما تستطيع. تفعل ذلك من أجل نفسك، لكن في النهاية هذا الكفاح لتحقيق الأفضل هو الذي يحبب فيك المعجبون بك، تلك هي المفارقة، يبدأ الناس في الإحساس بأنك تخاطر من أجلهم، يُسمَح لهم بالاشتراك في السر، بالمساهمة في ذلك الشيء بصرف النظر عن ذلك الشيء المجهول الذي يدفعك للقيام به، وبمجرد أن يحدث هذا، لا تكون مجرد مؤدٍّ، تكون في طريقك لأن تصبح نجمًا. كنت في هذا الوضع بالضبط في خريف ١٩٢٨: على حافة أن أصبح نجمًا.

بحلول منتصف أكتوبر وجدنا نفسي في وسط ولاية إلينوي، نقدم ألعابًا غريبة قبل أن نتجه عائدين إلى ويتشيتا لاستراحة مستحقة عن جدارة. إذا لم تخنّي الذاكرة كنا قد انتهينا للتو من عرض في مدينة جيبسون، إحدى تلك البلدات الصغيرة المفقودة بأفق من صهاريج المياه ومصاعد الحبوب لشركة «باك روجرز»، عن بعد تعتقد أنك تقترب من حصن هائل، وبعد ذلك تصل إلى هناك لتكتشف أنها ليس إلا مصاعد للحبوب، كنا قد غادرنا الفندق ونجلس في مطعم في الشارع الرئيسي، نتجرع بعض المرطبات السائلة قبل أن نستقل السيارة وننطلق بها، كانت ساعة مئة في اليوم، في وقت ما بين الفطور والغداء، ولم يكن هناك زبائن غيري أنا والأساتذ يهودي، أتذكر أنني التهمت آخر أجزاء من رغوة الشكولاتة حين رن جرس الباب ودخل زبون ثالث، نتيجة الفضول الغبي رفعت عيني لألقي نظرة على القادم الجديد، ولم يكن إلا خالي «سليم»، الغريب العجوز بذقنه الصغير؟ لا بد أن الحرارة لم تكن تزيد عن درجتين في ذلك

اليوم، لكنه كان يرتدي بدلة صيفية بالية، والياقة مرفوعة إلى عنقه، ويقبض على نصفي الجاكيت بيده اليمنى، كان يرتجف وهو يعبر العتبة، ويبدو مثل كلب ضئيل تعصف به رياح الشمال، وربما كنت أضحك من المنظر لولا الذهول الشديد الذي أصابني.

كان ظهر الأستاذ يهودي باتجاه الباب، حين رأى التعبير على وجهي (لأبد أنه بهت تمامًا)، التفت ليلقي نظرة على ما أربكني إلى هذا الحد، وكان سليم لا يزال يقف في المدخل، يحك يديه معًا ويتفحص المكان بعينيه اللتين فيهما حول، وحين ركز علينا، ابتسم فجأة ابتسامة من ابتسامات ذوي الأسنان المكسورة التي كانت ترعيني دائمًا وأنا صبي. لم يكن هذا اللقاء وليد الصدفة. جاء إلى مدينة جيبسون لأنه يريد أن يتحدث، وبشكل مؤكد مثلما ستّة وسبعة تساوي ثلاثة عشر، كان هناك الرقم الأكثر شؤمًا، كنا نحرق في كتلة من المتاعب. قال، ينضح لطفًا زائفًا وهو يتهدأ إلى طاولتنا: «حسنًا، حسنًا. رائع. أتى إلى مكان ناء عن العمل الشخصي، وأصل إلى المطعم المحلي لتناول كوب من القهوة، وعلى من أعرّس سوى ابن أختي المفقود منذ زمن طويل؟ والت الصغير، تفاحة عيني، الولد العجيب ذو الوجه المليء بالنمش - إنه قدر - مثل العثور على إبرة في كومة من القش»، دون كلمة من الأستاذ أو مني، جلس في الكرسي الخالي بجواري. قال: «لا تهتم إذا جلستُ، أليس كذلك؟ إنني فقط مذهول من هذه الصدفة السعيدة، ينبغي أن أريح قدمي قبل أن أفقد الوعي»، ثم خبطني على ظهري ونكش شعري، وهو لا يزال يتظاهر بسعادته لرؤيتي - وربما كان سعيدًا بالفعل، لكن ليس لأي من الأسباب التي قد يسعد من أجلها شخص طبيعي؛ ارتجفتُ لأنه لمسني بتلك الصورة - ابتعدت عن يده، لكنه لم يلتفت للصد، وواصل الحديث

بطريقته السخيفة كاشفاً عن أسنانه البنيّة المعوجة في كل فرصة،
واصل: «حسنًا، أيها الرفيق القديم، يبدو الأمر وكأن العالم يعاملك
بشكل طيب تمامًا هذه الأيام، أليس كذلك؟ مما تقوله لنا الصحف،
أنت أبهة، أعظم شيء منذ خبز الجاودار، لا بد أن معلمك يتدفق
فخرًا، لا أتحدث عن تدفق عادي، حيث لا بد أن محفظته عانت
في العملية، لا يمكن أن أخبرك يا والت بالسعادة لرؤية ابن جلدتي
يصنع اسمًا لنفسه في العالم الكبير».

وأخيرًا قال الأستاذ، كاسرًا مونولوج سليم: «حدد ما تريد يا
صديق، أنا والطفل في طريقنا للخروج، ولا وقت لدينا للجلوس
والخوض في مثل هذا الكلام التافه».

«الجحيم»، قال سليم باذلاً أقصى ما في وسعه ليبدو مستاء، ألا
يستطيع الرجل أن يتبادل الأخبار مع ابن أخته؟ لماذا التسرع؟ من
منظر تلك الآلة التي تركز على جانب الطريق، ستصلان إلى حيث
أنتما ذاهبان في أسرع ما يكون».

قال الأستاذ: «ليس لدى والت ما يقوله لك، وبقدر ما يعنيني،
ليس لديك ما تقوله له».

«لست متأكدًا من ذلك»، قال سليم وهو يمد يده إلى سجانر
مجعدة في جيبه ويشعل واحدة. «من حقه أن يعرف أخبار خالته بيج
المسكينة، ومن حقي أن أخبره».

قلت، بصوت لا يرتفع عن الهمس: «ماذا عنها؟».

قال سليم مُمسكا وجنتي بحماس زائف: «هاي، الطفل يستطيع
الكلام. للحظة هنا، ظننت أنه قطع لسانك يا والت».

كررت: «ماذا عنها؟».

«ماتت يا بُني، هذا ما كان، قتلها الإعصار الذي اجتاحت سانت لويس العام الماضي، سقط المنزل عليها، وكانت نهاية بيج العجوز الجميلة، حدث الأمر على هذا النحو بالضبط».

قَلْتُ: «ونجوت».

قال سليم: «إنها إرادة الرب، شاءت الصدفة أن أكون في الجانب الآخر من البلدة، أقوم بعمل شريف».

قلت: «أمر سيئ جداً ألا يحدث العكس، لم تكن الخالة بيج طيبة جداً، لكنها على الأقل لم تكن تعاقبني مثلك».

قال سليم: «هاي الآن، هذه ليست طريقة تكلم بها خالك، أنا من لحمك ودمك يا والت، ولا ينبغي أن تروي أكاذيب عني، وأنا هنا في مهمة حيوية، هناك أمور ينبغي أن نتحدث فيها أنا والأستاذ يهودي، ولا أحتاج إلى أية ثروة منك تفسد الأمر».

قال الأستاذ: «أعتقد أنك مخطئ، ليس بيني وبينك ما نتحدث عنه، تأخرتُ أنا والت الآن، وأخشى أن يكون عليك أن تنصرف».

«ليس بهذه السرعة يا مُستر»، قال سليم ناسياً فجأة فتنته الزائفة، كان صوته مهتاجاً بالنكد والغضب، بالضبط كما كنت أتذكره دائماً، «عقدنا صفقة أنا وأنت، ولن تخدعني الآن».

قال الأستاذ: «صفقة؟ أية صفقة؟».

«الصفقة التي عقدناها في سانت لويس منذ أربع سنوات، هل تظن أنني نسيتُ أم ماذا؟ لستُ غيباً، تعرف، وعدتني جزء من الأرباح، وأنا هنا لأطالب بنصيب العادل، خمسة وعشرون في المائة، هذا ما وعدتُ به، وهذا ما أريده».

قال الأستاذ محاولاً أن يكظم غيظه: «كما أتذكر يا مستر سباركز كذتَ تقبل قدمي حين أخبرْتُكَ بأنني سأخذ الولد من يديك، استعطفْتني بشدة، وقلت لي كم أنت سعيد بالتخلص منه. تلك هي الصفقة يا مستر سباركز. طلبتُ الولد وأعطيتني الولد».

«كانت لي شروط. أعلنْتُها لك، ووافقتُ؛ خمسة وعشرون في المائة، لا تقل لي لا توجد صفقة، وعدتني وصدقْتُكَ».

«تحلم يا غلام، إذا اعتقدتُ أن هناك صفقة فأرني العقد، أرني الورقة التي تقول: إنك تستحق مليماً».

«هزنا رأسينا موافقة عليه، كان اتفاق سيدين، بصدق وأمانة».

«تتمتع بخيال عظيم يا مستر سباركز، لكنك كذاب وخادع، إذا كانت لديك شكوى ضدي، خذها إلى المحامي، وسوف نرى كيف تصمد قضيتك في المحكمة، لكن إلى أن يحدث ذلك، خلّ عندك دم وانصرف بوجهك البشع من أمامي». ثم تحول الأستاذ إليّ وقال: «هيا يا والت، لنذهب. ينتظروننا في أربانا^(١)، وليس أمامنا دقيقة نضيعها».

ألقى الأستاذ بدولار على الطاولة ونهض، ونهضتُ معه، لكن سليماً لم ينتهِ من كلامه، وحاول أن ينطق بالكلمة الأخيرة، قاذفاً بضعة طلاقات أخيرة ونحن نغادر المطعم. قال: «هل تعتقد أنك ذكي يا مستر، لكنك لم تنتهِ الأمر معي بعد، لا أحد يصف إدوارد ج. سباركز بأنه كذاب ويفلت من العقاب، تسمع؟ صحيح، واصل الخروج من الباب -

(١) أربانا: مدينة في شرق إلينوي.

لا يهم، لكن هذه آخر مرة تدير ظهرك لي، احذر يا رجل؛ سأطاردك، سأطاردك أنت وذلك الطفل الحقيق، وبمجرد أن أصل إليك، ستندم على كل ما قلته لي بهذا الشكل، ستندم حتى آخر يوم في حياتك».

تتبعنا حتى باب المطعم، وهو يطرنا بتهديداته المخبولة ونحن نركب السيارة بيرس أرو والأستاذ يبدأ تشغيل المحرك؛ غطى الصخب على كلمات خالي، لكن شففتيه ظلتا تتحركان، والعروق نافرة في عنقه الأعجف، تركناه على النحو التالي: بالإضافة إلى غضبه الشديد وهو يشاهدنا نبتعد، كان يهز قبضته في اتجاهنا ويتفوه بتهديدات غير مسموعة، تجول خالي في الصحراء أربعين عامًا، ولم يكن إلا تاريخ العثرات والتحولات الخطأ، خيطا لا نهائيا من الفشل؛ فهمت، وأنا أرى وجهه من النافذة الخلفية للسيارة، أنه قد صار لديه هدف، أن اللعين وجد في النهاية رسالة في الحياة.

بمجرد أن خرجنا من البلدة، التفت الأستاذ إليّ وقال: «هذا الفشار ليست لديه ما يعتمد عليه، الأمر كله خداع وحمق وهراء من البداية إلى النهاية، الرجل خاسر دائما، وسوف أقتله إذا مسك مرة أخرى يا والت، أقسم على ذلك، سأفرم هذا المحتال إلى قطع كثيرة جدا، ليظلوا يعثرون على قطع منه في كندا بعد عشرين عامًا من الآن».

كنت مزهوا بالطريقة التي تعامل بها الأستاذ في المطعم، لكن ذلك لا يعني أنني لم أقلق، كان الأخ الأكبر لأمي مراوغ، وقد ركز في شيء، ولم يكن من المحتمل أن يصرفه شيء عن التفكير في هدفه - شخصيا - لم أرغب في التفكير في موقفه في النزاع، ربما وعده الأستاذ بخمسة وعشرين في المائة وربما لم يعده، لكن ذلك

صار بلا قيمة، ولم أكن أريد إلا أن يخرج ابن العاهرة من حياتي إلى الأبد، ضربني في الحائط مرات كثيرة جدا تجعلني لا أحمل له إلا الكراهية، وسواء كان له حق في المطالبة بالمال أو ليس له حق، كانت الحقيقة أنه لا يستحق مليما، لكن للأسف، لم يكن لما أشعر به علاقة بالملعون، أو بما يشعر به الأستاذ، كان كل شيء يتوقف على سليم، وكنت أعرف في أعماقي أنه قادم، أنه سيظل يأتي حتى يخنقني.

لم تفارقني هذه المخاوف والهواجس، ألفت بظلالها على كل ما حدث في الأيام والشهور التي تلت ذلك، مؤثرة على مزاجي حتى أفسدت متعة نجاحي المطرد. كانت سيئة جدا في البداية، حيثما ذهبنا، في كل بلدة سافرنا إليها ظللتُ أتوقع ظهور سليم مرة أخرى. جالسًا في مطعم، داخلًا بهو فندق، نازلًا من السيارة، كان من المتوقع أن يظهر خالي في أية لحظة رتابة، مخترقًا نسيج حياتي دون سابق إنذار، ذلك ما جعل الموقف أصعب من أن يُحتمل. الشك، فكرة أن كل سعادتي يمكن أن تنهار في غمضة عين، كانت البقعة الوحيدة التي بدت آمنة لي الوقوف أمام الجمهور وتقديم العرض، لم يكن سليم يجروني على أن يتحرك على الملأ، على الأقل حين أكون مركز الاهتمام على ذلك النحو، ونظرًا لكل القلق الذي حملته معي بقية الوقت، صار تقديم العرض استراحة ذهنية، فترة راحة من الهلع الذي يطوق قلبي. ألفت بنفسي في العمل بشكل غير مسبوق، مبتهجا بما يهبني من الحرية والحماية، ثمة شيء تغير في روحي، وفهمت أنني صرت على النحو التالي: لم أعد والت رولي، الطفل الذي تحول إلى والت الولد العجيب لساعة في اليوم، لكنني صرت والت الولد العجيب دائما، صرت شخصا ليس له وجود إلا وهو في

الجو، كانت الأرض وهماً، أرضاً خاوية ملغومة بالفخاخ والظلال، وكل ما يحدث عليها زائف، كان الجو وحده حقيقياً، وكنت أعيش ثلاثاً وعشرين ساعة في اليوم غريباً عن نفسي، منفصلاً عن مُتَعِي وعاداتي القديمة، حزمة منكشمة من اليأس والفرع.

جعلني العمل أستمِر، ولحسن الحظ كان هناك الكثير من العمل، مواكب لا تنتهي من حجز الشتاء، بعد العودة إلى ويتشيتا، أعد الأستاذ جولة مُفصلة، بعدد قياسي من العروض الأسبوعية، من بين كل النقلات الذكية التي قام بها، مضت أمهر ضرباته بنا إلى فلوريدا في أسوأ طقس بارد. قضينا هناك من منتصف يناير إلى نهاية مارس، وغطينا شبه الجزيرة من القمة إلى القاع، وفي هذه الرحلة الممتدة- حدثت للمرة الأولى والوحيدة- انضمت إلينا مسز ويذرسمون، على عكس كل ذلك الهراء عن أنها نحس، لم تجلب لي إلا الحظ، الحظ ليس فقط فيما يتعلق بسليم (لم نره قط)، لكن الحظ فيما يتعلق بحشود الجماهير، العوائد الكبيرة لشباك التذاكر، والصحة الطيبة (كانت تحب الذهاب إلى السينما بقدر ما أحب). كانت أيام ازدهار أرض فلوريدا، وبدأ الأثرياء يتدفقون في بدلهم البيضاء وعقود الماس ليستمتعوا بالشتاء تحت النخيل، كانت أول تجربة لي أمام أشخاص متأنقين، قدمت عروضي في أندية ريفية، وملاعب جولف، وحشود من أهل المدن، وملئت لأولئك النبلاء رغم كل كياستهم وتكلفتهم، بقدر ما ملئت لرعاع الأرض. لم يحدث اختلاف. كان عرضي شاملاً، يُؤثر في الجميع، الأغنياء والفقراء، بالطريقة ذاتها. حين عُدنا إلى كانساس، بدأت أشعر بأنني صرت أقرب إلى طبيعتي مرة أخرى، لم يظهر سليم بوجهه في خمسة أشهر،

وتصورت أنه لو كان يخطط لأية مفاجآت لفاجأنا بها بحلول ذلك الوقت، حين أقلعنا مرة أخرى إلى شمال ميدويست في نهاية أبريل، كنت قد توقفت بشكل ما عن التفكير فيه. كان المشهد الرهيب في مدينة جيبسون قد ابتعد تمامًا في أعماق الماضي، وكان يبدو أحيانًا وكأنه لم يحدث قط. كنت مسترخيا وواثقًا، وإذا كان هناك شيء في عقلي بالإضافة إلى العرض، فقد كان ذلك الشعر الذي بدأ ينمو تحت إبطي وحول عانتي، كل تلك الأشياء التي تتبرعم مؤخرًا وتعلن دخولي إلى أرض الأحلام الندية والأفكار البغيضة، كان حذري ضئيلاً، وبالضبط كما عرفته دائماً، بالضبط كما خفتُ حين بدأ الأمر كله، سقط النصل وتوقعي لسقوطه أقل ما يكون. كنت أنا والأستاذ في نورثفيلد في ولاية مينيسوتا، وهي بلدة صغيرة على بعد حوالي أربعين ميلاً جنوب سانت بول، وكما كانت عادتني قبل العروض المسائية، ذهبت إلى دار السينما المحلية لأضيّع ساعتين، كانت الأفلام الناطقة في تحول تام، ولم أكن أستطيع رؤية ما يكفي منها، كنت أذهب كلما ساحت الفرصة، وأحياناً أرى الفيلم نفسه ثلاث مرات أو أربعاً. في ذلك اليوم، كان الفيلم المعروف «جوز الهند»، الأخوة ماركس^(١) المجموعة الكوميدية الجديدة في فلوريدا. رأيته من قبل، لكنني كنت مجنوناً بهؤلاء المهرجين، وخاصة هاربو، الأبكم الذي يضع شعرًا مستعاراً مليئاً بالجوز ويصيح بصوت عالٍ، وكنت أطلع بشغف إلى الوقت الذي يعرض فيه عصر ذلك اليوم، كان

(١) الأخوة ماركس: عائلة أمريكية كوميدية، قدمت أفلاماً متحركة من أوائل القرن العشرين حتى ١٩٥٠ تقريباً. وتم عرض فيلم جوز الهند سنة ١٩٢٩.

المسرح مبنى كبيراً، به مائتا مقعد أو ثلاثمائة، ولكن نظراً للطقس الربيعي المعتدل، لم يكن هناك أكثر من ستة أشخاص يتفرجون معي. لم أهتم بالطبع. جلست ومعي كيس من الفشار وبدأت أضحك بشدة، غافلاً عن الأشخاص الآخرين المتناثرين في الظلام، بعد عشرين دقيقة أو ثلاثين، شممتُ شيئاً غريباً، رائحة دواء طيبة جداً تهب من خلفي. قبل أن ألتفت لأعرف حقيقتها، ألقيت خرقة منقوعة في تلك المادة اللاذعة على وجهي، ناضلتُ وصارعت لأتخلص منها، لكن دفعتني يدٌ إلى الخلف، ثم، وقبل أن أستجمع قوتي لبذل جهد آخر، خسرتُ المعركة فجأة، ترهلت عضلاتي؛ ذاب جلدي في رشح دهني؛ انفصل رأسي عن جسدي، ووصلت إلى مكان لم أصل إليه من قبل قط.

تَخِيلْتُ

كل أنواع المعارك والمواجهات مع سليم - معارك بقبضة اليد، سطو مسلح، إطلاق نيران البنادق في أزقة مظلمة- ولم يخطر على بالي أن يختطفني، لم يكن من عادة خالي أن يفعل شيئاً يتطلب مثل هذا التخطيط طويل المدى، كان متهوراً، مخاً خاوياً يقفز إلى الأمور ارتجالاً، وإذا خرج عن المألوف بسببي، فإن هذا يوضح شدة مرارته، والعمق الذي ألهمه به نجاحي، كنت الفرصة الكبيرة التي سنحت له على الإطلاق، ولم يكن ليخسرها بتركها تفلت من قبضته- ليس هذه المرة- كان يتصرف مثل قاطع طريق حقيقي، محترف بارع فكر في الموضوع من كل الزوايا، وقرر في النهاية أن ينفذ الخطة بدقة، لم يفعل ذلك طلباً للمال فقط ولم يفعل ذلك لمجرد الانتقام- كان يريد الاثنين، وكان اختطافي لطلب فدية مزيحاً سحريا، طريقة يصطاد بها الطائرين بحجرٍ واحد.

كان له رفيق هذه المرة، لص بدين اسمه فريتز، وبالنظر إلى ضالة قدرتهما العقلية، فقد بذلا أقصى ما يستطيعان لإخفائي. في البداية خبأني في كهف على أطراف نورثفيلد، حفرة رطبة وقذرة قضيت فيها ثلاثة أيام بلياليها، وساقاي مقيدتان بحبال سميقة وكمامة مربوطة حول فمي؛ ثم أعطيتاني جرعة ثانية من الأثير وأخذاني إلى مكان آخر، بدروم فيما يبدو أنها بناية سكنية في مينيابوليس أو سانت بول. واستمر ذلك ليوم واحد فقط، ومن هناك انتقلنا إلى الريف مرة أخرى، واستقر بي الأمر في منزل مهجور لأحد المنقبين فيما عرفت بعد ذلك أنها داكوتا الجنوبية، بدا وكأننا على القمر وليس الأرض، كان المكان خالي من الأشجار ومهجوراً تماماً وساكناً، وكنا بعيداً

جداً عن أي طريق بحيث أنني لو تمكنت من الهرب منهما، فإن الأمر يستغرق ساعات لأجد من يساعدني. ملأ المكان بطعام مغلب يكفي لشهرين، وكانت كل المؤشرات تشير إلى أسر طويل مرهق للأعصاب. هكذا اختار سليم أن يلعبها: بأبطأ ما يستطيع، كان يريد أن يجعل الأستاذ يتلوى، وإذا كان ذلك يعني جر الأمور بعيداً عن البساطة، تكون أفضل بكثير. لم يكن متعجلاً على الإطلاق، كان الأمر ممتعاً له تماماً، لماذا يتوقف عنه قبل أن يحصل على متعته؟

لم أره قط مغروراً بهذا الشكل، كان مبتهجاً جداً وراضياً عن نفسه، كان يسير مختالاً حول الكابينة مثل جنرال، يطلق الأوامر ويضحك على نكته، زوبعة من تبجح مجنون، شعرت بالاشمزاز لرؤيته بهذا الشكل، لكنه في الوقت نفسه جنبني التأثير التام لوحشيته، مع كل شيء يحققه، يمكن أن يوصف بأنه سخي، ولم يهاجمني قط بالهمجية التي كنت أتوقعها، ولا يعني هذا أنه لم يكن يصفعني من وقت لآخر، ويضربني على فمي ويشد أذني حين يحلو له، لكن معظم إساءته جاءت في شكل توبيخ وإهانات لفظية. لم يمل إطلاقاً من أن يروي لي كيف «قلب الطاولة على ذلك اليهودي القذر»، أو من السخرية من طفح حب الشباب الذي انتشر في وجهي («انظري يا ولد، بنر أخرى مليئة بالصديد»؛ «واو يا رفيق تبرز حاجبك شحنة من البراكين»)، أو يذكرني بأن مصيري صار بين يديه، ولتأكيد هذه النقطة الأخيرة كان أحياناً يتسكع حولي وهو يلف مسدساً في إصبعه ويضغط الماسورة على جمجمتي، ويقول: «تري ما أعني يا فتى؟» ويطلق ضحكة «ضغطة بسيطة على هذا الزناد ويتناثر دماغك على الحائط». تمادى مرة أو اثنتين وسحب الزناد، ليرعبني فقط، كنت أعرف أنه، مادام لم يحصل على الفدية، لن يجروا على شحن المسدس بذخيرة حية.

لم تكن نزهة، لكنني وجدت أنني أستطيع أن أتحمّل الأمر، أمور تافهة، كما يقولون، وأدركت أن الاستماع إلى ثرثرته أفضل كثيرًا من كسر عظامي، ومادمت أبقيتُ فمي مغلقًا ولم أستثره، كان يتوقف بعد خمس عشرة دقيقة أو عشرين، وحيث إنهما أبقيا الكمامة على فمي معظم الوقت، لم يكن لي من اختيار على أي حال، لكن حتى حين تكون شفّاتي حرتين أفعل ما أستطيع لأتجاهل تبججه، حققت رقمًا قياسيًّا من الردود القوية والإهانات، لكنني كنت أحتفظ بها لنفسِي عمومًا، وأعرف جيدًا أنه كلما قل جدلي مع الملعون قل إزعاجه لي، بالإضافة إلى ذلك لم يكن لدي الكثير لآتشبث به، كان سليم أكثر جنونًا من أن تثق به، ولم يكن هناك ما يضمن أنه لن يجد طريقة لقتلي بعد أن يحصل على المال، لم أكن أعرف ما في رأسه، وكان ما لا أعرفه يعذبني أكثر، كنت أستطيع تحمل معاناة السجن، لكن لم يخل ذهني قط من التفكير فيما يلي ذلك: قطع رقبتِي، إطلاق النار على قلبي، سلخ جلدي عن عظامي.

لم يفعل فريتز شيئًا ليهدي هذه العذابات؛ لم يكن إلا رجلاً مُطيعًا، بدينًا مرتبكًا يتنفس بصعوبة ويتعثّر في أداء المهام الصغيرة المتنوعة التي يكلفه بها سليم، كان يطهو الفول على موقد خشبي، وينظف الأرضية، ويفرغ دلاء المخلفات، ويعدل الحبال على ذراعي وساقِي ويحكم ربطها، لا يعلم إلا الرب أين عثر سليم على ذلك البدين البليد، لكنني لا أفترض أنه كان يستطيع البحث عن تابع أكثر استعدادًا. كان فريتز خادمًا، وكبير الخدم، يؤدي بعض المهام، وكان الساذج القوي الذي لم يشك يومًا بكلمة. يجلس طوال تلك الأيام ليلاً ونهارًا وكان بادلاندر أجمل بقعة في أمريكًا، مطمئنًا

تمامًا لقضاء وقته ولا يفعل شيئًا، يحدّق من النافذة ويتنفس. لعشرة أيام أو اثني عشر يومًا لم يتحدث معي عن شيء، لكن بعد إرسال أول طلب للفدية إلى الأستاذ يهودي، بدأ سليم ينطلق كل صباح إلى البلدة، على ما يفترض لإرسال خطابات أو القيام بمكالمات تليفونية أو توصيل طلباته بوسيلة أخرى، وبدأت أنا وفريتز نقضي جزءًا من كل يوم وحدنا، لن أبالغ وأقول: إنه حدث بيننا تفاهم؛ لكن على الأقل لم يكن يفزعني كما يفزعني سليم، لم يكن فريتز يحمل شيئًا شخصيًا ضدي. كان مجرد شخص يؤدي وظيفته، ولم يمض وقت طويل حتى أدركت أن المستقبل غامض بالنسبة له بقدر غموضه بالنسبة لي.

قلت له ذات يوم وهو يجلس على مقعد ويقدم لي وجبة الظهيرة من الفول المقلّب والخبز: «سيقتلني، أليس كذلك؟» كان سليم مرعوبًا من فكرة أن أفر، ولم يفك الحبال قط، حتى وأنا أكل أو أنام أو أتبرز. هكذا كان فريتز يطعمني بالملقعة، يضعه في فمي وكأنني رضيع. «هوه؟» قال فريتز، رادا بطريقته البارعة السريعة. بدت عيناه خاويتين، وكان دماغه رُبط على الطريق في مكان ما بين بيتسبرج وجبال ألجني: ^(١) «هل قلت شيئًا؟».

كررت: «سيقتلني، أليس كذلك؟ أقصد، أليست هناك فرصة لأغادر هذا المكان حيًا».

«لا أعلم شيئًا عن ذلك يا بني، لا يخبرني خالك بشيء عما سيفعل. إنه يمضي ويفعل فقط».

(١) بيتسبرج: مدينة جنوب غرب بنسلفانيا. جبال ألجني: سلسلة جبال تمتد من شمال بنسلفانيا إلى جنوب غرب فيرجينيا.

«ولا تُبالي بأنه لا يبوح لك بأسراره في هذه الأمور؟».

«لا، لكن إذا لم يفعل ما وعد به، فسوف أكون عنيفاً معه».

«لا ينفع هذا قط يا فريتز. كل هذه الرسائل التي يرسلها سليم من مكتب بريد في البلدة- لماذا، سوف يتتبعونك إلى هذا الكوخ في لمح البصر، لمح البصر تماماً».

«ها، حلوة، تظن أننا أغبياء، أليس كذلك؟».

«أجل، هذا ما أظن، أغبياء تماماً».

«ها، وماذا إن قلتُ لك أن لنا رفيقا آخر؟ وماذا إن كان هذا الشخص هو الذي تذهب إليه هذه الرسائل؟».

«حسنا، ثم ماذا؟».

«أجل، هل تفهم ما أعنيه يا فتى؟ هذا الطرف الآخر يوصل الملاحظات وما شابه إلى الناس مع المال، ليست هناك طريقة يمكن بها أن يعثروا علينا هنا».

«وماذا عنه، الرجل الذي تتفقان معه؟ هل هو غير مرئي أو شيء من هذا القبيل؟».

«أجل، صحيح، يستخدم مسحوقا سحريا ويمضي في حالة من الدخان».

كانت أطول محادثة أجريتها معه على الإطلاق: فريتز في أقصى درجات فصاحته وإسهابه، ولم يكن ذلك له أهمية بالنسبة لي، لكن كان بارداً وغيبياً، ولم أستطع قط أن أفهمه، لم أستطع أن أجعله ينقلب

على الخال سليم، لم أستطع أن أقنعه بفك الحبال («آسف يا فتى، لا أستطيع»)، لم أستطع أن أهز ولاه إطلاقاً. أي شخص آخر كان يمكن أن يرد على سؤال بطريقة من اثنتين: بأن يقول لي: إن ذلك صحيح أو يقول لي إن ذلك خطأ. كان يمكن أن يقول لي، نعم سليم يخطط ليقطع رقبتك، أو يربت على رأسي ويؤكد لي أن مخاوفي لا أساس لها. حتى لو كان يكذب وهو يقول تلك الأشياء (سواء كانت الأسباب جيدة أو سيئة)، لحصلتُ على إجابة مباشرة، لكن لم يحدث هذا مع فريتز. كان فريتز صادقاً أكثر مما يجب، وحيث إنه لم يجب على سؤالي، قال: إنه لا يعرف، ناسياً أن الآداب الإنسانية العادية تتطلب من الشخص أن يقدم إجابة قاطعة على السؤال بقدر أهمية تلك الآداب، لكن فريتز لم يتعلم قواعد السلوك الإنساني. كان ساذجاً وبارداً، وأي ولد يمتلئ وجهه بالبثور يرى ذلك الحديث معه مضيعة للوقت.

أوه، قضيت وقتاً مضحكاً في داكوتا الجنوبية، حسناً، كوميديا مستمرة من البهجة والتسلية دون توقف. مربوطاً ومكتملاً أكثر من شهر، متروكاً وحدي في غرفة مغلقة يرافقني بها اثنا عشر جاروفاً صديقاً ومذراً، متأكداً من أنني ساموت ميتة وحشية ساحقة. كان ألمي الوحيد أن ينقذني الأستاذ، وحلمت مراراً وتكراراً أن ينقض هو ومجموعة من الرجال على الكوخ ويطلقون النار على فريتز وسليم، ويحملونني عائدين إلى أرض الحياة، لكن مرت الأسابيع ولم يتغير شيء، وعندما تغيرت الأمور تغيرت إلى الأسوأ فقط؛ بمجرد بدء رسائل الفدية والمباحثات، لاحظت سوءاً تدريجياً في مزاج سليم، تدهوراً دائماً في ثقته. صارت اللعبة خطرة، خمد الاندفاع الأول للحماسة، وتدرجياً انهزم مزاحه أمام ذاته القديمة

النزقة سيئة المزاج، أزعجَ فريتز، وتذمر من الطعام السيئ، وكسر بعض الأطباق في الحائط. كانت العلامات الأولى، وفي النهاية تلتها علامات أخرى: يركلني من على مقعدي، ويسخر من بدانة فريتز، ويشد الحبال حول أطرافي، بدا من الواضح أن الضغط يزداد عليه، لكنني لم أعرف السبب، لم أطلع على المناقشات التي تدور في الغرفة الأخرى، ولم أقرأ رسائل الفدية أو أَر المقالات الصحفية التي تكتب عني، والقليل الذي أسمعُه عبر الباب كان مبهمًا ومتناثرًا، ولم أستطع قط أن أجمع الأجزاء معًا؛ كل ما عرفته أن سليم يتصرف على طبيعته باطراد. كانت النزعة واضحة، وبمجرد أن عاد إلى طبيعته عرفتُ أن كل ما حدث يشبه اجازة إلى حد بعيد، رحلة إلى جزر الأنثيل الصغرى^(١) على يخت فخم.

بحلول أوائل يونيو اندفع إلى العنف، حتى فريتز، فريتز الهادئ دائمًا، الذي لا يمكن زحزحته، بدأت تظهر عليه أعراض التمزق، وكنت أرى في عينيه أن سخرية سليم يمكن أن تصل إلى حد بعيد قبل أن يشعر رفيقه المغفل بالإهانة. صار الموضوع المتقدم لصلواتي - مشاجرة حقيقية - لكن حتى إذا لم يصل الأمر إلى ذلك، كنت أشعر بارتياح كبير حين أرى محادثتهما تتطور إلى مشاحنات طفيفة، تتكون غالبًا من تعنيف سليم لفريتز وعبوس فريتز في الركن، محددًا في الأرضية ومهمهمًا بلعنات خافتة. وكان ذلك يخفف بعض العبء عني، ومع أخطار كثيرة تلوح في الأفق كان من النعمة أن أنسى خمس دقائق أو عشر دقائق، كان هبة لا يمكن تخيلها.

يوميًا، كان الطقس يزداد حرارة بالتدريج لأشعر به أكثر ثقلًا على جلدي، لم يبد قط أن الشمس تغرب، وكنت أشعر بحكة من

(١) جزر الأنثيل الصغرى: مجموعة جزر في الكاريبي.

الحوال بشكل دائم تقريباً، مع ارتفاع الحرارة غزت العناكب الغرفة الخلفية التي كنت أقضي فيها معظم الوقت، كانت تجري على ساقي، وتغطي وجهي، وتضع بيضها في شعري، وبمجرد أن أبعد واحدا يعثر آخر عليّ، وكان البعوض يُلقِي بقنابله في أذني، والذباب يتسلل إلى ست عشرة شبكة مختلفة ويطن، والعرق يتدفق مني دون توقف، إذا لم تزعجني الزواحف الزاحفة، يزعجني الجفاف في حلقي، وإذا لم يكن العطش، يكون الحزن، انهيار قاس لإرادتي وتصميمي، كنت أتحول إلى عصيدة، بقعة تغلي في قِدر من اللعاب والفرو الرث، ومهما كافحت لأكون شجاعاً وقوياً، كانت هناك لحظات لا حيلة لي فيها، تتدفق فيها الدموع من عيني ولا تتوقف.

في عصر أحد الأيام، اقترح سليم مخبئي الصغير وضبطني وسط نوبة من نوبات البكاء، وقال: «لماذا أنت كئيب يا رفيق؟ ألا تعلم أن غداً يومك؟»

كان يقتلني أن يراني على هذا النحو، وهكذا أدركتُ رأسي دون رد، لم يكن لدي أدنى فكرة عما يتحدث عنه، وحيث إنني لم أكن أستطيع الكلام إلا بعيني، لم تكن هناك وسيلة يمكن أن أكتشف بها الأمر، بحلول ذلك الوقت لم يعد الأمر يبدو مهماً.

«يوم الدفع، يا رفيق. غداً نحصل على المال، وستكون رزمة صغيرة كاملة؛ خمسون ألف فتاة يرقصن ملتصقات في حقيبة بالية من القش، بالضبط كما أمر الطبيب، أليس كذلك يا بني؟ إنها خطة تقاعد بارعة، لأخبرك، وحين تعرف حقيقة أن هذه النقود لا تحمل علامات، أستطيع أن أنفق منها طوال الطريق إلى المكسيك ولن يستدل عليّ أحد من المسؤولين الفيدراليين.»

لم يكن لدي مبرر للشك فيه، كان يتحدث بسرعة شديدة، وعروقه نافرة جدًا، وبدا واضحًا أن شيئًا ما على وشك الحدوث، لكنني لم أرد. لم أشأ أن أمنحه الشعور بالرضا، فواصلت النظر بعيدا. بعد لحظة، جلس سليم على السرير أمام مقعدي. وأنا لم أرد بعد، مال إلى الأمام، وفك كمامتي وأبعدها عن فمي.

قال: «انظر إليَّ حين أتحدث إليك».

لكنني أبقيت عيني محدقتين في الأرض، رافضًا النظر إليه، ودون سابق إنذار، اندفع إلى الأمام وصفعني على الخد- صفعة عنيفة جدًا. نظرتُ إلى أعلى.

قال: «أحسن». كان عادة يبتسم لانتصاره الضئيل، لكنه تجاوز في ذلك اليوم مثل هذه الصغائر. تجهم، وفي الثواني القليلة التالية حلق في بقسوة شديدة، حتى ظننتُ أنني سأذوي في ملابسي. واصل: «أنت ولد محظوظ. خمسون ألف دولار، يا ابن أختي، هل تظن أنك تستحق كل هذا المبلغ؟ لم أعتقد قط أنه سيكون بهذا القدر، لكن الثمن ظل يتصاعد، ولم يجفلوا قط. زفت، يا فتى، لا أحد في العالم يستطيع أن ينتزع مني هذه التُّفَاحات، في السوق المفتوحة لم أحصل على أكثر من شلن أو اثنين- وذلك في اليوم الجيد، حين أكون في أسعد حالاتي وأجملها، ثم أرغم ذلك اليهودي على أن يقدم خمسين ألفا ليستردك، أظن أن ذلك يجعلك حالة خاصة، أليس كذلك؟ أم تظن أنه يخادع فقط؟ هل هذا ما هو مقبل عليه يا ابن أختي؟ هل يقطع وعودًا نائيًا عدم الوفاء بها؟»

كنت أنظر إليه، لكن لم يكن ذلك يعني أن لدي نية للرد على أسئلته. كان الخال سليم على رأسي تقريبًا، ملتفا مثل لاعب بيسبول

على حافة السرير، دافعاً وجهه في وجهي مباشرة، كان قريباً جداً، حتى إنني كنت أرى كل نبضة عرق في عينيه، كل المسام التي تشبه الحفر على جلده. كانت حدقتاه واسعتين، وكان يتنفس بصعوبة، وبدأ في كل ثانية وكأنه سيندفع إلى الأمام ويقضم أنفي.

قال، خافضاً صوته إلى همس: «والد الولد العجيب. صارت دائرة رائعة، أليس كذلك؟ والت... الولد... العجيب، سمع الجميع عنك، يا بني، أنت حديث البلاد كلها، رأيتك أنا نفسي تقدم عرضاً، كما تعرف، لم يحدث ذلك مرة واحدة، بل عدة مرات- ست مرات أو سبع مرات في السنة الأخيرة. لا يوجد شيء يشبه ذلك، أليس كذلك؟ قزم يمشي على الماء؛ إنها ألغن حيلة رأيتها في حياتي، أبرع هراء منذ الراديو، لا أسلاك، لا مرايا، لا أبواب سحرية، ما أداة التحايل، يا والت؟ كيف ترتفع عن الأرض بهذه الطريقة؟».

ما كنت لأحدث، ما كنت لأوجه له كلمة، لكن بعد التحديق فيه خلال الصمت لعشر ثواني أو خمس عشرة ثانية، قفز وضربني على صدغي بكفه، ثم صفعني على الفك باليد الأخرى.

قلت: «ليست هناك أداة للتحايل».

قال: «هو، هو، هو، هو، هو، هو».

«العرض بلا خداع، ليس هناك إلا ما تراه».

«وتتوقع أن أصدق ذلك؟».

«لا يعنيني ما تصدق، أقول لك: إنه لا توجد حيلة».

«الكذب خطيئة يا والت، تعرف ذلك، خاصة على كبارنا،
الكَذَّابُونَ يحترقون في الجحيم، وإذا لم تكف عن تقديم هذا الهراء
لي، فستذهب إلى هناك بالضبط، إلى نار الجحيم، ضع ذلك في
اعتبارك يا فتى، أريد الحقيقة، أريدها الآن».

«وهي ما أقدمه لك، الحقيقة كاملة ولا شيء غير الحقيقة،
وليساعدني الرب».

قال؛ ضارباً ركبتيه إحباطاً: «حسناً، إذا كنت تريد أن تلعب بهذه
الطريقة فسوف نلعب بها». نهض من على السرير وقبض عليّ
من الياقة، وانتزعني من مقعدي بضربة خاطفة بذراعه. «أرني
إذا كنت متأكداً من نفسك، سنخرج لتقدم عرضاً بسيطاً، لكن من
الأفضل أن تبرهن على ما قلت، أيها الفتى الحكيم، لا أقنع دون
دليل. تسمعني يا والت؟ العمل أو الصمت، ترتفع عن الأرض أو
تكون مخادعاً».

سحبني إلى الغرفة الأخرى، يصيح ويخطب ورأسي يُضرب
في الأرض والشظايا تطعن فروة رأسي. لم يكن هناك ما يمكن أن
أفعله لأقاوم، كانت الحبال مربوطة حول ذراعي وساقَي، وكان
أفضل ما أفعله أن أتلوى وأصرخ، متوسلاً الرحمة والدماء تنساب
خلال شعري.

أمر فريتز: «فكه. يقول الفتى: إنه يستطيع الطيران، وسنجعله
ينفذ ما يقول؛ لا أذار. إنه وقت العرض يا رجال، سيفرد والت
الصغير جناحيه ويرقص لنا في الجو».

رأيت وجه فريتز من موضعي على الأرض، وهو ينظر إلى سليم بخليط من الهلع والارتباك، ذهل الرجل البدين بشدة، لم يحاول حتى أن يتكلم.

قال سليم: «حسنًا؟ ماذا تنتظر؟ فكه».

تلعثم فريتز: «لكن يا سليم، المسألة هراء، نتركه يحلق في الجو، ليهرب منا بوضوح. بالضبط كما كنت تقول دائمًا».

«انسَ ما قلتُ، فك الحبال فقط، لنرى الهراء، أراهن على أنه لن يرتفع قدما عن الأرض، أو حتى بوصة. وحتى لو فعل، من يبالي؟ معي بندقيتي، أليس كذلك. طلقة في ساقه، ويسقط أسرع من بطة ملعونة».

بدا أن هذه المجادلة المخبولة أقنعت فريتز، هز كتفيه، وسار إلى منتصف الغرفة حيث وضعني سليم، وانحنى ليفعل ما أمر به، لكن حين حل فيها العقدة الأولى، اجتاحتني نوبة من الخوف والنفور. قلتُ: «لن أفعلها».

قال سليم: «أوه، ستفعلها»، كانت يداي حرتين، وتحول انتباه فريتز إلى الحبال حول ساقي، «ستفعلها طوال اليوم إذا طلبت منك».

انتحبتُ: «يمكن أن تطلق النار علي، يمكن أن تقطع رقبتني أو تحرقني لأصير رمادًا، لكن لا يمكن أن أفعلها بحال من الأحوال». ضحك سليم ضحكة خافتة وقصيرة، ثم رماني بطرف حذائه في ظهري، اندفع النفس مني مثل صاروخ وضربت الأرض من الألم.

قال فريتز وهو يحل العقدة الأخيرة حول كاحلي: «أؤ، اتركه يا سليم، حالته المزاجية سيئة، أي غبي يمكن أن يرى ذلك».

قال سليم، محولاً غضبه إلى رجل ضعف وزنه وثلاثة أضعاف قوته: «ومن طلب رأيك يا بدين».

قال فريتز وهو يلهث من المجهود وينهض من على الأرض: «كفى. تعرف أنني لا أحب أن تنادينني بهذه الأسماء».

صرخ سليم: «أسماء؟ عن أي أسماء تتحدث يا فشلة؟».

«تعرف. كل تلك الأشياء من قبيل بدين وفشلة، ليس طيباً أن تنادي رجلاً بهذا الشكل».

«صرنا حساسين، أليس كذلك؟ وبم يفترض أن أناديك إذًا؟ ألق فقط نظرة على المرأة وأخبرني بما ترى؛ ليس إلا جبلاً من اللحم، أسميه كما أراه، يا فشلة، تريد اسماً آخر، ابداً في إزاحة بعض الأبطال».

كان فريتز أكثر صبراً وأناة من أي رجل قابلته في حياتي، لكن هذه المرة دفعه سليم بعيداً جداً. شعرت بذلك؛ أحسست بذلك، وحتى وأنا راقد هناك الهت من أجل الهواء وأحاول أن أبرأ من الضربة التي تلقيتها في ظهري، فهمت أنها الانفراجة الوحيدة التي سنحت لي. كانت ذراعي وساقاي حرة، وكان صخب عدواني يتخمر فوق، وكل ما عليّ أن أقتنص لحظتي. جاءت حين تقدم فريتز خطوة باتجاه سليم ونخسه في الصدر، وقال: «لا تنادينني بهذا الشكل، وخاصة حين أطلب منك أن تكف».

دون صوت، بدأت أزحف باتجاه الباب، مندفعاً إلى الأمام بسلاسة وهدوء قدر المستطاع. سمعتُ ضربة. ثم كانت هناك ضربة أخرى، تلاها صخب أحذية تتعارك على الأرضية الخشب العارية. صراخ ونخر وكلمات قذرة تخرق تانجو الصنفرة، لكنني حينذاك كنت أدفع يدي على الحاجز، وكان لحسن الحظ تالفاً جداً بحيث لا يعترض طريقي. فتحتّه بدفعة واحدة، وزحفت إلى الأمام نصف قدم أو نحو ذلك، ثم اندفعت في ضوء الشمس، هابطاً بكتفي أولاً على القذارة الخشنة في داكوتا الجنوبية.

بدت عضلاتي غريبة ورخوة تماماً. حين حاولت الوقوف، لم أتعرف عليها، كانت غبية معي، ولم أستطع أن أشغلها، بعد هذا الحبس والسكون لفترة طويلة، صرت مهرجا متيبساً. كافحت لأقف على قدمي، لكنني كنت أتعثر بمجرد أن أخطو خطوة. أسقط وأنهض، وأخطو ياردة أخرى أو اثنتين إلى الأمام، ثم أسقط مرة أخرى، لم يكن لدي ثانية أضيعها، وهناك كنت أترنح مثل سكير، وبطني يرتج بين كل ثالث خطوة أو رابع خطوة، بإصرار تام، وصلتُ إلى سيارة سليم، سيارة قديمة منبعجة تقف بجوار المنزل. حولتها الشمسُ إلى فرن، وحين أمسكتُ بمقبض الباب، كان المعدن سخناً بدرجة جعلتني أصرخ تقريبا، ولحسن الحظ كنت أعرف كيف أتعامل مع السيارات. علمني الأستاذ القيادة، ولم أجد مشكلة في تنزيل فرامل اليد، وسحب الفتيس وإدارة المفتاح. لكن لم يكن هناك وقت لضبط المقعد، كانت ساقاي قصيرتين جداً، وكانت الوسيلة الوحيدة لأتمكن من وضع قدمي على دواسة البنزين أن أنزلق إلى

أسفل، معلقاً في عجلة القيادة من أجل حياة عزيزة، أوقفت أول سعة للمحرك المعركة داخل الكابينة وفي اللحظة التي دارت فيها السيارة كان سليم يندفع من الباب ويدعو باتجاهي وبندقيته في يده، انطلقت على شكل قوس، محاولاً أن أحافظ على أكبر مسافة بيني وبينه قدر المستطاع، لكن اللعين كان يتفوق على ولم أستطع أن أبعد يدي عن عجلة القيادة لأنقل إلى السرعة الثانية، رايتُ سليم يرفع البندقية ويحدد هدفاً، بدلاً من أن انحرف يميناً انحرفتُ يساراً، منطلقاً إليه مباشرة بالرفر، صدمته فوق الركبة مباشرة وارتد وسقط على الأرض، منحني ذلك بضع ثوانٍ لأتصرف فيها، قبل أن يتمكن سليم من الوقوف، عدلتُ عجلة القيادة وسرتُ في الاتجاه الصحيح. نقلت إلى السرعة الثانية وضغطتُ على الدواسة حتى النهاية، انطلقت طلقة واصطدمتُ بالزجاج الخلفي، وحطمت الزجاج من خلفي، واصطدمت طلقة أخرى في لوحة العدادات، وفتحت ثقباً في باب الدرج. تلمست طريقي بقدمي اليسرى إلى الفتيس، ونقلت إلى السرعة الثالثة، وابتعدت، دفعت السيارة إلى ثلاثين ميلاً، إلى أربعين ميلاً في الساعة، مندفعاً على الأرض الخشنة مثل غلام على حصان وأنا أنتظر أن تأتي الطلقة التالية لتمزق ظهري؛ لكن لم تكن هناك طلقات أخرى، تركتُ ذلك الطريق المزعج في الغبار، وحين وصلتُ إلى الطريق بعد دقائق، كنت حراً.

هل

كنت سعيداً برؤية الأستاذ مرة أخرى؟ يمكنك أن تراهن على حياتك بأنني كنت سعيداً، هل دق قلبي فرحاً حين فتح ذراعيه ولفني في عناق طويل؟ نعم، دق قلبي فرحاً. هل بكينا على حظنا السعيد؟ بالطبع بكينا. هل ضحكنا واحتفلنا ورقصنا مائة رقصة؟ فعلنا كل ذلك وأكثر.

قال الأستاذ يهودي: «لن أتركك بعيداً عن عيني مرة أخرى أبداً».

وقلتُ: «لن أذهب إلى أي مكان من دونك أبداً بقية حياتي».

هناك قول مأثور عن عدم تقدير ما تملكه حتى تفقده، بقدر صحة هذه الحكمة، لا يمكن أن أقول: إنها انطبقت عليّ من قبل. كنت أعرف أنني ضائع طوال الوقت: منذ اللحظة التي حُمِلْتُ فيها من دار السينما في نورثفيلد بولاية مينيسوتا، إلى اللحظة التي وضعتُ عيني فيها على الأستاذ في مدينة ربيد، في ولاية داكوتا الجنوبية، على مدار خمسة أسابيع ونصف كنت أنعي فقدان كل ما كان جيداً ونفيساً بالنسبة لي، وأقف الآن أمام العالم لأختبر أنه لا شيء يمكن أن يساوي حلاوة أن تستعيد ما أخذ منك، من بين كل الانتصارات التي حققتها، لم أنتشِ لانتصار أكثر مما انتشيت للحقيقة البسيطة، حقيقة أن حياتي عادت إليّ.

اجتمع الشمل في مدينة ربيد لأن المقام انتهى بي إلى هناك بعد هروبي، بخيلاً كعادته، أهمل سليم حالة سيارته، وانتهى الوقود من الخزان قبل أن أكمل عشرين ميلاً. ولولا بائع مسافر التقطني قبل

الظلام بالضبط، ربما كنت لا أزال أتجول الآن في بادلاندرز، باحثًا دون طائل عن مساعدة، طلبتُ منه أن يوصلني إلى أقرب نقطة شرطة، وبمجرد أن تعرف عليّ رجال الشرطة عاملوني وكأنني ولي عهد بوليبول. قدموا لي حساء وهوت دوجز كوني أيلند، أعطوني ملابس وأخذتُ حمامًا دافئًا، وعلموني لعب البينكول بالكوتشينة، بوصول الأستاذ عصر اليوم التالي، كنت قد تحدثت بالفعل مع مجموعة كبيرة من الصحفيين والتقطت لي أربعمئة صورة، كان اختطافي موضوعًا في الصفحة الرئيسية لأكثر من شهر، وحين جاء مراسل صحفي من صحيفة محلية يستطلع حول نقطة الشرطة بعض آخر الأخبار، عرفني من صوري وكتب الخبر، تدفقت الكلاب البوليسية والباحثين عن مصائب الآخرين بعد ذلك، تدافعت الفلاشات مثل الألعاب النارية من حولي، وتفاخرتُ من الساعات المبكرة من الصباح، وأنا أروي قصصًا غريبة عن احتيالي على الخاطفين وفراري منهما قبل أن يتمكنوا من مقايضتي بالفدية، أفترض أن الحقائق المجردة كانت كافية، لكنني لم أستطع مقاومة الرغبة الشديدة في المبالغة، استمتعت بشهرتي الجديدة، وبمرور الوقت دخلت من الطريقة التي ينظر إليّ بها أولئك الصحفيون، متطلعين إلى كل كلمة أقولها، كنتُ استعراضيا رغم كل شيء، وكنت سعيدًا بجمهور من هذا القبيل، ولم يطاوعني قلبي على أن أخذلهم.

أوقف الأستاذ هذا الهراء لحظة دخوله، شغلت أحضاننا ودموعنا كل انتباهي طوال الساعة التالية. لكن لم ير الجمهور شيئًا من ذلك، جلسنا معًا في الغرفة الخلفية في نقطة الشرطة، ننتحب وكل منا بين

ذراعي الآخر وضابطان يحرسان الباب. بعد ذلك، تمت المحاضر، وتوقيع الأوراق، ثم انطلقنا إلى الخارج، نخترق حشدًا من الحمقى والمهنيين في الشارع، انطلق التهليل ودوت الهتافات، لكن الأستاذ اكتفى بوقفة طويلة ليبتسم ولوّح مرة للفضوليين قبل أن يدفعني إلى سيارة بها سائق تقف على حافة الطريق. بعد ساعة ونصف، كنا نجلس في مقصورة خاصة في قطار يتجه شرقًا، إلى نيو إنجلاند والشواطئ الرملية لكيب كود^(١).

لم أدرك قبل حلول الليل أننا لن نتوقف في كانساس. مع الكثير جدا من الأمور التي يجب القيام بها مع الأستاذ، والكثير جدا من الأشياء التي يجب وصفها وتفسيرها وحكيها، كان رأسي يرتج مثل ماكينة خض اللبن، ولم أسأل عن مسز ويذرسيون قبل أن تنطفئ الأنوار ونندس في مضاجعنا، مرت ست ساعات مع الأستاذ، ولم يُذكر اسمها مرة. قلت: «كيف تسير الأمور في ويتشيتا؟ أليست مكانا طيبا لنا مثل كيب كود؟».

قال الأستاذ: «مكان رائع، لكنه حار جدا في هذا الوقت من السنة؛ سيكون المحيط طيبًا بالنسبة لك يا والت، سوف تسترد عافيتك أسرع».

«وماذا عن مسز ويذرسيون؟ متى تخطط للالتحاق بنا؟».

«لن تلتحق بنا هذه المرة يا بني».

(١) كيب كود: شبه جزيرة في شمال شرق ماساشوسيتس تمتد شرقًا وشمالًا في المحيط الأطلنطي.

«لماذا؟ تتذكر فلوريدا، أليس كذلك؟ أحببتها كثيراً جداً، كان علينا فقط أن نسحبها من المياه، لم أر قط شخصاً أسعد منها وهي تخوض بين الأمواج».

«ربما كان الأمر كذلك، لكنها لن تمارس أية سباحة هذا الصيف، على الأقل معنا».

تنهد الأستاذ يهودي، مالنا الليل بصوت رفرقة رقيقة كنيية، ورغم أنني كنت ميتاً من التعب، على وشك النوم، بدأت ضربات قلبي تسرع، وتندفع داخلي مثل إنذار.

قلت محاولاً ألا أظهر قلقي: «أوه. ولماذا؟».

«لم أكن لأخبرك الليلة، لكنك وقد أثرت الموضوع الآن، لا أظن أنه يوجد مبرر لكتمان».

«بم تخبرني؟».

«ليدي ماريون على وشك أن تحسم الأمر».

«الأمر؟ أي أمر؟».

«خطبت لنتزوج، إذا سار كل شيء طبقاً للخطة، فسوف تدخل عش الزوجية قبل عيد الشكر».

«تقصد تتزوج؟ تقصد ترتبط بالزواج بقية حياتها؟».

«نعم، بخاتم في إصبعها وزوج في سريرها».

«وهذا الزوج ليس أنت؟».

«مستحيل، أنا هنا معك، أليس كذلك؟ كيف يمكن أن أكون معها هناك إذا كنت معك هنا؟».

«لكنك حبيبها، لا يحق لها أن تتخلص منك على هذا النحو، لا يحق لها دون موافقتك».

«كان عليها أن تفعل ذلك وما كان لي أن أقف في طريقها، تلك المرأة نادرة جدا يا والت، ولا أريد أن تنطق بكلمة ضدها».

«سأفوه بكل الكلمات التي أريدها، شخص يسيء إليك، أنطق بأعنف الكلمات ضده».

«لم تسئ إليّ. يداها مقيدتان، قطعت وعدًا لا تستطيع كسره، لو كنت مكانك يا فتى لشكرتها على وفائها بذلك الوعد كل ساعة طوال الأعوام الخمسين التالية».

«أشكرها؟ أبصق على تلك البغي يا أستاذ، أبصق على تلك العاهرة ذات الوجهين التي أساءت إليك، والعنها».

«لا تفعل ذلك قبل أن تعرف لماذا فعلت ذلك، كل ذلك بسببك أيها الفتى، خاطرت بنفسها من أجل وضع اسمها والتر كليربورن رولي، وكان ذلك من بين أكثر الأمور، التي رأيت شخصًا يفعلها، شجاعة وإيثارا».

”هراء، لا علاقة لي بذلك، لم أكن حتى هناك“.

”خمسون ألف دولار يا رفيق، هل تظن أن هذا المبلغ ينمو في الأحراش؟ حين بدأت رسائل الفدية تأتي، كان علينا أن نتصرف بسرعة“.

”إنه مبلغ كبير بالتأكيد، لكن لا بد أننا كسبنا ضعفه“.

”ولا حتى قريبا منه، لم نستطع أنا وماريون أن نقسم ذلك المبلغ بيننا، حققنا الكثير لأنفسنا يا والت لكن ليس كما تعتقد، الأعباء هائلة. فواتير الفنادق، الانتقال، الدعاية- كل ذلك يجمع، ونحافظ على رؤوسنا فوق الماء بالكاد“.

”أوه“، قلت وأنا أقوم ببعض العمليات الحسابية السريعة في ذهني عن المبالغ التي لابد أننا أنفقناها- ودخت أثناء العملية.

”أوه، حسنا، ماذا علينا أن نفعل؟ ذلك هو السؤال. إلى أين نمضي قبل فوات الأوان؟ يخذلنا القاضي العجوز ويذرسبون، لم يتحدث إلى ماريون منذ قتل شارلي نفسه، ولم يكن على وشك أن يقطع صمته الآن، تسخر البنوك، لن يمسننا المرابون، وحتى إذا بعنا المنزل، لن نفى بالمبلغ، وهكذا ماذا نفعل- ذلك هو السؤال الذي نغص علينا حياتنا. الساعة تدق، ومع كل يوم نفقده كان الثمن يتصاعد فقط“.

”خمسون ألف دولار لإنقاذي“.

”وكان ثمننا بخسًا أيضًا، بالنظر إلى الحصيلة المتوقعة من شباك التذاكر في الأعوام القادمة، ثمننا بخسًا، لكنه لم يكن في متناول أيدينا“.

”إلى أين ذهبتما إذا؟“

”كما أتأكد من أنك فهمت الآن، مسز ويذرسبون امرأة متعددة المفاتن والإغراءات. ربما أحتل مكانا خاصا في قلبها، لكنني لست الرجل الوحيد الذي فتن بها. تعج بهم ويتشيتا، يكمن خطابها خلف كل سياج وكل حنفية حريق. أحدهم، شاب من أقطاب الحبوب

اسمه أورفيل كوكس، تقدم إليها خمس مرات في العام الأخير، وأنا وأنت نتجول في الضواحي، عاد أورفيل الشاب إلى البلدة، ضاغطاً على قضيته بقوة. رفضته ماريون بالطبع، لكن ليس دون بعض الحزن والندم، وكلما قالت لا، أظن أن ذلك الحزن والندم يصيران أقوى قليلاً، هل تريد أن أروى المزيد؟ تحولت إلى مومس من أجل الخمسين ألفاً، مبلغ كان يود أيضاً أن يشارك به، لكن فقط بشرط أن تهجرني وتتزوجه.“

”إنه ابتزاز.“

”بشكل ما؛ لكن أورفيل في الحقيقة ليس هذا الشخص السيئ، غبي إلى حد ما، ربما، لكن ماريون تخوض في الموضوع مفتوحة العينين.“

غمغمتُ، وأنا لا أدري ماذا أفعل بهذا كله: ”حسنًا، أظن أنني آدين لها باعتذار، تصرفتُ من أجلي مثل فارس حقيقي.“

”ذلك ما فعلته، مثل بطة حقيقية.“

واصلت، وأنا لا أريد أن أستسلم: ”لكن، لكن ذلك كله انتهى الآن، أقصد أن كل الرهانات خاسرة، هربت من سليم وحدي، وليس على أحد أن يدفع خمسين ألفاً. لا تزال الأموال الفاسدة مع أورفيل، وذلك يعني حقاً أن مسز ويذرสบون التي نعرفها لا تزال حرة.“

”ربما كما تقول، لكنها لا تزال تخطط للزواج منه؛ تحدثتُ معها أمس، وكانت الأمور كما ذكرتُ، تنوي أن تستمر.“

”ينبغي أن نوقف ذلك يا أستاذ، هذا ما ينبغي أن نفعله، نقتحم العرس مباشرة ونختطفها“.

”مثل الأفلام بالضبط، إيه يا والت؟“ لأول مرة يطلق الأستاذ ضحكة منذ بدأنا هذه المحادثة المرعبة.

”تنطلق مباشرة، بالضبط مثل فيلم سينمائي“.

”اتركها تذهب يا والت، إنها مصممة على ذلك، وليس هناك ما يمكننا القيام به لإيقافها“.

”لكنها غلطتي، ما كان لشيء من هذا أن يحدث لولا هذا الاختطاف القذر“.

”إنها غلطة خالك يا بني وليست غلطتك، ولا ينبغي أن تلوم نفسك- لا الآن ولا في أي وقت- اهدأ- مسز ويدرسبون تفعل ما تريد، ولن يضايقنا ذلك. مفهوم؟ علينا أن نتصرف كسادة مهذبين، لا نقف في طريقها، ونرسل لها أجمل هدية زفاف رأتها عروس، لننم الآن. أمامنا الكثير من العمل، ولا تقلق بشأن هذا الأمر ثانية أخرى. انتهى الأمر. أسدل عليه الستار، والفصل التالي على وشك أن يبدأ“.

مارس الأستاذ يهودي في حديثه مباراة جيدة لكن حين جلسنا للفتور في عربة الطعام في صباح اليوم التالي، بدا وجهه شاحباً ومضطرباً- كأنه ظل مستيقظاً طوال الليل، يحدق في الظلام ويتأمل نهاية العالم، خطر في ذهني أنه يبدو أنحف مما كان في الماضي، وتساءلت: كيف لم ألاحظ ذلك في اليوم السابق؟ هل أعمتني السعادة؟ نظرت بدقة أكثر، متفحصاً وجهه بأقصى ما أستطيع من التجرد، لم يكن هناك شك في أن شيئاً ما تغير فيه، تغضن جلده وشحب، زحف

إنهاك معين إلى التجاعيد حول عينيه، وعموما بدا هزياً إلى حد ما، أقل هيبة مما أتذكر. كان تحت التهديد، رغم كل شيء - في البداية محنة اختطافي، ثم صفة فقدان امراته - لكنني كنت أمل أن يكون ذلك كل ما هناك، من وقت لآخر، كنت أظن أنني لاحظتُ إجحالا ضئيلاً وهو يعض طعامه، وذات مرة، قرب نهاية الوجبة، رأيت بشكل قاطع يده تندفع تحت الطاولة وتمسك ببطنه. هل كان مريضاً، أم أنها ببساطة نوبة عابرة من سوء الهضم؟ وإذا كان مريضاً، ما مدى سوء الحالة؟

لم ينطق بكلمة، بالطبع، وحيث إنني كنت أبدو معتلاً جداً أنا أيضاً، نجح في أن يبقى الضوء مسلطاً عليّ طوال تناول الفطور. قال: "كُلْ. تضاءلت إلى عصا. كل بسكويتك يا بني، وسأطلب لك المزيد، علينا أن نضع بعض اللحم على عظامك، لتستعيد قوتك كاملة".

قلتُ: "أفعل ما أستطيع، لم أكن في فندق راق. عشتُ على غذاء ثابت يشبه طعام الكلاب مع أولئك المتسكعين، وتقلصت معدتي وصارت في حجم حبة بسلة".

وأضاف الأستاذ، وهو يراقبني وأنا أكافح لأتي على آخر شريحة من لحم الخنزير المملح: "ثم هناك مشكلة جلدك، علينا أن نفعل شيئاً من أجل ذلك أيضاً، كل هذه البقع. يبدو وكأنك مصاب بحالة من الجديري".

"لا، سير، أنا مصاب ببثور، وأحياناً تلتهب بهذا الشكل، تؤذيني حين أبتسم".

”بالطبع تؤذيك، صار جسمك البائس هزيلًا من كل ذلك الأسر، محبوسا دون أشعة شمس، والعرق يتدفق ليلا ونهارًا - لا عجب في أن ترتبك، سيجعلك الشاطئ في حالة طيبة جدا، يا والت، وإذا لم تشف من هذه البثور، سأوضح لك كيف تعتني بها وتمنع ظهور البثور الجديدة، كان لدى جدتي علاج سري، لم يفشل قط.“

”تقصد أنني ليس عليّ أن أعدل وجهي“.

”هذا الوجه حسن، إذا لم يكن به الكثير من النمش، ما كان ليبدو سيئًا جدا، وجود هذا النمش مع حب الشباب يولد تأثيرًا كبيرًا. لكن لا تحزن يا بني؛ بعد وقت قصير لن يكون عليك أن تقلق إلا على اللحية والشارب- وهما دأمان، يبقيان معك حتى النهاية المريرة“.

قضينا أكثر من شهر في منزل ساحلي صغير على شاطئ كيب كود- يوميا يحاصرني الخال سليم- أجره الأستاذ باسم مستعار ليحميني من الصحافة، وبهدف البساطة والتقاليد أخذنا وضع أب وابن. كان ”باك“ الاسم المستعار الذي اختاره. تيموثي باك لنفسه وتيموثي باك الثاني لي، أو تيم باك الأول وتيم باك الثاني. ضحكنا كثيرا على ذلك، وكان الشيء المضحك أن الاسم لم يكن يختلف كثيرا عن تيمباكتو حيث كنا، على الأقل بقدر ما يوضع البعد في الاعتبار: عاليًا على نتوء يطل على المحيط، دون أي جيران على بعد أميال. تأتي امرأة اسمها مسز هوثرن بالسيارة يوميًا من ترورو لتطبخ وتنظف لنا، لكن باستثناء التحدث معها، بقينا في حالنا تمامًا. جلسنا في الشمس، وسرنا مسافات طويلة على الشاطئ، وتناولنا حساء الحلزون الصدفي، ونمنا عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة كل ليلة. بعد أسبوع من هذا النظام المتراخي، شعرت بأنني في

حالة تجعلني أحاول التحليق مرة أخرى. بدأ الأستاذ معي ببطء، بتدريبات على الأرض؛ تمرين الضغط، والوثب مع رفع اليدين، الجري على الشاطئ وحين حان الوقت لاختبار الجو مرة أخرى، كنا نعمل خلف المنحدر، حيث لا تستطيع مسر هوثرون أن تتجسس علينا. كنت بطيئاً بعض الشيء في البداية، وتعرضت لبعض التخطئ والسقوط، لكنني بعد خمسة أيام أو ستة استعدتُ لياقتي القديمة، برشاقة ومرونة كما كنت دائماً. كان الهواء المنعش معالِجاً عظيماً، وحتى إذا لم يفعل علاج الأستاذ كل ما وعد به (فوطه دافئة منقوعة في محلول ملحي وخل وأدوية قابضة من الصيدلية، توضع على وجهي كل أربع ساعات)، بدأ نصف البثور يتلاشى تلقائياً، دون شك نتيجة أشعة الشمس والغذاء الجيد الذي عدت إلى تناوله.

أعتقد أن قوتي كان يمكن أن تعود بشكل أسرع لولا عادة كرهية اكتسبتها أثناء هذه الإجازة بين الكثبان وأبواق السفن. وقد صارت يداي حرة الحركة مرة أخرى، بدأتاً تتصرفان باستقلالية لافتة. كانتا ممثلتين بشهوة التجوال، تتلملان برغبة شديدة في أن تتجولا وتستكشفاً، وبصرف النظر عن عدد المرات التي طلبت منهما فيها أن تتوقفاً، كانت ترحلان حيثما تشاءان، كان عليّ فقط أن أزحف تحت الغطاء في الليل، لتصرأ على التحليق إلى البقعة الحارة التي تفضلانها، مملكة الغابة جنوب خط الاستواء مباشرة. هناك كانتا تزوران صديقهما، أعظم الأصابع، الإصبع المفعم بكل القوة الذي حكم العالم بالتخاطر الذهني. عندما ينادي لا شيء يقاوم. كانت يداي في عبوديته، وإذا لم أقيدهما في الحبال مرة أخرى، لم يكن أمامي إلا أن أمنحهما حريتهما. وهكذا صار جنون أيسوب جنوني وهكذا ارتفع قضيبني ليسيطر على حياتي. لم يعد يشبه مسدس الرش

الصغير الذي كورته ذات يوم مسز ويذرسبون في كفها؛ اكتسب حجما وقواما منذ ذلك الوقت، وصارت كلمته قانونا. كان يتوسل أن ألمسه وكننت ألمسه، وكان يصيح ليدلّل ويُجذّب ويُعتصر، وكننت أنحني لنزواته بقلب مستعد، من يبالي إذا أصابني العمى؟ من يبالي إذا تساقط شعري؟ كانت الطبيعة تنادي، وكل ليلة أعدو إليها بتلهف وجوع مثل آدم نفسه.

وبالنسبة للأستاذ، لم أكن أعرف فيما يفكر، كان يبدو أنه يستمتع، وبينما تحسن دون شك مزاجه ولونه، شاهدت ثلاث نوبات أو أربعا من الإمساك بالمعدة، وكان وخز الوجه يحدث بانتظام، كل ثاني وجبة أو ثالث وجبة. لكن روحه المعنوية لم تكن أكثر تألقا، وحينما لا يقرأ في كتاب سبينوزا أو يعمل معي في العرض، كان يشغل نفسه بالتليفون، يتباحث حول إجراءات جولتي القادمة، صرّت مهمّا. كان الاختطاف وراء ذلك، وكان الأستاذ يهودي مستعدّا تمامًا لاستغلال كل مزايا الوضع، على عجل مراجعًا خططه بشأن مساري المهني، جعلنا نستقر في معتزل كيب كود ومضى في الأمور المزعجة. كان بمسك بالأمور ويتحمل الصعاب، كان يفرض شروطًا، ويضغط للحصول على نسب جديدة غير مسبقة من وكلاء الحجز، يتطلب ضمانات لا يناظرها إلا أكبر العقود، وصلت إلى القمة أسرع مما توقع أي منا، وقبل أن ينتهي الأستاذ من اتفاقياته، تم الحجز لي في رقم قياسي من المسارح بطول الساحل الشرقي، سلسلة مواقع ليلة وليلتين تجعلنا نعمل باستمرار حتى نهاية السنة، ليس فقط في بلدات صغيرة وقرى- في مدن حقيقية، أمكنة من الصف الأول كنت أحلم بالذهاب إليها دائما. بروفيدنس ونيوارك؛ نيو هافن وبلتيمور؛ فلايدلفيا وبوسطن ونيويورك. انتقل العرض للداخل ومن ذلك

الوقت ستكون المخاطر عالية، قال الأستاذ: «لم يعد هناك سير على المياه، ولم تعد هناك ملابس فلاح، ولم يعد هناك معارض مقاطعات وغرفة نزاهات تجارية، أنت الآن فنان جوي يا والت، الوحيد من نوعه، وسيدفع الناس أعلى سعر ليروك وأنت تؤدي عروضك، يرتدون أفخم الملابس ويجلسون في مقاعد مكسوة بالقطيفة الفاخرة، وبمجرد أن يطفئ المسرح أنواره وتسلط الكشافات عليك، تخرج عيونهم من رؤوسهم، يموتون ألف ميتة يا والت. تتبختر وتلف أمامهم، وواحدًا واحدًا يتتبعونك بين نجوم السماء. وحين ينتهي العرض سيكونون جالسين في حضرة الرب».

هكذا تكون تقلبات الحظ، كان الاختطاف أسوأ ما حدث لي إطلاقًا، وتبين أنه انطلاقتي الكبرى، الوقود الذي دفعني إلى المدار؛ مُنِحتُ ما يعادل شهرًا من الدعاية المجانية، وحين تخلصت من قبضة سليم، كنت بالفعل اسمًا معروفًا، القضية الأولى في العالم. أثار خبر هروبي زوبعة، إحساسًا ثانيًا على قمة الأول، وبعد ذلك لم أكن أستطيع أن أقترف خطأ، لم أكن ضحية فقط، كنت بطلاً، قدرًا عظيمًا من الحيوية والشجاعة، وتجاوز الأمر الشفقة، كنت محبوبًا. كيف أصور هذا الأمر؟ أُلقيتُ في الجحيم، كنت مقيدًا ومكتمًا ومستسلمًا للموت، وبعد شهر كنت محبوب الجميع. يكفي الأمر ليقدر ذهنك، ليطش ذلك الشيء في منخارك، كانت أمريكا تحت قدمي، ومع رجل مثل الأستاذ يهودي يشد الأوتار، وكانت الاحتمالات أن يبقى ذلك فترة طويلة.

تفوقْتُ على الخال سليم، حسنا، لكن ذلك لم يغير حقيقة أنه لا يزال طليقان غار رجال الشرطة على الكوخ في داكوتا الجنوبية،

ولم يجدوا، باستثناء فوضى البصمات وكومة من الغسيل القذر، أثرًا للجنة. أفترض أنه كان ينبغي أن أفرع، استعدادًا لمزيد من المشاكل، لكن من اللافت تمامًا أنني لم أقلق كثيرًا. كان الجو هادئًا جدًا في كيب كود بدرجة تحول دون ذلك، وقد تفوقت على خالي مرة، كنت أشعر بالثقة في أنني أستطيع أن أحقق ذلك مرة أخرى- ناسيًا بسرعة كم كان الخطر قريبًا. لكن الأستاذ يهودي وعد بحمايتي وصدقته. ما كنت لأذهب إلى دار للسينما بعد ذلك وحدي قط، وطالما كان معي أينما ذهبتُ، ماذا يمكن أن يحدث؟ بدأ تفكيري في الاختطاف يقل تدريجيا بمرور الأيام، وحين أفكر فيه، كان ذلك لأستعيد هروبي وأتساءل عن مدى الأذى الذي ألحقته بساق الخال سليم بالسيارة، كنت أتمنى أن يكون أذى حقيقيًا- أن يكون الرفرف قد أصابه في الركبة، ربما بما يكفي لكسر العظام، أرغب في أن أكون قد ألحقت به ضررًا خطيرًا، ليسير وهو يعرج طوال حياته.

لكنني كنت مشغولاً جدًا بأشياء أخرى تحول دون الشعور برغبة شديدة في النظر إلى الخلف، كان النهار ممتلئًا، مزدحمًا بالاستعدادات والتدريبات لعرضي الجديد، ولم يكن هناك أيضًا فراغ في بطاقة الرقص الليلي، بالنظر إلى مدى استعداد قضيتي للمداعبة والتسلية، بين هذه الأعمال الليلية الطائشة وإجهاد العصر، لم يكن لدي لحظة إضافية للعبث أو الشعور بالفزع. لم أفكر في سليم، ولم أستغرق في الزواج الوشيك لمسز ويذرسيون، انصب تفكيري على مشكلة أكثر إلحاحًا، وكان ذلك كافيًا لأبقى مشغولاً: كيف أعيد صناعة والت الولد العجيب عارضًا مسرحيًا، مخلوقًا مناسبًا لمتطلبات المسرح الداخلي.

خضت أنا والأستاذ يهودي محادثات طويلة في هذا الموضوع، وتوصلنا إلى الطرق الجديدة بالمحاولة والخطأ غالباً، ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، نقف على الشاطئ العاصف نجري التغييرات والتصويبات، مكافحين ليجري الأمر بشكل مناسب وأسراب النورس تصيح وتحلق فوقنا. نود استغلال كل دقيقة. كان ذلك مبدأنا الهادي، هدف كل جهودنا وحساباتنا النشيطة. في الأحراش قدمت كل العروض لنفسى، ساعة كاملة من الأداء، وربما أكثر إذا كانت حالتى المزاجية طيبة، لكن حفلة المنوعات شيئاً مختلفاً. سأشارك فى القائمة مع عروض أخرى، وينبغي أن يتقلص البرنامج إلى عشرين دقيقة. سنفقد البحيرة، سنفقد تأثير السماء الطبيعية، سنفقد عظمة انطلاقاتي مائة ياردة وتبخر الحركة، ينبغي ضغط كل شيء فى فضاء أصغر، لكن بمجرد أن بدأنا نستكشف مداخل الموضوع ومخارجه، رأينا أن الأصغر لا يعنى الأسوأ بالضرورة. فى حوزتنا أدوات جديدة، وتكمن الحيلة فى أن نحولها لصالحنا: أولاً- لدينا أضواء. انبهرت أنا والأستاذ بفكرتها؛ متخيلين احتمالات التأثيرات التى تخلقها، يمكن أن نتحول من العتمة التامة إلى السطوع فى طرفة عين- والعكس بالعكس. يمكن أن نظم القاعة تماماً، ونسلط الأضواء من مكان إلى آخر، ونتلاعب بالألوان، مما يجعلني أظهر وأختفى كيفما أشاء. وهناك الموسيقى، التى يمكن أن تبدو أكثر ثراء ورئياً حين تُعزَف فى الداخل، لن تضيق فى الخلفية، لن يغطي عليها صخب المرور والملاهى، تصبح الأدوات جزءاً مكملًا للعرض، وتبحر بالجماهير فى بحر من المشاعر المتغيرة، تلمح ببراعة للجمهور بالطريقة التى ينبغي أن يتفاعل بها، الآلات الوترية والأبواق وآلات النفخ، والطبول: لدينا محترفون فى الحلبة

كل ليلة، وحين نخبرهم بما عليهم عزفه، يعرفون كيف ينفذونه، لكن أفضل شيء، سيكون الجمهور أكثر راحة، لا يشتمهم طنين الذباب ووهج الشمس، وهناك احتمال أقل لأن يتحدث الناس ويفقدوا تركيزهم، يحيني سكون في لحظة رفع الستار، ومن البداية إلى النهاية يتم تنظيم العرض، متقدماً مثل الساعة من أعمال بسيطة إلى النهاية الأعنف والأكثر قدرة على الإبهار في مسرح حديث.

وهكذا ناقشنا أفكارنا، قلبناها على كل الأوجه لمدة أسبوعين، وفي النهاية توصلنا إلى خطة برنامج للعمل، قال الأستاذ: «شكل وترابط، بنية وإيقاع ودهشة». لن نقدم لهم مجموعة عشوائية من الحيل، سيتكشف العرض مثل قصة، وتدرجياً يزداد التوتر، ونقود الجمهور إلى إثارة أكبر وأفضل ونحن نتقدم، مدخرين أفضل الأعمال وأكثرها إثارة للنهاية.

لا يمكن أن تكون الملابس أكثر أهمية: قميص أبيض مفتوح عن الياقة، بنطلون أسود واسع، وفي قلمي حذاء أبيض من أحذية الرقص، كان الحذاء الأبيض أساسياً، عليك أن تلاحظه فوراً، إنه يخلق أكبر تقابل ممكن مع الأرضية البنية على خشبة المسرح. مع عشرين دقيقة فقط للعمل، ليس هناك وقت لتغيير الملابس أو لمزيد من الدخول والخروج. جعلنا العرض متصلاً، يُؤدَّى دون توقف أو مقاطعة، لكننا قسمناها في عقلنا إلى أربعة أجزاء، وتدريبنا على كل جزء بشكل منفصل، كان كل جزء فصل في مسرحية:

الجزء الأول: كلارينت منفرد، يعزف بضع أنغام رعية؛ يوحى للحن بالبراءة، بالفراشات، بتمايل الزهور في النسيم. ترفع الستار على مسرح خال ساطع الإضاءة. أدخل، ولمدة دقيقتين أتصرف

وكأنني لا أعرف شيئاً، ساذج مرتبك تماماً. ارتطم بأشياء غير مرئية ملقاة حولي، مواجهها عقبة بعد أخرى والكلارينت يصاحبها مزمار يدمدم، أتعثر في حجر، أحرك أنفي على جدار، وأعلق إصبعي في باب. أكون صورة للعجز الإنساني، غيباً يتعثر ويقف على الأرض بالكاد- ناهيك عن التحليق فوقها- في النهاية، بعد أخطاء عديدة متقاربة، أسقط منبطحاً على وجهي. يصدر الترومبون نغمات متتالية منخفضة، أصدر بعض الضحكات. أكرر. لكن حتى بشكل أكثر حماقة من المرة الأولى. مرة أخرى الترومبون المنزلق، يليه النقر على الطبللة الوترية، ضربة على الطبللة المستديرة. سماء تمثيلية هزلية، وأنا لي هدف آخر مع أمر بالغ الخطورة، وعلى الفور أنهض وأخطو خطوة لتصطدم قدمي في مزلاج وأسقط مرة أخرى، صراخ وضحك، أكافح لأقف على قدمي، وأترنح وأنا أتخلص من الارتباك، وبعد ذلك، والجماهير على وشك الحيرة، بالضبط حين يبدو أنني أحمق تماماً، أقدم أول شيء.

الجزء الثاني: ينبغي أن يبدو مثل حادثة، أتعثر مرة أخرى، وأنا أترنح إلى الأمام، أحاول جاهداً أن أستعيد توازني، أمد يدي وأمسك بشيء ما، درجة في سلم غير مرئي، وفجأة أتعلق في الهواء- لكسر من الثانية فقط، يحدث كل ذلك بسرعة كبيرة، من الصعب أن أعرف إن كنت رفعت قدمي أم لا، قبل أن يتبين الجمهور الأمر، أفك قبضتي وأهوى إلى الأرض. تقل الأضواء ثم تُطفأ، لتظلم القاعة، تعزف الموسيقى: آلات وترية سحرية، ترتعد غرابة وتوقعاً. بعد لحظة، يضاء كشاف. ينتقل يمينا ويساراً، ثم يتوقف في موضع السلم. أقف وأبدأ البحث عن درجة غير مرئية. حين تلامس يداي السلم مرة أخرى، أربت عليه بحذر، وأنتاب

في دهشة، هناك شيء ليس هناك، أربت عليه مرة أخرى، أختبره لأتأكد من أنه ثابت، ثم أبدأ تسلقه- بحذر شديد، درجة مؤلمة في كل مرة، لاشك في ذلك الآن. إنني بعيد عن الأرض، وفردتا حذائي الأبيض اللامع معلقتان في الجو للبرهان على ذلك. أثناء صعودي، يمتد ضوء الكشف، متضائلاً إلى وهج خافت يغمر في النهاية خشبة المسرح كلها. أصل إلى القمة، أنظر إلى أسفل، وأبدأ الشعور بالخوف. إنني الآن فوق الأرض بخمسة أقدام، وبحق الجحيم ماذا أفعل هناك؟ تهتز الأوتار مرة أخرى، مؤكدة هلعي، أبدأ النزول، لكنني في منتصف الطريق إلى الأرض أمد يدي وأتعامل مع شيء صلب- لوح ناتئ في الجو، أصعق. أمرار أصابعي على هذا الشيء غير المرئي، وتدرجياً يتغلب عليّ الفضول. أنزل بجسدي حول السلم وأزحف إلى اللوح، إنه قوي بدرجة تجعله يحملني، أقف وأبدأ السير، أعبّر خشبة المسرح ببطء على ارتفاع ثلاثة أقدام، بعد ذلك، تقود دعامة إلى أخرى، يصبح اللوح سلماً، ويصبح السلم حبلاً، ويصبح الحبل أرجوحة، وتصبح الأرجوحة منزلقة، لسبع دقائق أستكشف هذه الأشياء، أزحف وأمشي على أطراف أصابعي عليها، وتدرجياً أكتسب الثقة والموسيقى تعلو، يبدو الأمر وكأنني ساكون قادراً على أن أثب بهذا الشكل إلى الأبد. ثم - فجأة - أخطو إلى الحافة وأبدأ الهبوط.

الجزء الثالث: أطفو هابطاً إلى الأرض وذراعي مفردتان، وأهبط ببطء مثل شخص في حلم، وبالضبط وأنا على وشك أن ألمس خشبة المسرح، أتوقف. لم تعد الجاذبية في الحساب، أحلق إلى ارتفاع ستة أقدام عن الأرض دون دعامة تسندني. يظلم المسرح، وبعد ثانية، يحيط بي شعاع كشف واحد. أنظر إلى أسفل، أنظر

إلى أعلى، أنظر إلى أسفل مرة أخرى، ألوي أصابع قدمي، أقلب قدمي اليسرى بطرق متنوعة، حدث ذلك حقاً، صحيح حقاً أنني أقف في الجو. وتكسر نفرة طبلية الصمت: عالية، ملحة، لا تتوقف، يبدو أنها تعلن عن أخطار رهيبة، هجوم على المستحيل، أغلق عيني، أفرد ذراعي إلى أقصى حد، وأخذ نفساً عميقاً. إنه منتصف العرض بالضبط، اللحظة الحاسمة. والكشاف لا يزال مسلطاً عليّ، أبدأ الارتفاع في الجو، أرتفع ببطء وعناد، صاعداً إلى ارتفاع سبعة أقدام في تحليق سلس في السماء، أتوقف في القمة، أعد في رأسي ثلاث ضربات طويلة، ثم أفتح عيني. بعد ذلك يتحول كل شيء إلى سحر، والموسيقى تعزف بأسرع ما يمكن، أقضي ثماني دقائق في ممارسة سلسلة من الأكروبات، مندفعاً إلى بقعة الضوء وخارجها وأنا ألتف وأقلب رأساً على عقب وأغطس تماماً، يؤدي التواء إلى آخر، وكل عمل أجمل مما يسبقه. لم يعد هناك إحساس بالخوف. تحول كل شيء إلى متعة، بهجة، نشوة رؤية قوانين الطبيعة تنهار أمام عينيّك.

الجزء الرابع: بعد آخر انقلاب، أعود إلى موضعي في مركز خشبة المسرح، على ارتفاع سبعة أقدام عن الأرض، تتوقف الموسيقى، تُسلط عليّ ثلاثة كشافات: كشاف أحمر وكشاف أبيض وكشاف أزرق، ترتفع الموسيقى من جديد: نشاط من الكمونات والأبواق الفرنسية، جمال يفوق الوصف. يعزف الأوركسترا «أمريكا الجميلة»^(١)، الأغنية الأكثر تدليلاً وألفة. حين يبدأ الجزء الرابع، أتحرك إلى الأمام، أمشي في الجو فوق رؤوس الموسيقيين

(١) أمريكا الجميلة: أغنية وطنية أمريكية.

والجماهير. أظل أمشي والموسيقى تعزف، منتقلا إلى آخر المسرح، والعيون تنطلق أمامي والأعناق تشرئب والناس يقفون من مقاعدهم، أصل إلى الجدار، ألف، وأبدأ العود، سائرا بالطريقة البطيئة الجليلة نفسها التي سرت بها من قبل، حين أصل إلى خشبة المسرح مرة أخرى تكون كل الجماهير معي. لمستهم بنعمتي، تركتهم يشاركونني في سر قواي الربانية. استدير في الجو، أتوقف قليلاً مرة أخرى، ثم أطفو هابطاً إلى الأرض مع عزف آخر نغمات الأغنية. أفرد ذراعي وأبتسم، ثم أنحني - مرة واحدة فقط- ويسدل الستار.

كان ذلك عملاً رائعاً، انتفخ شيء في النهاية، صمم الأستاذ على «أمريكا الجميلة» مهما تكن الصعوبات، ولم أستطع أن أنثيه عن ذلك، أتى المخطط الإيمائي الافتتاحي مني مباشرة، وشعر الأستاذ بحرص شديد بشأن تلك السقطات التي أفقدته السيطرة على نفسه بعض الشيء، قال إن ملابس البهلوان يجب أن تجعلهم أكثر بهجة، لكنني لم أوافق، وقلت إنها العكس بالضبط، إذا توقع الناس نكتة، عليك أن تبذل جهداً أكبر لتضحكهم، لا يمكنك تحقيق كل شيء من البداية: عليك أن تتسلل إليهم وتلفت أنظارهم، استغرق الأمر نصف يوم من الجدل لأكسب هذه النقطة، لكن في مسائل أخرى لم أكن تقريباً مقتنعاً بهذا الشكل. وكانت النهاية أكثر ما أقلقني - الجزء الذي يكون عليّ فيه أن أغادر خشبة المسرح وأخلق في جولة جوية أمام الجماهير، كنت أعرف أنها فكرة طيبة، لكنني لم يكن لدي ثقة تامة في قدراتي على التحليق. إذا لم أحافظ على ارتفاع ثمانية أقدام ونصف أو تسعة، يمكن أن تنشأ مشاكل من كل نوع. قد يقفز الناس ويضربون ساقي بعنف، وحتى ضربة ضعيفة خاطفة كافية بالطبع

لأسقط. وماذا حقًا إذا قبض شخص على كاحلي وأسقطني على الأرض؟ قد ينفجر الصخب في المسرح، ربما ينتهي الأمر بقتلي. بدا ذلك خطرًا حقيقيًا، لكن الأستاذ استنكر توترتي. قال: «يمكنك أن تفعلها، وصلت إلى اثني عشر قدمًا في فلوريدا في الشتاء الماضي، ولم أعد حتى أتذكر آخر مرة نزلت فيها عن عشرة أقدام. ربما في الإلباما، لكنك كنت مصابًا بنزلة برد في ذلك اليوم ولم تكن في حالتك. حققت الأفضل يا والتن تدريجيا تظهر تحسنا في كل مجال، يتطلب الأمر بعض التركيز، لكن تسعة أقدام لم تعد تحتاج إلى جهد كبير، مجرد يوم آخر في المكتب، تمشية حول المبنى، ثم العودة إلى البيت، لا يحتاج الأمر إلى مجهود. مرة واحدة وتتجاوز الأمر. صدقني يا بني، سنحقق نجاحًا كبيرًا».

كانت قفزة السلم الحيلة الأكثر صعوبة، ولابد أنني قضيت وقتًا في هذا الأمر يعادل ما قضيته في كل الأمور الأخرى مجتمعة، كان معظم العرض إعادة جمع لتحويلات أشعر بالفعل بأنها مشجعة، الدعامات غير المرئية، الاندفاع نحو السماء، الألعاب البهلوانية الجوية. كانت كل هذه الأمور مألوفة لي. لكن قفزة السلم كانت جديدة، وكان البرنامج كله معلقًا في قدرتي على تنفيذها، ربما لا تبدو كبيرة الأهمية مقارنة بتلك الحركات الدرامية. مجرد ثلاثة أقدام فوق الأرض لثانية. لكن الصعوبة في التحول، خطوتان بسرعة البرق تتطلبان انتقالي من حالة إلى أخرى. من التخطي إلى الإمالة بجنون إلى خشبة المسرح، عليّ أن أسير مباشرة إلى الإقلاع، وينبغي أن يتم في حركة واحدة مستمرة، مما يعني الاندفاع إلى الأمام، والقبض على الدرج وصعوده في الوقت ذاته، قبل ذلك

بسة أشهر، لم أحاول ذلك قط، لكنني حققت تقدماً في تقليص طول نشوة ما قبل التحليق، من ست ثوانٍ أو سبع في البداية، أعتقد أنها انخفضت إلى أقل من ثانية، انصهار متزامن تقريباً للتفكير والعمل، لكن بقيت الحقيقة أنني لا أزال أحلق من وضع الوقوف، فعلتها دائماً بتلك الطريقة؛ كانت إحدى العقائد الأساسية لفني، ومجرد تصور هذا التغير الجذري يعني إعادة التفكير في العملية كلها من القمة إلى القاع؛ لكنني فعلتها فعلتها، يا للغرابة، ومن بين كل المآثر التي أنجزتها محلقاً في الجو، كانت أكثر ما أزهو به، سماها الأستاذ يهودي الاندفاع المتناثر، وكانت تشبهه تقريباً: إحساس بالوجود في أكثر من مكان في الوقت ذاته. السقوط إلى الأمام، أغرس قدمي على الأرض لجزء من ثانية، ثم أغمض عيني. كان إغماض العينين حاسماً، كان يعيد الذاكرة إلى النشوة، وحتى أصغر أثر من ذلك الخواء المتذبذب كان كافياً لإنتاج التحول الضروري في داخلي. أغمض عيني وأرفع ذراعي، معلقاً يدي في درجة غير مرئية، وأبدأ الصعود، لم يكن من الممكن أن أستمّر في هذا العمل المعقد لوقت طويل جداً، كان الحد ثلاثة أرباع ثانية، لكن كان ذلك كل ما أحتاج إليه، وبمجرد أن أكمل الحركة، تصبح نقطة التحول في العرض، المحور الذي يلف حوله كل شيء آخر.

قبل أن يغادر كيب كود بثلاثة أيام، وصل بالبيرس أرو إلى بابنا رجل يرتدي بدلة بيضاء. قطع السائق الطريق كله من ويتشيتا، وحين نزل من السيارة وصافح يد الأستاذ، مبتسماً ابتسامة عريضة ومطلقاً تحياته القلبية، افترضت أنه «أورفيل كوكس» سيئ السمعة. أول ما خطر على ذهني أن أركل الكذاب في قصبتيه، لكن قبل أن

أرحب بالفتى، أنقذني الأستاذ يهودي حين خاطبه بمستر بيجلو. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لاكتشف أنه واحد آخر من المعجبين الأغبياء بمسز ويذرสบون. شاب صغير في حوالي الرابعة والعشرين بوجه مستدير وضحكة مدهشة للص، وكان بين كل كلمة وأخرى يخرج من فمه اسم ماريون. لابد أنها أغرتَه بالكثير لتجنده ليقطع كل هذه المسافة الطويلة للقيام بمهمة من أجلها، لكنه بدا سعيدًا بنفسه ومزهُوًا جدًا لقيامه بذلك، مما جعلني أرغب في التقيؤ، حين اقترح الأستاذ الذهاب إلى المنزل لتناول مشروب بارد، كنت قد أدت له ظهري بالفعل وأصعد السلم الخشبي بتناقل.

توجهت مباشرة إلى المطبخ. كانت مسز هاوثرون تغسل الأطباق من الغداء، قابعة بجسمها النحيل على مقعد بجوار الحوض. قلت: «أهلا مسز هاو»، وأنا لا أزال أهتز من داخلي، وأشعر وكأن الشيطان نفسه يتقلب في رأسي. «ماذا عن العشاء الليلة؟».

ردت باللهجة المقتضبة لسكان نيو إنجلند: «سمك وبطاطس مهروسة وبنجر مخلل».

«رائع، أحب هذا البنجر، اعملي حسابي في كمية مضاعفة، مفهوم؟».

ابتسمت ابتسامة صغيرة، وقالت، وهي تلف في المقعد لتتظر إليّ: «ليست هناك مشكلة يا مستر باك». سرت ثلاث خطوات أو أربع في اتجاهها، ثم أعددت نفسي لدحرها.

قلت: «رائع مثل طبخك يا مدام، أراهن أنك لم تطهي طبقًا حلو المذاق مثل هذا الطبق».

وبعد ذلك، قبل أن تتنطق بكلمة، أطلقت ابتسامة كبيرة، وفردت ذراعي، وارتفعت عن الأرض. ارتفعت ببطء، وصعدت بقدر ما أستطيع دون أن يرتطم رأسي في السقف، بمجرد أن وصلت إلى القمة، تعلق هناك أتطلع إلى مسز هاوثرون، وكانت الصدمة والذعر اللذان انتشرا عبر وجهها كل ما تمنيت، ماتت صرخة مكتومة في حنجرتها؛ وغارت عيناها في رأسها؛ ثم سقطت من على الكرسي إلى الأرض مغشياً عليها مع خبطة صغيرة.

كان بيجلو والأستاذ يدخلان المنزل في تلك اللحظة بالضبط، وقد جعلتهما الخبطة يجريان إلى المطبخ. وصل الأستاذ أولاً، مندفعاً من الباب وأنا في منتصف ارتفاعي، لكن حين وصل بيجلو بعد ثانييتين، كانت قدماي تلامسان الأرض بالفعل.

«ما هذا!» قال الأستاذ مدرّكاً الموقف في لمح البصر، دفعني جانباً وانحنى على جسد مسز هاوثرون المغمى عليها. «ما هذا بحق الجحيم!»

قلت: «مجرد حادث بسيط».

قال: «لا يمكن أن يكون حادثاً»، وبدأ أكثر غضباً مما رأيته منذ أشهر، وربما سنوات. اعتذرت فجأة عن المزحة الغبية كلها. «اذهب إلى غرفتك، يا غبي، ولا تخرج قبل أن أناديك. معنا رفيق الآن، وسوف أحاسبك فيما بعد».

لم أكل شيئاً من ذلك البنجر، أو أي طبق آخر من أطباق مسز هاوثرون بسبب ذلك؛ بمجرد أن فاقت من إغمائها، نهضت مندفعة وخرجت من الباب وأقسمت ألا تضع قدمها في منزلنا مرة أخرى، لم أكن قريباً لأشاهد رحيلها، لكن هذا ما أخبرني به الأستاذ صباح

اليوم التالي. في البداية اعتقدت أنه يمزح معي، لكن حين لم تظهر بحلول منتصف اليوم، أدركت أنني أفزعُ المرأة المسكينة حتى الموت، ذلك بالضبط ما أردتُ، لكن وقد فعلته، لم يعد يبدو مبهجاً، لم تعد حتى لتأخذ أجرها، ورغم أننا بقينا اثنتين وسبعين ساعة أخرى، كانت آخر مرة رأيناها فيها.

لم تتدهور الوجبات فقط، لكنني عانيتُ من الإهانة حين جعلني الأستاذ يهودي أنظف المنزل صباح اليوم، الذي حزمنا فيه أمتعتنا ورحلنا، كرهتُ أن أعاقب على هذا النحو - أرسل إلى السرير دون عشاء، أكلف بمهام المطبخ والأعمال المنزلية - ولم يجعله غضبي وتدمري يتخلى عن حقوقه. لم يكن مهماً أنني كنت أشهر نجم صغير منذ حمل داود مقلاعه وانطلق، خرجتُ عن الخط، وقبل أن يصيبني الغرور، لم يكن أمام الأستاذ من اختيار إلا أن يهاجمني بهذا الشكل.

ولم يكن هناك ما يقال ليجلو عن سبب نوبة غضبي. مكث بضع ساعات فقط، وفي الأصيل جاء تاكسي واستقله - ليأخذه إلى أقرب محطة قطار على ما يفترض، حيث يبدأ رحلة العودة الطويلة عائداً إلى كانساس. رأيته ينصرف من شرفتي في الدور الثاني، احتقرته نتيجة بهجته الغبية وحقيقة أنه رفيق أورفيل كوكس، الرجل الذي فضله مسز ويذر سبون عليّ وعلى الأستاذ، ومما جعل الأمر أسوأ أن الأستاذ يهودي تصرف بأفضل مما يكون، وأوجع قلبي أن أرى الأدب الذي قابل به تلك السخرية من كاتب بنك، لم يصافح يده فقط، لكنه كلفه بنقل هدية فرح العروس المنتظرة. بالضبط وباب السيارة على وشك أن يغلق، وضع رزمة كبيرة ملفوفة بشكل جميل في يدي النذل. لم يكن لديّ فكرة عما في الصندوق، لم يخبرني الأستاذ، ورغم أنني نويت أن أسأله عنه في أول فرصة، مضت

ساعات طويلة قبل أن يفرج عني من سجنني، نسيت تمامًا حين حانت اللحظة، وكما تبين، انقضت سبع سنوات قبل أن أكتشف حقيقة الهدية.

ذهبنا من كيب كود إلى ورسستر، نصف يوم بالسيارة في اتجاه الغرب. بدا جيدًا أن نسافر في البيرس أرو مرة أخرى، مختفين في مقاعدنا الجلدية كما في الأيام الخوالي، وبمجرد أن اتجهنا إلى داخل البلاد، خلفنا وراءنا كل النزاعات كما خلفنا الكثير جدًا من أغلفة الحلوى، مندفعين إلى الأعشاب الكثيفة والأمواج. ويبقى أنني لم أكن أريد أن أسلم بشيء، فقط لأتأكد من عدم وجود كراهية بيننا، اعتذرتُ للأستاذ مرة أخرى، قائلًا: «أخطأت وأنا آسف»، وبدا بالضبط أن المسألة كلها كانت بلا أهمية مثل أخبار الأمس.

نزلنا في فندق «شيري فالي»، عش عاهرة قذرة على بعد بنائيتين من مسرح «لُكسور»، حيث أؤدي العرض الأول. وكنا نتدرب في قاعة الموسيقى في الأيام الأربعة التالية صباحًا وعصرًا، كان لُكسور أبعد ما يكون عن قصر الترفيه الفخم الذي تمنيته، لكن كان به خشبة مسرح وستائر وإعداد للإضاءة، وأكد لي الأستاذ أن المسارح ستكون أفضل بمجرد أن نصل إلى بعض المحطات الكبيرة في جولتنا، قال: إن ورسستر مكان هادئ جدًا نبدأ منه، حتى أعتاد على خشبة المسرح. استوعبت الأمر بسرعة، وتعلمت العلامات والإشارات ببسر، ورغم ذلك كانت هناك أخطاء وعيوب يجب إصلاحها: إصلاح تتابع الكشافات، تنسيق الموسيقى مع الحركات، تصميم رقصة النهاية لتجنب الشرفة التي تبرز على نصف مقاعد الأوركسترا. استغرق الأستاذ في الكثير من التفاصيل، اختبر

الستائر مع مسئول الستائر، وضبط الإضاءة مع مسئول الإضاءة، وتحدث دون انقطاع عن الموسيقى مع الموسيقيين، ودون تكلفة، استخدم سبعة منهم ليصاحبونا في آخر يومين من التدريب، واستمر في إجراء التعديلات والتصويبات على أعمالهم حتى آخر دقيقة، ساعياً إلى أن يكون كل شيء صحيحاً، عملت أنا نفسي كثيراً معهم. مجموعة من العاملين الذين حققوا شهرة في السابق، قدامى استهلوا حياتهم العملية قبل أن أولد، ولا بد أنهم قضوا عشرين ألف ليلة في مسارح متنوعة وعزفوا لمائة ألف عمل مختلف. رأى هؤلاء الرجال غرباء الأطوار كل شيء، ومع ذلك حين خرجت وأديت عرضي أول مرة أمامهم، تحطمت كل أبواب الجحيم؛ أصيب قارعو الطبول بالإغماء، وسقط الباسون من عازفه، واهتاج عازف الترومبون وسقط. بدا الأمر علامة طيبة بالنسبة لي، إذا استطعتُ أن أؤثر في أولئك الساخرين متجمدي المشاعر، فكر فقط في الأمر حين أكون أمام جماهير عادية.

كان الفندق في مكان مناسب، لكن الليالي في ذلك المكان القذر كانت تقتلني تقريباً، مع كل العاهرات اللاني يصعدن ويهبطن السلام ويمشين في القاعات، كان قضيبني يرتجف مثل عظمة مكسرة ويحرمني الراحة. كنت أنا والأستاذ نتشارك في غرفة مزدوجة، وكان عليّ أن أنتظر حتى أسمعته يغط في السرير المجاور قبل أن أجرو على لمس قضيبني. كان العمل بلا نهاية، كان يحب الحديث في الظلام، مناقشاً بعض المسائل الصغيرة عن تدريبات ذلك اليوم، وبدلاً من الاهتمام بأمر في متناول اليد (وكان في يدي أيضاً)، كان عليّ أن أفكر في ردود مهذبة على أسئلته، مع كل دقيقة تمر، يصبح العذاب أكثر تدميراً، ليكون الألم أكثر من أن يحتمل، حين يغفو في

النهاية، أمد يدي إلى أسفل وأخلع فردة من جوربي القذر. كان ذلك ماسك المنّي، أمسكه في يدي اليسرى وأعمل باليمنى، قاذفا السائل المنوي في طيات كثيرة من القطن، بعد مثل هذا التأجيل الطويل، لم يكن الأمر يستغرق حكة أو اثنتين، كنت أهمهم بترنيمة هادئة من ترانيم الشكر وأحاول أن أنام، لكن مرة واحدة لم تكن كافية بالنسبة لي في تلك الأيام. ربما تطلق عاهرة ضحكة في القاعة، وتصر سوست السرير في غرفة بالدور العلوي، ويمتلئ رأسي بكل أنواع الفحش الجسدي، وقبل أن أدرك، ينتصب عضوي وأبدأ من جديد.

ذات ليلة، لا بد أنني أصدرت الكثير من الصخب، عشية تقديم عرض ورسيستر، وكنت في طريقي لملء جورب آخر من المتعة حين استيقظ الأستاذ فجأة، حديث عن هزة الأعصاب، وحين انطلق صوته في الظلام، بدا وكأن النجفة سقطت على رأسي.

«ما المشكلة يا والت؟».

أسقطتُ ما في يدي كما لو أنه أنبت أشواكا، وقلت: «مشكلة؟ ماذا تعني بمشكلة؟»

«أقصد هذا الصخب؛ التدافع والهز والصريخ، تلك المشاجرات الآتية من سريرك».

«لدي حكة، حكة غريبة يا أستاذ، ولن تختفي إذا لم أهرش بقوة».

«حكة، حسنا. حكة تبدأ في منطقة العانة وتنتهي على كل الملاءات. استرح يا فتى، تنهك نفسك، والاستعراضى المرهق استعراضى مائع».

«لستُ مرهقا، إنني جاهز تمامًا ومتشوق للذهاب».

«في الوقت الحالي ربما؛ لكن الاستمناء له ضريرته، وقبل مرور وقت طويل تشعر بالإجهاد، لا أريد أن أقول لك أي شيء ثمين هو القضيب. تغرم به كثيرًا لكنه يمكن أن يتحول إلى إصبع من الديناميت. حافظ على البندو أو القطرة يا والت. حافظ عليها لما يستحق حقًا».

«أحافظ على ماذا؟»

«البندو، مصطلح هندي لماء الحياة».

«تقصد الستيكوم؟»

«صحيح، الستيكوم، أو ما تسميه بأي شكل آخر، لابد أن هناك مائة اسم، لكنها كلها تعني الشيء ذاته».

«أحب البندو؛ إنها تهزم الآخرين».

«مادامت لا تهزمك، أيها الرجل الصغير. أماننا أيام وليال كبرى، وسوف تحتاج إلى كل قدر من قوتك».

لا أي شيء، أتعب أو لا أتعب، أحافظ على البندو أو أنتجها في دلاء، اندفعت من البوابة مثل شظية من الجحيم؛ أذهلناهم في ورسستر، أثرنا إعجابهم في سبرنج فيلد، وخرجوا من ملابسهم في بريدج بورت، حتى الحادث المؤسف في نيو هافن^(١) تبين أنه نعمة مقنعة، حيث إنه أخرج المشككين إلى الأبد، مع كثرة الكلام عن تحليقي في الجو، كان من الطبيعي أن يفترض بعض الناس الخداع. يؤمنون بأن العالم مُعدَّ بطريقة معينة، وليس فيه موضع لشخص له

(١) سبرنج فيلد: عاصمة ولاية إلينوي. بريدج بورت: مدينة جنوب غرب كونيتيكت. نيو هافن: مدينة جنوب كونيتيكت.

مواهيبي، ما أفعله يكسر كل القواعد، يناقض العلم، ويقلب المنطق والبديهي، ويفرم مائة نظرية، وبدلاً من تعديل النظريات لتتناسب مع ما أقوم به، قرر ذوو التأثير والأساتذة أنني أغش. امتلأت الجرائد بهذه المواضيع في كل البلدات التي نذهب إليها: مناظرات ومجادلات، اتهامات واتهامات مضادة، كل المؤيدين والمعارضين الذين يمكن أن تتخيلهم، لم يشارك الأستاذ في أي منها، ابتعد عن الحلبة، مبتسماً بسعادة وإيصالات شبك التذاكر تصل إلى أرقام كبيرة، وحين يضغط عليه الصحفيون ليقدّم تعليقاً، كان الرد ذاته دائماً: «تعال إلى المسرح واحكم بنفسك».

بعد أسبوعين أو ثلاثة من الخلاف المتصاعد، وصلت الأمور في النهاية إلى ذروتها في نيو هافن. لم أنسَ أنها موطن كلية بيل - ولو لم تحدث الجرائم والاعتداءات التي اقترفت في كانساس قبل ذلك بعامين، كان من الممكن أيضاً أن تكون موطن أخي أيسوب، أحزنني أن أكون هناك، وطوال اليوم السابق على العرض، جلستُ في غرفة الفندق بقلب مثقل بالحزن، متذكراً الأوقات المجنونة التي قضيناها معاً ومفكراً في أي رجل عظيم كان يمكن أن يصبح، حين غادرنا في النهاية إلى المسرح في الساعة السادسة، كنتُ محطماً عاطفياً، حاولت أن أكتشف موضعي، حققت العرض الأكثر تسطحاً في حياتي العملية. اختل تقديري للزمن، تمايلت أثناء الدوران، وكان ارتفاعي مخزياً، في لحظة الالتواء إلى أعلى والطيران فوق رؤوس الجماهير، انفجرت في النهاية القنبلة المربعة، لم أستطع أن أحافظ على الارتفاع، بقوة الإرادة فقط نجحت في الارتفاع إلى سبعة أقدام ونصف، وكان ذلك أفضل ما أستطيع، وبدأت النهاية بشكوك هائلة، مُدركاً أن شخصاً بطول متوسط يستطيع أن يمسك

بي دون أن يتكلف عناء القفز، بعد ذلك تحولت الأمور من السيئ إلى الأسوأ. في منتصف الطريق فوق مقاعد الأوركسترا، قررت أن أبذل آخر جهد لأعرف إن كنت أستطيع أن أرتفع قليلاً. لم أكن أمل في معجزات- مجرد مساحة صغيرة للتنفس، ربما ست بوصات أو ثماني بوصات، توقفت لحظة لإعادة ترتيب الأمر، مُحلّقاً في موضعي مُغلّقاً عيني ومركزاً في مهمتي، لكن بمجرد أن بدأت الحركة مرة أخرى، كان ارتفاعي محزناً كما كان من قبل، لم يقتصر الأمر على أنني لم أرتفع، لكن بعد بضع ثوانٍ أدركت أنني بدأت أهبط بالفعل. حدث ذلك ببطء، ببطء شديد، بوصة أو اثنتين كلما تقدمت ياردة إلى الأمام، وكان الانحدار لا رجعة فيه- مثل تسرب الهواء من بالونة. وحين وصلت إلى الصفوف الخلفية، كنت على ارتفاع ستة أقدام، هدف سهل حتى لأقصر قزم، وهنا بدأ المزاح. اندفع غبي أصلع يرتدي سترة حمراء من مقعده وضربني بعنف في كعب قدمي اليسرى، درت من الضربة، وملت مثل منصة مائلة في استعراض، وقبل أن أصبح توازني، ضرب شخص آخر قدمي الأخرى. هذه الخبطة الثانية حسمت الأمر، وقعت من الجو مثل عصفور ميت وسقطت بجبهتي أولاً على حافة ظهر مقعد معدني. كان التأثير فجائياً جداً وعنيفاً جداً، أفقدني الوعي تماماً.

لم أدرك اللغط الذي حدث بعد ذلك، لكن طبقاً لكل الروايات، كان قمة القعقة: تسعمائة شخص يصيحون ويقفزون بكل الطرق، انفجار من هستيريا جماعية انتشر في القاعة مثل النار في الهشيم، فاقداً الوعي بهذا الشكل، برهن سقوطي على شيء واحد، وبرهن عليه دون أدنى شك للأبد. كان العرض حقيقياً، لم تكن هناك أسلاك غير مرئية متصلة بأطرافني، أو فقاعات من الهليوم مخبأة تحت

ملابسي، أو محركات صامئة ملفوفة حول خصري، واحدًا واحدًا،
مر أفراد الجمهور بجسدي الهاجع حول المسرح، يلمسونني
ويقرصونني كأنني عينة طبية. جردوني من ملابسي، نظروا داخل
فمي، فردوا وجنتي وحدقوا في فتحة الشرج، ولم يجد أحد منهم شيئًا
لم يضعه الرب نفسه، وأثناء ذلك اندفع الأستاذ من موضعه وراء
الستار وشق طريقه باتجاهي، حين قفز على تسعة عشر صفاً من
الزبائن وانتزعني من آخر ذراعين، صدر الحكم بالإجماع، كان
والد الولد العجيب بضاعة حقيقية. كان العرض صادقاً، وما تراه
هو ما تراه، أمين.

بدأ الصداع في تلك الليلة، نظرًا لأنني اصطدمت بظهر المقعد،
لم يكن مُدهشًا أن أشعر ببعض الوخز والتأثيرات اللاحقة، لكن
هذه الآلام كانت رهيبة - هجوما شنيعا بمثقاب، وابلًا لا نهائيا من
البرد يضرب في الجدران الداخلية لجمجمتي - يوقظني من النوم
العميق في منتصف الليل. كنت أنا والأستاذ في غرفتين متصلتين
بحمام بينهما، وبمجرد أن تواتيني الشجاعة لأبرح السرير، أترنح
باتجاه الحمام، داعيًا أن أجد بعض الأسبيرين في خزانة الدواء،
كنت مشوشًا ومشتتًا جدا نتيجة الألم، لم أدرك أن نور الحمام مضاء
بالفعل. أو إذا أدركت، لا أتوقف لأفكر في سبب إضاءته في الساعة
الثالثة فجرًا، وكما اكتشفت بسرعة، لم أكن الوحيد الذي ترك سريره
في هذه الساعة الآثمة، حين فتحت الباب ودخلت غرفة مغطاة ببلاط
أبيض مبهر، اصطدمت تقريبا بالأستاذ يهودي. مرتديًا بيجامته
الحرير الأرجواني، ويقبض على الحوض بيديه وينثني ألما، يلهث

ويتقياً كان أحشاءه اشتعلت فيها النار؛ استمر الأمر عشرين ثانية أخرى أو ثلاثين، وكانت مشاهدته مفرعة، حتى إنني نسيت ألأمي تقريباً.

بمجرد أن أدرك أنني هناك، فعل كل ما يستطيع ليغطي ما حدث للتو. حوّل تكشيره إلى ابتسامات هستيرية متكلفة؛ استقام وعدل كتفيه؛ ومّس على شعره بكفيه. كنت أريد أن أطلب منه أن يكف عن التظاهر، وأخبره بأنني اطلعت على سره، لكن ألمى كان شيئاً بدرجة تحول دون أن أستدعى الكلمات، سألني عما منعني من النوم، وحين علم بصداعي، تحمل مسؤولية الوضع بالاندفاع ولعب دور الطبيب: أخرج الأسبيرين من القنينة، وملاً كوباً من المياه، وفحص الضربة التي تلقيتها على جبهتي، تحدث كثيراً أثناء هذه الإسعافات، ولم أجد فرصة للكلام.

قال، وهو يحملني إلى غرفتي ويضعني في السرير: «نحن اثنان، أليس كذلك؟ في البداية تقع ويصطدم دماغك، ثم أتعرض أنا نفسي لسمك فاسد، ينبغي أن أتعلم التخلي عن هذه الأشياء التافهة. كلما أكلته أصاب بتقلص رهيب».

لم تكن قصة سيئة، وخاصة بالنسبة لشخص لديه القدرة على الارتجال، لكنها لم تخدعني، بصرف النظر عن مدى رغبتني في تصديقه، لم أأخذع لثانية.

بحلول

عصر اليوم التالي، تحسن الصداع، استمر نبح غامض قرب صدغي الأيسر، لكنه لم يكن كافياً ليمنعني من الحركة، حيث إن الخطبة كانت على الناحية اليمنى من جبهتي، كان من المتوقع أن يكون الألم فيها أكثر، لكنني كنت عديم الخبرة بهذه الأمور ولا أعول على الفارق. كل ما كان يهمني أنني صرت أفضل، وأن الألم يتضاءل، وأنتي ساكون مستعداً للعرض التالي.

تركزت كل مخاوفي حول حالة الأستاذ- بصرف النظر عن سبب الهجمة الشنيعة التي رأيتها في الحمام، لم يعد من الممكن أن تبقى الحقيقة مختبئة. انكشفت خدعته، ولأنه بدا أفضل بكثير في الصباح التالي، لم أجرو على ذكر الأمر؛ لم أستطع ببساطة أن أفتح فمي، لم أكن فخوراً بالطريقة التي تصرفت بها، لكن فكرة إصابة الأستاذ بمرض رهيب كانت أبشع من أن أفكر فيها، بدلاً من القفز إلى نتائج مرضية، تركته يجبرني على قبول ما رواه، كانت حكاية السمك الفاسد تريحني؛ أسكتني بأنه على ما يرام، رأيت ما كان ينبغي ألا أراه، وسوف يتأكد من أنني لن أرى ذلك مرة أخرى، أستطيع أن أعتد عليه في ذلك، ينفي الأمر، يبدو قاسياً، وتدرجياً بدأت أظن أنني لم أر الأمر رغم كل شيء؛ ليس لأنني أصدق هذه الكذبة- لكنني لأنني كنت مرعوباً بدرجة تجعلني لا أخاف من ألا أصدقها.

من نيو هافن ذهبنا إلى بروفيدينس؛ ومن بروفيدينس إلى بوسطن؛ ومن بوسطن إلى ألباني؛ ومن ألباني إلى سراكوز؛ ومن سراكوز إلى بافلو^(١). أتذكر كل تلك المحطات، وكل تلك المسارح والفنادق،

(١) بروفيدينس: عاصمة ولاية جزيرة رود (شمال شرق الولايات المتحدة، في الأطلنطي). ألباني: مدينة في غرب كاليفورنيا. سراكوز: مدينة في وسط نيويورك. بافلو: مدينة غرب نيويورك.

وكل تلك العروض التي قدمتها، كل شيء عن كل شيء. كنا في أواخر الصيف وأوائل الخريف، وتدرجيا؛ فقدت الأشجار خضرتها، صار العالم أحمر وأصفر وبرتقاليا وبُنْيًا، وحيثما ذهبنا كانت الطرق مغطاة بمشاهد غريبة بألوان متغيرة، كنت أنا والأستاذ نحرز نجاحًا بعد الآخر، وبدأ أنه لم يعد هناك ما يوقفنا. قدمت عروضًا في أماكن مكتظة في كل مدينة، لم تبع المعارض فقط، اتجه مئات آخرون إلى شباك التذاكر كل ليلة، قام السماسرة بأعمال رائعة، وباعوا التذاكر بثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف أو خمسة أضعاف قيمتها الأصلية، وكلما توقفنا أمام فندق جديد، يكون هناك حشد في الانتظار عند المدخل، هوة شغوفون يقفون لساعات في المطر والصقيع ليلقوا فقط نظرة عليّ.

وكان زملائي المؤدون غيورين بعض الشيء، على ما أظن، لكن الحقيقة أنهم لم يحظوا قط بمثل هذا الحظ، حين يتدفق الجمهور لرؤية عرضي، يرون العروض الأخرى، أيضًا، وكان ذلك يعني أموالاً في جيوبنا جميعاً، في تلك الأسابيع والشهور، تصدرت البرامج التي تشمل كل أنواع التسلية المثيرة. مثلوا الكوميديا، والحواء، ومطربو الفالستو، ومقلدو أصوات الطيور، وفرق الجاز، والقرود الراقصة - كانوا جميعاً يؤدون أدوارهم قبلي، أحببت مشاهدة هذه الأشياء الغريبة، وكنت أفعل أقصى ما في وسعي لأعقد صداقات في الكواليس مع كل من يبدو ودوداً، لكن الأستاذ لم يكن حريصاً على أن أختلط بزملائي. كان متحفظاً مع معظمهم ويحثني على اتخاذ نموذجي. كان يهمس: «أنت نجم، تصرف على هذا النحو، لا ينبغي أن تضع يومك مع هؤلاء الحمقى». كان الأمر موضوع

خلاف صغير بيننا، لكنني كنت أتخيل أنني سأكون في دائرة حفلة المنوعات لسنوات تالية، ولا أرى فائدة في خلق أعداء بلا ضرورة، دون علمي وضع الأستاذ خطته لمستقبلنا، وبحلول نهاية سبتمبر كان يتحدث علانية عن جولة في الربيع لرجل واحد. هكذا كان الأستاذ يهودي: كلما كانت أمورنا أفضل، تطلع إلى الأفضل، لم تكن الجولة التي نقوم بها لتنتهي قبل الكريسماس، لكنه لم يستطع مقاومة التفكير فيما يليها، في شيء ربما يكون أكثر إثارة، في المرة الأولى التي ذكر لي فيها ذلك، أصبْتُ بغصة من الصرامة القاطعة للاقتراح. كانت الفكرة أن نأخذ طريقنا شرقاً من سان فرانسيسكو إلى نيويورك، ونقدم عروضاً بطلبات خاصة في عشر أو اثنتي عشرة من أكبر المدن. نحجز العروض في ساحات مغلقة وفي ملاعب كرة القدم حديقة ميدان ماديسون وملعب سولدير، ولن يقل الجمهور بحال من الأحوال عن خمسة عشر ألفاً. وصف المسألة بأنها «موكب انتصار عبر أمريكا»، ومع انتهاء عملية الإقناع بخطته، كان قلبي ينبض بأربعة أضعاف معدله الطبيعي- يسوع- ياله من رجل بارع، كان فمه من آليات المساومة العظيمة في كل الأزمان، وبمجرد أن ينطلق بكامل طاقته، تتدفق الأحلام منه كما يندفع الدخان من مدخنة.

قلتُ: «رائع، يا ريس، إذا استطعتَ تنظيم جولة بهذا الشكل، فسوف نغرق في الملايين».

قال: «سأنظمها على أكمل وجه، استمر فقط في العمل بشكل جيد، والمسألة مضمونة، هذا كل ما تحتاج إليه يا والت، تستمر في القيام بما تقوم به، ويكون موكب رولي مؤكداً».

أثناء ذلك كنا نستعد لأول عرض مسرحي أقدمه في نيويورك، لم نكن لنصل إلى هناك قبل عطلة عيد الشكر، ولا يزال الطريق طويلاً، لكننا كنا نعرف أنه سيكون قمة الموسم، ذروة مساري المهني إلى حد بعيد، كان مجرد التفكير في الأمر يصيبني بدوار. عشرة عروض في بوسطن بالإضافة إلى عشرة في فيلادلفيا لا تساوي عرضاً في نيويورك، ضع ستة وثمانين عرضاً في بافالو مع ثلاثة وتسعين في ترينتون، ولا يساوي المجموع دقيقة على خشبة المسرح في البيج أبل، كانت نيويورك النجمة، مركز الانطلاق على خريطة صناعة الترفيه، وبصرف النظر عما حصلت عليه من إطراء في المدن الأخرى، ما كنت لأصبح أي شيء قبل أن أمثل في برودواي ليروا ما يمكن أن أفعله، وهذا هو السبب الذي جعل الأستاذ يحدد لنيويورك وقتاً متأخراً جداً من الجولة، كان يريد لي أن أكون خبيراً بعملتي حين أصل إليها، جندياً مجرباً صقلته المعارك يعرف هدف كل رصاصة ويستطيع التعامل مع أية مشكلة، صرْتُ هذا الجندي المشغول باستمرار. أدبْتُ، بحلول الثاني عشر من أكتوبر، أربعة وأربعين عملاً في مسارح متنوعة، وشعرت بأنني جاهز، مستعد للصعب كما كنت دائماً، ومع ذلك لا يزال هناك شهر علينا أن نقضيه، لم أتحمّل قط مثل هذا الترقب، كانت نيويورك تنخر في ليلاً ونهاراً، وبمرور الوقت لم أعد أحتمل.

عرضنا في ريتشموند في الثالث عشر والرابع عشر، وفي بلتيمور في الخامس عشر والسادس عشر، ثم اتجهنا إلى سكرنتون في بنسلفانيا. أدبت بشكل جيد هناك، جيد جداً بشكل مؤكد وكنت أفضل من الآخرين، ومع انتهاء العرض مباشرة، بالضبط وأنا أنحني للجمهور والستارة تسدل، أغمي عليّ وسقطت على الأرض.

شعرتُ بأنني في حالة جيدة حتى تلك اللحظة، وقمت بكل حركاتي الجوية بكل ثقة ورباطة جأش كعادتي، لكن وقدماي تلمسان خشبة المسرح آخر مرة، شعرت وكأنني أزن عشرة آلاف رطل. حافظت على وضعي وقتًا كافيًا فقط للابتسامة والانحناء وغلق الستارة، ثم التوت ركبتي، وتراجعتُ، وارتطم جسدي بالأرض. حين فتحت عيني في غرفة الملابس بعد خمس دقائق، شعرت بدوار خفيف، لكن بدا أن الأزمة انتهت، لكن حين وقفت عاد الصداع على الفور، يميزني بنوبة وحشية ورهيبة من الألم، حاولتُ أن أخطو خطوة، لكن العالم كان يسبح، متموجًا مثل راقصة شرقية في مرآة بيت الرعب، ولم أعرف إلى أين أمضي. وأنا أخطو الخطوة الثانية، فقدت الاتزان بالفعل، ولو لم يلتقطني الأستاذ لسقطت على وجهي مرة أخرى.

لم يكن أحد منا مستعدًا للهلع عند هذه النقطة، يمكن أن يحدث الدوار والصداع نتيجة عدة أمور - التعب، نزلة برد، التهاب في الأذن - لكن لمجرد الأمان، اتصل الأستاذ بويلكس بير ولغى عرض الليلة التالية. نمت بعمق في فندق سكرنتون، وفي الصباح كنت في حالة جيدة مرة أخرى، تخلصت من الألم والقلق تمامًا. تحدى شفائي كل منطق، لكننا تقبلناه بوصفه ضربة حظ لا تستحق التفكير. انطلقنا إلى بيتسبرج بروح معنوية جيدة، سعيدين بيوم العطلة، وبمجرد أن وصلنا إلى هناك ونزلنا في الفندق، دخلنا معًا دارا للسينما لنحتفل بعودتي إلى طبيعتي. ومع ذلك، في الليلة التالية وأنا أقدم العرض على مسرح فوسبرج، تكرر تمامًا ما حدث في سكرنتون، قمت بعرض رائع، وبالضبط والستارة تسدل والعرض ينتهي انهرت، بدأ الصداع مرة أخرى على الفور بمجرد أن فتحت عيني، وفي هذه

المرّة لم ينته في ليلة واحدة، حين استيقظت في الصباح التالي كانت الخناجر لا تزال مستقرة في جمجمتي، ولم تبرحها قبل الساعة الرابعة عصرًا - بعد عدة ساعات من اضطرار الأستاذ إلى إلغاء عرض تلك الليلة.

كان كل شيء يشير إلى الخبطة التي تلقيتها في رأسي في نيو هافن، كانت السبب الأكثر احتمالاً لمشكلتي، لكن إذا كنت أتجول بارتجاج في المخ خلال الأسابيع القليلة السابقة، فلا بد أنه ارتجاج خفيف في التاريخ الطبي، كيف يمكن أن أفسر تلك الحقيقة الغريبة والمقلقة بأنني أبقى في صحة جيدة مادمت أضع قدمي على الأرض؟ كانت نوبات الصداع والدوار تأتي فقط بعد أن أؤدي العرض، وإذا كانت الرابطة بين الارتفاع وحالتي الجديدة مؤكدة كما يبدو، من ثم تساءل الأستاذ عما إذا لم يكن مخي قد ارتج بطريقتة تجعله تحت ضغط غير مناسب على شرايين الدماغ كلما صعدت في الجو، مما يؤدي بدوره إلى نوبات موجعة حين أنزل، كان يريد أن يضعني في مستشفى لعمل بعض صور بأشعة إكس على جمجمتي، قال: «لماذا لا ننتهز الفرصة؟ قطعنا الجزء الأكبر من الجولة، وربما نحتاج إلى أسبوع أو عشرة أيام إجازة، يجرون بعض الاختبارات، ويبحثون في جهازك العصبي، وقد يكتشفون طبيعة هذا الشيء اللعين».

قلت: «مستحيل، لن أذهب إلى أي مستشفى».

«الراحة هي العلاج الوحيد لارتجاج المخ. وإذا كان الأمر كذلك، فليس لك اختيار».

«انس الأمر، أعمل على الفور في أشغال شاقة ولا أدخل مستشفى».

«فكر في الممرضات يا والت، أولئك الفتيات الصغيرات الجميلات في أزيائهن البيضاء، يكون لديك عدد من الفاتنات يغرم بك ليلاً ونهاراً. إذا تصرفت ببراعة ربما ترى بعض الإثارة».

«لن تستطيع إغرائني، لا يمكن لأحد أن يستغفلي، وقعنا على القيام ببعض العروض، وأسعى إلى القيام بها - حتى لو قتلتنني».

«ريدنج والتونا ليستا مكان الإثارة يا بني، يمكن أن نتخطى الميرا وبنجهامتون^(١)، ولن يطرأ أي اختلاف، أفكر في نيويورك، وأعرف أنك أيضاً تفكر فيها، تلك هي المدينة التي ينبغي أن تكون في لياقتك من أجلها».

«دماغي لا يؤلمني وأنا أقدم العرض، هذا هو الأساس يا ريس، أستمر مادمت أستطيع الاستمرار، من يبالي إذا عانيت من بعض النتائج؟ أستطيع أن أتعاش مع الألم، الحياة مؤلمة على أية حال، والجيد الوحيد فيها حين أكون على خشبة المسرح أقدم عرضي».

«المشكلة أن العرض يستنفذك، تظل تنزل بذلك الصداغ، ولن تبقى والت الولد العجيب لفترة طويلة، سيكون عليّ أن أغير اسمك ليكون مستر فيرتيجو».

«مستر ماذا؟»

«مستر دوار. مستر الخوف من الأماكن المرتفعة».

«لا أخاف من شيء، تعرف ذلك».

(١) ريدنج: مدينة جنوب شرق بنسلفانيا. التونا: مدينة وسط بنسلفانيا. الميرا وبنجهامتون: مدينتان جنوب نيويورك.

«أنت شجاع تمامًا يا بني، ولهذا أحبك؛ لكن هناك وقتًا في مسار كل مخلّق يكون فيه الجو محفوفًا بالمخاطر، وأخشى أن نكون قد وصلنا إلى هذا الآن».

ظللنا نتجادل في هذا الأمر طوال الساعة التالية، وفي النهاية قاومتُ بما يكفي ليمنحني فرصة أخيرة، كانت تلك هي الصفقة، أودي في ريدنج في الليلة التالية، وسواء كان هناك صداد أو لم يكن، إذا كنت في حالة جيدة تسمح لي بمواصلة الجولة إلى التونا في الليلة التي بعدها، فسوف أودي طبقًا للجدول، كان الضغط لتحقيق ذلك شيئًا مجنونًا، لكن تلك النوبة الثانية أفرعتني جدًّا، وخشيت أن يكون معناها أنني فقدتُ حساسيتي، ماذا لو لم يكن الصداد إلا الخطوة الأولى؟ تصوّرتُ أن أُملي الوحيد أن أشقّ طريقي، أن أواصل أداء العروض لتحسن حالتي أو أعجز عن أدائها تمامًا. ثم أرى ما يحدث، كنت مشوشًا جدًّا، لم أبال حقًا إن كان مخي تفتت إلى ألف جزء، قلت لنفسني إنني أفضل أن أموت ولا أفقد قدراتي، لا كنتُ إذا لم أستطع أن أكون والت الولد العجيب.

جاءت ريدنج بشكل سيئ، أسوأ مما تخوفتُ. لم أخسر مقامرتي فقط، لكن النتائج كانت أكثر مأساوية عن ذي قبل. أدبت العرض وانهرتُ، بالضبط كما كنت أعرف، لكنني لم أفق هذه المرة في غرفة الملابس، كان على اثنين من عمال المسرح أن يحملاني عبر الشارع إلى الفندق، وحين فتحتُ عيني بعد خمس عشرة دقيقة أو عشرين دقيقة، لم أستطع حتى أن أقف على قدمي لأشعر بالألم. في اللحظة التي وصل فيها الضوء إلى حدقتي بدأ الوجع؛ ففزز مائة ترولي من على القضبان وتجمعت في بقعة خلف صدغي الأيسر؛ وارتطمت طائرات هناك؛ وتصادمت شاحنات هناك؛ ثم التقط

شبحان مطرقتين وبدأ يدقان أوتادًا في مقلتي. تلويت في السرير، أصرخ ليخرجني أحد من بؤسي، وحين استدعى الأستاذ دجالاً من الفندق ليصعد إلى أعلى ويعطيني حقنة تحت الجلد، كنت في حالة تسمح بتقييدي، انحدار للهب يتراقص ويندفع في وادٍ من ظلال الموت.

استيقظت في مستشفى فيلادلفيا بعد عشر ساعات، وبقيت اثني عشر يومًا لا أفارقها، استمر الصداع ثماني وأربعين ساعة أخرى، وبقيت تحت تأثير مهدئات قوية حتى إنني لا أتذكر أي شيء قبل اليوم الثالث، حيث استيقظت في النهاية مرة أخرى واكتشفت أن الألم تلاشي. بعد ذلك، خضعت لكل أنواع الكشف والفحص، كان فضولهم لا يهدأ، وبمجرد أن بدؤا لم يتركوني وحدي، كل ساعة على مدار اليوم يدخل طبيب مختلف إلى الغرفة ويختبر قدراتي، قرعت ركبتي بمطارق، ومُررت أدوات حادة على جلدي، وسلطت كشافات في عيني؛ أعطيتهم بولاً ودماً وبرازاً؛ استمعوا إلى قلبي ونظروا في أذني؛ التقطوا لي صوراً بأشعة إكس من الرأس إلى القدمين، لم يكن هناك سوى العلم، وكان أولئك الرجال بمعاطفهم البيضاء يؤدون وظيفتهم من خلاله بكل دقة. في يوم أو اثنين حولوني إلى جرتومة عارية مرتجفة، ميكروب وقع في مناهة من الإبر، والسماعات وخوافض اللسان. إذا كانت الممرضات جميلات بشكل يستحق النظر إليهن ربما شعرت ببعض الارتياح، لكن ممرضاتي كن عجائز قبيحات، بمؤخرات بدينة وشعر في ذقونهن. لم أتعرض من قبل لمثل هذه المجموعة من المتباريات البشعات، وحين تأتي إحداهن لتقيس الحرارة أو تقرأ جدول المتابعة أغلق عيني وأتظاهر بالنوم.

جلس الأستاذ يهودي بجواري طوال هذه المحنة، والتقطت الصحف بعض أخباري، وفي الأسبوع الأول أو نحو ذلك امتلأت الصحف بمتابعات عن حالتي؛ وكان الأستاذ يقرأ لي تلك المقالات يومياً، وجدت بعض الراحة في الضوضاء وأنا أستمتع، لكن حين يتوقف عن القراءة، كان الضجر والعناد يحدقان بي من جديد، ثم انهارت سوق الأوراق المالية في نيويورك، ولم أعد أتصدر الصفحات الرئيسية، لم أبال كثيراً، وكنت أتصور أنها أزمة عابرة، وبمجرد انتهاء ذلك الثلاثاء الأسود عادت أخباري مرة أخرى إلى العناوين الرئيسية. أذهلتني كل تلك الأخبار عن أناس قفزوا من النوافذ وأطلقوا النار على رؤوسهم بوصفها هراء مكثفاً، واعتبرتها تافهة مثل الكثير من الحكايات الخرافية، وكان الشيء الوحيد الذي أهتم به أداء العروض من جديد، انتهى الصداق وكنت أشعر بأنني طبيعي بشكل هائل مائة في المائة، حين كنت أفتح عيني في الصباح وأجد الأستاذ يهودي بجواري، أبدأ اليوم بالسؤال نفسه، السؤال الذي سألته في اليوم السابق: متى أخرج من هنا؟ وكان كل يوم يرد بالإجابة نفسها: بمجرد معرفة نتائج الفحوص.

حين أتت النتائج، لم أكن أكثر رضا، بعد كل هذا الهراء من الوحز والنخس، وكل تلك الأنابيب وأكواب العينات والقفازات المطاطية، لم يجد الأطباء خلاً في جسمي، لم يكن هناك ارتجاج، أو ورم في المخ، أو مرض في الدم، ولا فقدان للتوازن نتيجة لخلل في الأذن الداخلية، أو أورام، أو التهاب في الغدة النكفية، أو آثار ارتطام. أعطوني شهادة خلو من الأمراض وأعلنوا لي أنها أفضل

عينات رأوها لفتى في الرابعة عشرة من العمر، وحيث إن الصداق والدوخة تلاشيا، لم يستطيعوا تحديد السبب الدقيق، ربما كانت جرثومة تسربت بالفعل إلى جسمي. ربما كان شيئاً أكلته، مهما يكن، لم يعد هناك، وإذا كان هناك بالصدفة، فإنه أصغر من أن يُحدّد - ولا حتى بأقوى مجهر على الأرض.

قلت حين نقل الأستاذ الأخبار إليّ: «يا له من أمر مثير، يا له من أمر مثير جداً».

كنا وحدنا في غرفتي بالطابق الرابع، نجلس متجاورين على حافة السرير، في وقت مبكر من الصباح، والنور يتدفق إلينا من أضلاع الستائر المعدنية، لثلاث ثوان أو أربع، شعرت بالسعادة التي كنت أشعر من قبل، شعرت بالسعادة لدرجة الرغبة في الصراخ. قال الأستاذ: «ليس بهذه السرعة يا بني، لم أنتهِ بعد».

«السرعة؟ السرعة اسم اللعبة يا ريس، الأسرع الأفضل، ضيعنا بالفعل ثمانية عروض، وكلما أسرعنا في حزم أمتعتنا والخروج من هنا، أسرعنا في الوصول إلى حيث نحن ذاهبان، ما المدينة التالية التي حجزنا فيها؟ إن لم تكن بعيدة جداً، ربما لا نصلها إلا عند رفع الستار».

أمسك الأستاذ بإحدى يدي وضغط عليها: «اهداً يا والت، خذ نفساً عميقاً، أغلق عينيك، واستمع إلى ما أقول».

لم يبد الأمر مزحة، ومن ثم فعلت ما طلب وحاولت أن أبقى ساكناً.

«حسنًا»، نطق بهذه الكلمة وتوقف، كانت هناك وقفة طويلة قبل أن يتكلم مرة أخرى، وفي تلك الفترة من الظلام والصمت، عرفتُ أن هناك شيئاً بشعاً على وشك الحدوث، وقال أخيراً: «لم تعد هناك عروض أخرى. أنهكنا تماماً يا بني. والت الولد العجيب غير صالح للعمل».

قلت وأنا أفتح عيني وأنظر إلى وجهه الكئيب الصارم: «لا تهزأ بي يا أستاذ». وظللت أنتظره ليلقي بغمزة أو ضحكة، لكنه ظل جالساً يحدق في بعينه السوداوين، وقد صارت ملامحه أكثر حزناً. قال: «ما كنت لأمزح في لحظة كهذه، وصلنا إلى نهاية الخط، وليس هناك ما يمكن أن نفعله بشأن ذلك».

«لكن الأطباء أعطوني شهادة صلاحية، أنا مثل الحصان».

”تلك هي المشكلة، لا عيب فيك- مما يعني ليس فيك ما يمكن علاجه، ما يمكن علاجه بالراحة أو الأدوية أو التمرين، إنك في حالة طبية تماماً، ولأنك في حالة جيدة، انتهت حياتك العملية“.

”هذا حديث جنوني يا أستاذ، لا أفهم منه شيئاً“.

”سمعتُ من قبل عن حالات تشبه حالتك، إنها نادرة جداً، نتحدث الأدبيات عن حالتين فقط، يفصل بينهما زمنيا مئات السنين، محلّق تشيكي في أوائل القرن التاسع عشر تعرض لما تعرضتَ له، ومن قبله أنطوان دوبوا، وكان فرنسياً نشطاً في عصر لويس الرابع عشر، وبقدر ما أعرف هذان هما الحالّتان الوحيدتان المسجلتان، أنت الثالث يا والت، في كل دوريات التحليق أنت الثالث فقط الذي تواجه هذه المشكلة“.

”لا أعرف حتى الآن عما تتكلم“.

”البلوغ يا والت، أتحدث عن البلوغ، المراهقة، التغيرات الجسدية التي تحول الصبي إلى رجل“.

”تعني الانتصاب وما شابه؟ الشعر البشع وخشونة صوتي؟“
”هذا بالضبط، كل التحولات الطبيعية“.

”ربما كنت أمارس العادة السرية بإفراط، ماذا إذا توقفت عن تلك الحماسة؟ تعرف، أحافظ على البيندو بعض الشيء، هل تعتقد أن ذلك قد يساعدي؟“

”أشك في ذلك، هناك علاج وحيد لحالتك، لكنني لا أفكر إطلاقاً في أن أبتليك به. فكرت في الأمر كثيراً“.

”لا أبالي، إذا كانت هناك طريقة لإصلاح الأمر، فعلينا أن نطبقها“.

”أتحدث عن الخشاء يا والت، تقطع خصيتيك، وربما تكون هناك فرصة“.

”هل قلتَ ربما؟“

«لا شيء مضمون، هذا ما فعله الفرنسي، وواصل التحليق حتى الرابعة والستين، وفعله التشيكي، ولم يفده ذلك إطلاقاً. حدث التشويه بلا جدوى، وبعد شهرين قفز من فوق جسر تشارلز وانتحر»^(١).

«لا أعرف ماذا أقول».

(١) جسر تشارلز: جسر تاريخي على نهر فلتافا في براغ، جمهورية التشيك.

«لا تعرف بالطبع، لو كنت مكانك ما عرفتُ أيضا ماذا أقول، ولهذا أقترح أن نخلق الموضوع، لا أتوقع أن تفعل ذلك، لا يمكن لرجل أن يطلب ذلك من رجل آخر. أمر غير إنساني».

«حسنا، نظراً لأن هذا الحكم يكتنفه الغموض، ليس من الحكمة أن نخاطر به، أليس كذلك؟ أقصد أنني لو لم أعد والت الولد العجيب، على الأقل تبقى خصيتاي في صحبتي. لا أريد أن أكون في موقف أنتهى فيه إلى خسارة الاثنين».

«بالضبط؛ ولذا يكون الموضوع منتهيا، لا معنى للحديث عنه أكثر من ذلك. خضنا جولة رائعة، وانتهت الآن، على الأقل اعتزلت وأنت لا تزال في القمة».

«لكن ماذا إذا اختفت نوبات الصداع؟»

«لن تختفي، صدّقني لن تختفي».

«كيف تعرف؟ ربما بقي الرجلان الآخران يُعانيان منه، لكن ماذا إذا كنّت مختلفاً؟»

«لستُ مختلفاً، إنها حالة دائمة، لا علاج لها؛ بعيداً عن المخاطرة التي استبعدناها، تبقى نوبات الصداع بقيةً عمرك، مقابل كل دقيقة تقضيها في الجو، تُعاني ثلاث ساعات من الألم على الأرض، وكلما كبرت يكون الألم أسوأ، انتقام الجاذبية يا بني؛ اعتقدنا أننا تغلبنا عليها، لكن يتبين أنها أقوى منا، هكذا يسير الأمر، كسبنا بعض الوقت والآن نخسر - ليكن - إذا كانت تلك مشيئة الرب، علينا إذا أن ننحني لإرادته».

كان الأمر محزناً جداً وكنيئاً جداً ومحبطاً جداً، كافحتُ وقتاً طويلاً لأحقق النجاح لنفسي، وأنا على وشك أن أصبح أحد الخالدين

في التاريخ، كان عليّ أن أعطيه ظهري وأنصرف، ابتلع الأستاذ يهودي هذا السم دون أن تهتز له شعرة، تقبّل مصيرنا مثل روائي ورفض أن يحتج. أفترض أنه كان موقفاً نبيلاً، لكن لم يكن في قدرتي أن أستقبل الأخبار السيئة مستلقياً، بمجرد أن انتهينا من الكلام، وقفتُ وبدأتُ أركل الأثاث وأخطب الجدران، عاصفاً الغرفة مثل ملاكم مجنون ينازل عدواً متخيلاً. كسرت مقعداً، وألقيت بمنضدة السرير على الأرض مهشمة، ولعنت حظي السيئ بأعلى صوتي، ولم يفعل الأستاذ يهودي، العجوز الحكيم، شيئاً ليوثقني؛ حتى حين اندفعت ممرضتان إلى الغرفة ليتعرفا على المشكلة، أخرجهما بهدوء، موضحاً أنه سيعوضهما عن أي أضرار. كان يعرف طبيعتي، ويعرف أن غضبي في حاجة إلى فرصة للتعبير عن نفسه. لم يمنعني؛ لم يتجاهل والت، إذا صفعني العالم فعليّ أن أرد له الصفعة.

إنه أمر عادل جداً؛ كان الأستاذ يهودي بارعاً فتركني أتصرف على هذا النحو، ولن ألومه إذا تصرفتُ مثل مغفل وبالغتُ كثيراً، في منتصف ثورتي بالضبط، خطرت لي أغبي فكرة في حياتي، خطأ أبله ينهي كل الأخطاء البلهاء. أوه، بدا الأمر رائعا جداً في حينها، لكن ذلك كان يرجع فقط إلى أنني لا أستطيع مواجهة ما حدث. وبمجرد أن تنكر الحقيقة تبحث عن المشاكل فقط، لكنني رغبت بشدة في إثبات أن الأستاذ مخطئ، وأن أوضح له أن نظرياته بشأن حالتي عديمة الأهمية تماماً، وفي غرفة مستشفى فيلادلفيا، في اليوم الثالث من نوفمبر ١٩٢٩، قمت بأخر محاولة فجائية لإحياء مهنتي، توقفت عن ضرب الحائط، التفتُ وواجهتُ الأستاذ، ثم فردتُ ذراعي وارتفعت عن الأرض.

صَحْتُ فِيهِ: «انظُرْ. انظر جيدا وأخبرني بما ترى!»

تفحصني الأستاذ بتعبير عابس وحزين، وقال: «أرى الماضي، أرى والـت الولد العجيب لآخر مرة. أرى شخصًا على وشك أن يأسف على ما فعله للتو».

صحت ردًا عليه: «إنني في حالة جيدة كما كنت دائما، وهذا أفضل ما في العالم!»

نظر الأستاذ إلى ساعته، وقال: «عشر ثوانٍ، مقابل كل ثانية تقضيها في الجو، تعاني ثلاث دقائق من الألم، أضمن ذلك».

تصورت أنني عبرت عن رأيي بوضوح، وهكذا بدلاً من أن أخطر بنوبة أخرى طويلة من الوجد، قررت الهبوط، وقد حدث- بالضبط ما وعد به الأستاذ، في اللحظة التي لمست فيها أصابع قدمي الأرض؛ انفتح رأسي مرة أخرى، منفجراً بعنف امتص مني ضوء النهار وجعلني أرى النجوم، اندفع القيء من خلال بلعومي واستقر على الجدار على بعد ستة أقدام، انفتحت المطاوي في جمجمتي، حافرة بعمق في وسط مخي، ارتجفتُ وصرختُ وسقطتُ على الأرض، وفي هذه المرة لم أتمتع بترف الإغماء، تقلبتُ مثل سمكة في عيناها صنارة، وحين استغثت طلبا للمساعدة، مناشداً الأستاذ أن يستدعي طبيباً ليُعطيني حقنة، اكتفى بهز رأسه وابتعد، وقال: «ستتغلب عليه، في أقل من ساعة ستكون في حالة طيبة تماماً».

ثم، دون أن يقول لي كلمة مريحة، أصلح فوضى الغرفة تماماً وبدأ يعد حقيبتَي.

كان ذلك هو العلاج الوحيد الذي أستحقه، وقعت كلماته على أذن صماء، وقد تركه ذلك دون اختيار سوى أن يتراجع ويترك أفعالي تتحدث عن نفسها، وهكذا تحدث إليّ الألم، وفي هذه المرة استمعتُ، استمعتُ سبعة وأربعين دقيقة، وحين انتهت الحصة، تعلمتُ كل ما كنت في حاجة إلى معرفته، محاضرة عن فصل صادم في أساليب الدنيا، محاضرة عن التغلب على الأسى، أصلحني الألم بقسوة، وحين خرجتُ من المستشفى في ذلك الصباح، كان رأسي سليماً مرة أخرى إلى حد ما. عرفتُ حقائق الحياة، عرفتُها بكل خلجات روحي وكل مسام جلدي، ولم أكن مستعداً لنسيانها، انتهت أيام المجد، مات والت الولد العجيب، ولم تكن هناك فرصة ليطل بوجهه مرة أخرى.

عُدنا إلى فندق الأستاذ في صمت، ماضيين في طريقنا عبر شوارع المدينة مثل شبحين. استغرق الطريق عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، وحين وصلنا إلى المدخل لم أستطع التفكير في شيء أفضل من أن أرفع يدي وأحاول أن أودعه.

قلتُ: «حسناً، أظن أن علينا أن نفترق هنا».

قال الأستاذ: «أوه؟ ولماذا؟»

«سوف تبحث عن ولد جديد الآن، وليس هناك معنى للبحث إذا كنت في الطريق».

«ولماذا أبحث عن ولد جديد؟» بدا مذهولاً حقاً من الاقتراح.

«لأنني فاشل، هذا هو السبب. لأن الأمر انتهى، ولم أعد مفيداً لك».

«هل تعتقد أن أتخلى عنك بهذه الطريقة؟»

«لَمْ لَا؟ العدل عدل، وإذا لم أستطع أن أقدم ما تتمنى، فمن حقك أن تبدأ وضع خطط أخرى».

«وضعتُ خططاً؛ وضعتُ مائة خطة، ألف خطة، لدى خطط في كمي وخطط في جوربي، جسدي كله يمتلئ بالخطط، وقبل أن تدفعني الحكمة إلى نوبة من الجنون، أود أن أخرجها وأضعها لك على الطاولة».

«لي؟»

«لمن آخر يا رفيق؟ لكن لا يمكن أن نتناقش بجدية ونحن نقف في المدخل، أليس كذلك؟ هيا إلى الغرفة. نطلب غداء ونتناول الحقائق الأساسية».

«ما زلت لا أفهم».

«ماذا تريد أن تفهم؟ ربما نكون قد انتهينا من التحليق، لكن هذا لا يعني أننا أغلقنا المحل».

«تقصد أننا لا نزال شريكين؟»

«خمس سنوات وقت طويل يا بني. بعد كل ما قضيناه معاً، نشأ بيننا نوع من الارتباط، لن أحصل على أي فتى، كما تعرف، لا معنى لأن أبدأ البحث عن شخص آخر، ليس الآن، في عمري هذا، قضيتُ نصف عمري لأعثر عليك، ولن أتخلى عنك لأننا واجهنا بعض العوائق، مثلما قلْتُ، لدى بعض الخطط أناقشها معك. إذا أعجبتك هذه الخطط ووافقت عليها، اتفقنا، وإذا لم تعجبك، قسمنا النقود وافترقنا».

«النقود - يا يسوع الرب - نسيت كل ما يتعلق بالنقود».

«تشغلك أمور أخرى».

«كنت مكتئباً، ورأسى في إجازة؛ ما المبلغ الذي حصلنا عليه؟
ما الحصيلة تقريباً يا ريس؟»

«سبعة وعشرون ألف دولار. إنها في خزانة الفندق، وهي كل
ما لدينا بالتمام والكمال».

«وهنا اظن أنني أنهار مرة أخرى، أنظر إلى الأمور من منظور
مختلف، أليس كذلك؟ أقصد أن سبعة وعشرين ألف دولار غنيمة
صغيرة لذيدة».

«ليست سيئة، كان من الممكن أن نعمل بشكل أسوأ».

«وهكذا لم تغرق السفينة رغم كل شيء».

«ليس بحال من الأحوال، عملنا لأنفسنا بشكل طيب، ومع أوقات
صعبة قادمة، نستريح تماماً، جافين ودافنين في قاربنا الصغير نبحر
في بحار المحنة أفضل بكثير من معظم الناس».

«نعم، نعم يا سيدي».

«هذا كل ما في الأمر يا رفيق، بعيداً تماماً. بمجرد أن تهدأ
الريح، نرفع المرساة - وبصيحة نقلع!»

كنت على استعداد للسفر معه إلى أقصى الأرض؛ بقارب،
بدراجة، بالزحف على بطني - لم تكن وسيلة الانتقال مهمة، أريد
فقط أن أكون حيث يوجد وأذهب حيث يذهب، حتى تلك المحادثة

أمام الفندق، اعتقدت أنني فقدت كل شيء، لم أفقد مهنتي فقط، أو حياتي فقط، لكنني فقدت أستاذي أيضًا، افترضت أنه انتهى معي، سينبذني دون تفكير، لكنني عرفت أنذاك أمرًا مختلفًا. لم أكن مجرد شيك بالنسبة له، لم أكن مجرد آلة طائرة بمحرك صدي وأجنحة تالفة، في كل الأحوال، حجزنا لفترة، وكان ذلك بالنسبة لي أكثر أهمية من كل المقاعد في كل المسارح وملاعب كرة القدم مجتمعة، لا أقول إن الأمور لم تكن سوداء، لكن لم تكن سوداء بنصف ما كان يمكن أن تكون عليه، لا يزال الأستاذ يهودي معي، لم يكن وحده معي، كان يحمل حفنة من أعواد الثقاب لينير لي الطريق.

وهكذا صعدنا وتناولنا غداءنا. لا أعرف ألف خطة، لكن كان من المؤكد أن لديه ثلاثًا أو أربعًا منها، وقد فكر في كل منها بعناية تامة، ما كان الرجل ليترك العمل. خمس سنوات من العمل الشاق طارت من النافذة، تحولت عقود من التخطيط والاستعداد إلى رماد في ليلة، وهذا يطفح بأفكار جديدة، يخطط لحركتنا التالية وكأن كل شيء لا يزال أمانًا. لم يعد الوضع كما كان، كان الأستاذ يهودي آخر سلالة، ولم أر أحدًا يشبهه منذ ذلك الوقت: شخص يبدو مستريحًا تمامًا في الغابة، ربما لم يكن الملك لكنه كان يفهم قوانينها أكثر من أي شخص آخر، اضربه في أحشائه، ابصق في وجهه، حطم قلبه، وكان ينهض مرة أخرى، مستعدًا للتغلب على كل ما يواجهه، لا تستسلم قط، لم يعيش فقط بهذا الشعار، كان الرجل الذي ابتكره.

كانت الخطوة الأولى الأكثر بساطة، ننقل إلى نيويورك ونعيش مثل الناس العاديين، أذهب إلى المدرسة وأتعلم بشكل جيد، ويبدأ

عملاً ويكسب مالاً، ونعيش معا بسعادة، لم أنطق بكلمة حين انتهى من كلامه، وانتقل إلى الخطوة الثانية، قال: يمكن أن نخرج في جولة، ونلقى محاضرات في الكليات والكنائس ونوادي حدائق السيدات في فن التحليق في الجو، ستكون هناك حاجة كبيرة إلينا، على الأقل في الشهور الستة التالية أو نحو ذلك، ولماذا لا نواصل الكسب من والت الولد العجيب حتى ينتهي آخر ما تبقى من شهرتي؟ لم أحب هذه الخطوة أيضاً، وهكذا هز كتفيه وانتقل إلى التالية، قال: نحزم أمتعتنا ونستقل السيارة، وننطلق إلى هوليوود. أبدأ مهنة جديدة ممثلاً للسينما، وسيكون وكيلتي ومدير أعمالي، مع كل الاهتمامات التي لقيتها من العرض، لن يكون من الصعب أن أخوض اختبار التمثيل، كنت بالفعل اسماً كبيراً، ونظراً لشغفي بالملهاة الهزلية، ربما أقف على رجلي على الفور.

«أه، الآن تحدث!»

قال الأستاذ، وقد مال للخلف في مقعده مشعلاً سيجاراً كوبياً غليظاً: «تصورت أنك ستوافق عليها، لذا ادخرتها للنهاية». وعلى هذا النحو بالضبط، انطلقنا في السباق مرة أخرى.

خرجنا

من الفندق في وقت مبكر من الصباح التالي، وفي الثامنة كنا على الطريق، مُجهزين غربًا إلى حياة جديدة في الهضاب المشمسة في هوليوود. كانت مسافة طويلة مرهقة في تلك الأيام. لم يكن هناك طرق سريعة أو سلسلة مطاعم هوار د جونسون، أو ممرات بها أماكن للعب البولينج تمتد من الشواطئ وإليها، وعليك أن تنحرف في طريقك إلى كل البلدات والقرى الصغيرة، متتبعًا أي طريق يأخذك في الاتجاه الصحيح، إذا اضطررت للسير خلف فلاح ينقل حملاً من القش بجرار على شكل حرف T، يكون حظك سيئًا، وإذا كانوا يحفرون طريقًا في مكان ما، يكون عليك أن تلف وتبحث عن طريق آخر، وغالبًا يكون معنى ذلك أن تخرج عن طريقك لساعات، كانت تلك قواعد اللعبة في ذلك الوقت، لكنني لا أستطيع القول: إنني كنت منزعًا من السير ببطء، كنت مجرد مسافر، وإذا أحببت أن أغفو لساعة أو اثنتين في المقعد الخلفي، لم يكن هناك ما يمنعني، مرات قليلة، حين كنا نضرب في امتداد مهجور جدا من الطريق، كان الأستاذ يترك لي عجلة القيادة، لكن ذلك لم يحدث كثيرًا، وانتهى الأمر وقد قاد بنفسه ثمانية وتسعين في المائة من الطريق، كانت خبرة مخدرة، وبعد خمسة أيام أو ستة سقط في حالة تأمل كنيب، مستغرقًا أكثر وأكثر في أفكاره ونحن نندفع إلى وسط البلاد. عدنا إلى أرض السماوات الكبيرة الممتدة، الامتدادات الكثيفة، وبدا أن الهواء الذي يحيط به يسحب منه الحماس. ربما كان يفكر في مسز ويذرسيون، وربما في شخص آخر من ماضيه عاد ليحاصره، لكن من المرجح أنه كان يفكر في مسائل تتعلق بالحياة والموت، الأشياء الكبيرة المفزعة التي تزحف إلى رأسك حين لا يكون هناك ما يشتتتك. لماذا أنا هنا؟ إلى

أين أمضي؟ ماذا يحدث لي بعد أن أسحب آخر نفس؟ أعرف أنها مواضيع ثقيلة، لكن بعد التفكير مليا في أفعال الأستاذ في تلك الرحلة لأكثر من نصف قرن، أعتقد أنني أعرف عما أتحدث. تبرز محادثة في ذاكرتي، وإذا لم أخطئ في تفسير ما قال، توضح طبيعة الأمور التي بدأت تنهش روحه. كنا في مكان ما في تكساس، مدينة فورت ورث، وكانت مدينة صغيرة في الماضي، على ما أظن، وكنت أثرثر معه بطريقتي المرححة المتبجحة، متحدثا لسبب وحيد وهو أن أسمع نفسي أتحدث.

قلتُ: "كاليفورنيا، لم تسقط الثلوج هناك قط، ويمكنك أن تسبح في المحيط طوال العام، ومما يقول الناس: إنها ثاني أفضل مكان بعد الجنة، تجعل فلوريدا بالمقارنة تبدو مستنقعا حارا ورطباً".

قال الأستاذ: "ليس هناك مكان كامل يا بني، لا تنس الزلازل والانهيارات الأرضية والقحط، ربما تمر سنوات دون سقوط مطر، وحين يسقط تتحول الولاية كلها إلى فرن، يمكن أن يحترق منزلك في وقت لا يكفي لتقليب بيضة".

"لا تقلق بشأن ذلك، بعد ستة أشهر سنعيش في قلعة حجرية، لا يمكن أن تحترق. ولكن لمجرد الأمان، سيكون لدينا قسم للمطافئ في المبنى، أقول لك، يا ريس، أنا والسينما صنع كل منا للآخر، سأكسب أموالا كثيرة، ويكون علينا أن نفتح بنكا جديداً. رولي للادخار والقروض، بمقر قومي رئيسي في شارع سنسيت بوليفارد^(١). تراقب وترى؛ في أسرع ما يكون سأكون نجما».

«إذا سار كل شيء على ما يرام، ستكون قادراً على أن تكسب قوت يومك، هذا هو المهم. لا يبدو الأمر وكأنني سأكون بجانبك إلى

(١) سنسيت بوليفارد: شارع في مقاطعة لوس أنجلوس، كاليفورنيا.

الأبد، وأريد أن أتأكد من أنك تستطيع أن تعول نفسك، لا يهم كيف تفعل ذلك، ممثلاً أو مصوراً أو مراسلاً- كلها جيدة، أحتاج فقط إلى أن أعرف أنه سيكون لك مستقبل بعد أن أرحل».

«كلام رجل عجوز يا أستاذ، لم تكمل حتى الخمسين».

«ست وأربعون، إنها في موطني سنوات طويلة جداً».

«قصيرة جداً، في شمس كاليفورنيا تصغر عشر سنوات في اليوم الأول».

«ربما يكون الأمر كذلك، لكن حتى لو فعلت ذلك، تبقى حقيقة أنني خلفتُ ورائي من السنوات أكثر مما تبقى لي، حسبة بسيطة يا والت، ولن يضرنا بحال من الأحوال أن نستعد لما هو قادم».

انتقلنا إلى موضوع آخر بعد ذلك، وربما توقفنا عن الكلام تماماً، لكن تلك التعليقات القصيرة السوداء التي نطق بها بدت لي أكبر وأكبر والأيام تواصل زحفها. بالنسبة لرجل يعمل بجد على إخفاء مشاعره، كانت كلمات الأستاذ اعترافاً، لم أسمع صريحاً بهذا الشكل من قبل، وحتى رغم أنه صاغها في لغة افتراضات، لم أكن غيبياً لأتجاهل الرسالة المختبئة بين السطور. عادت أفكاري إلى مشهد آلام المعدة في فندق نيو هافن، لو لم أكن منهمكا في مشاكلني منذ ذلك الوقت، لكنت أكثر يقظة. آنذاك، ولم يكن هناك ما أعمله أفضل من التحديق من النافذة وحساب الأيام حتى نصل إلى كاليفورنيا، صممتُ على مراقبة كل حركاته، ما كنت لأجبن هذه المرة، إذا رأيته يتلوى أو يمسك معدته مرة أخرى، فسوف أتحدث وأكشف خداعه - وأدفع به إلى أول طبيب أعثر عليه.

لا بد أنه لاحظ قلقي، لأنه بعد هذه المحادثة بوقت قصير، كف عن الحديث الكئيب والمتشائم وبدأ يهمس أغنية مختلفة، حين غادرنا تكساس وعبرنا إلى نيو مكسيكو، بدا أنه يتعافى إلى حد كبير، ويقظاً لمراقبة علامات الاضطراب، لم أستطع تحديد أية علامة- أو حتى أصغر تلميح، تدريجياً نجح في أن يخدعني مرة أخرى، ولولا ما حدث على طول طريق يبلغ سبعمائة ميل أو ثمانمائة، لاحتاج الأمر إلى شهور قبل أن أخمن الحقيقة، وربما حتى سنوات. هكذا كانت قدرة الأستاذ. لا يمكن لأحد أن يباريه في معركة الدهاء، وكلما حاولتُ أشعر في النهاية بأنني غبي، كان أسرع مني بكثير، وأكثر رشاقة وخبرة، يستطيع تجريدي من بنطلوني حتى قبل أن ألبسه، لم يكن هناك أي تنافس، كان الأستاذ يهودي يفوز دائماً، وواصل الفوز حتى النهاية المريرة.

بدأ الجزء الأكثر ملأً من الرحلة. قضينا أياماً بالسيارة في نيو مكسيكو وأريزونا، وبمرور الوقت شعرتُ وكأننا الشخصان الوحيدان في العالم. لكن الأستاذ كان مغرمًا بالصحراء، وبمجرد أن دخل إلى ذلك المشهد القاحل بصخوره وصبارَه، ظل يشير إلى تكوينات جيولوجية غريبة ويلقي محاضرات قصيرة عن العمر غير المعروف للأرض، وبصدق تاماً، تركني فاتراً تماماً، لم أرغب في إفساد متعة الأستاذ، وهكذا أغلقت فمي وتظاهرت بالاستماع، لكن بعد أربعة آلاف هضبة وستمانة وادٍ، كان لدي ما يكفي من جولة المشاهد الطبيعية ليبقى معي طول العمر.

قلتُ في النهاية: «إذا كانت هذه بلاد الرب، فليأخذها الرب إذاً».

قال الأستاذ: «لا تتركها تصيبك بالكآبة، تستمر هنا إلى الأبد، وعد الأميال لن يجعل الرحلة أقصر، إذا أردت أن تصل إلى كاليفورنيا، فهذا هو الطريق الذي لابد أن نسلكه».

«أعرف ذلك، لكن كوني أتحملة لا يعني أنه ينبغي أن أحبه».

«ربما تحاول أيضًا، بهذه الطريقة يمضي الوقت أسرع».

«أكره أن أكون هادم الملذات يا سيدي، لكن هذا الشيء الجميل ممل جدا. أقصد من يبالي إذا كان مكانا يبدو قذرا أو غير قذر؟ مادام فيه بعض الناس، يكون شيقا بالضرورة. اطرح الناس، ماذا يتبقى؟ إنه خواء. والخواء لا يفعل لي شيئا سوى أن يخفض ضغط دمي ويسقط جفني».

«أغلق عينيك إذا ونم بعض الوقت، وسوف أتواصل مع الطبيعة بنفسي، لا تغضب يا فتى؛ لم يعد أمانا الكثير، قبل أن تعرف سيكون حolk كل من تريد».

بزغ أسود يوم في حياتي في غرب أريزونا في السادس عشر من نوفمبر. كان صباحا جافا جدا، مثل كل الصباحات الأخرى، وفي العاشرة كنا نعبّر حدود كاليفورنيا لنبدأ الانزلاق خلال منطقة الموهاف، بين أريزونا وكاليفورنيا، باتجاه الساحل، أطلقت شهقة احتفال حين عبرنا ذلك المغلّم لنصل إلى المرحلة الأخيرة من الرحلة. كان الأستاذ يسير بسرعة معقولة، وتصورنا أننا سنصل إلى لوس أنجلوس وقت العشاء. أتذكر جدلا لصالح مطعم فخم ليلتنا الأولى في البلدة. قلت ربما نلتقي باستر كيتون أو هارولد لويد^(١)،

(١) باستر كيتون (١٨٩٥-١٩٦٦)، وهارولد لويد (١٨٩٣-١٩٧١) ممثلان أمريكيان.

ألا يكون ذلك مثيراً؟ تخيل مصافحة هذين الرجلين على كومة من بيكد ألأسكا^(١) في نادٍ يقدم عشاءً فاخراً، إذا كنا في حالة مزاجية مناسبة، ربما استطعنا أن نخوض معركة بالفطيرة ونمزقها إربا. كان الأستاذ قد بدأ يضحك للتو على وصفي لهذا المشهد المجنون حين نظرت ورأيت شيئاً أماناً على الطريق. قلت: «ما هذا؟» وقال الأستاذ: «ما هذا؟» وبعد لحظتين كنا نعدو من أجل حياتنا.

كانت عصابة من أربعة رجال ينتشرون عبر طريق رئيسية ضيقة، يقفون صفّاً - على بعد مائتي ياردة أو ثلاثمائة - وفي البداية كان من الصعب رؤيتهم. مع بريق الشمس والحرارة المرتفعة من الأرض، بدوا أشباحاً من كوكب آخر، أجساداً تومض نورا وهواء رقيقاً. بعد أن اقتربنا خمسين ياردة رأيتُ أيديهم مرفوعة على رؤوسهم، كأنهم يشيرون لتوقف، عند هذه النقطة ظننتهم مجموعة من عمال الطرق، وحتى حين اقتربنا أكثر ورأيت مناديل على وجوههم، لم أفكر في الأمر بجدية أكثر، قلت لنفسي إن الغبار ينتشر هنا، وحين تهب الرياح يحتاج الإنسان إلى بعض الحماية. لكن ونحن على بعد ستين ياردة أو سبعين رأيتُ فجأة أن الأربعة يحملون أدوات معدنية براقّة في أيديهم المرفوعة، بالضبط حين أدركت أنها بنادق، ضغط الأستاذ على الفرامل، مهدنا من السرعة ليقف وينطلق بالسيارة في الاتجاه المعاكس. لم ينطق أحد منا بكلمة. ودواسة البنزين على الأرضية، تراجعنا والمحرك ينن وهيكال السيارة يرتج. انطلق المجرمون الأربعة وراءنا، يجرون على الطريق ومواسير البنادق تومض في النور، أدار الأستاذ يهودي رأسه إلى الاتجاه الآخر لينظر من خلال الزجاج الخلفي، ولم ير ما أرى، لكن وأنا

(١) بيكد ألأسكا: طبق حلوى عبارة عن آيس كريم وكيك.

أشاهد الرجال يقتربون، لاحظتُ أن أحدهم يجري وهو يعرج. كان نحيفاً وهزياً، ورغم إعاقته يتحرك أسرع من الآخرين - بسرعة - كان متقدماً وحده، وانزلق المندبل من على وجهه لألقي عليه أول نظرة حقيقية، كان الغبار يتطاير في كل الاتجاهات، لكنني أعرف ذلك المغفل في أي مكان. إدوارد سباركز، كان هو بالتأكيد، الخال سليم، وحين وضعت عيني عليه، عرفتُ أن حياتي فسدت إلى الأبد.

كان حُكمًا قاسيًا، لم نستطع أن نسرع كثيرًا في الاتجاه المعاكس لنهرب، بالإضافة إلى أن الوقت الذي قضيناه لنلف جعلنا أكثر بطناً، لكن كان علينا أن نخاطر، إذا لم نزد من سرعتنا في أربع ثوان، ربما لا تكون أمامنا فرصة.

انحرف الأستاذ يهودي بحدة إلى اليمين، مائلاً إلى ملف مرعب ليعكس مساره، وهو ينتقل إلى السرعة الأولى. أصدرت التروس صريراً بشعاً، قفزت الإطارات الخلفية عن الطريق واصطدمت بصخور شاردة، وأخذنا نلف وندور دون سحب والسيارة تنن وترتج، استغرق الأمر ثانية أو نحو ذلك لتأخذ الإطارات وضعها مرة أخرى، ونحن ننتقل من هناك في الاتجاه الصحيح، دوت البنادق خلفنا. أصابت رصاصة إطاراً خلفياً، وقى اللحظة التي انفجر فيها الكاوتش، مالت البيرس أرو بشدة إلى اليسار. لف الأستاذ معها ولم يرفع قدمه قط عن الأرضية، موجهها السيارة مثل مجنون لنظل على الطريق، ونقل بالفعل على الثالث حين اندفعت رصاصة أخرى خلال الزجاج الخلفي. أصدر صرخة وابتعدت يداه عن عجلة القيادة، قفزت السيارة عن الطريق واندفعت على أرض صحراوية تتناثر عليها الصخور، وبعد لحظة بدأت الدماء تندفع من

كتفه اليمنى، لا يعرف إلا الرب من أين وافته القوة لكنه نجح في القبض على عجلة القيادة مرة أخرى وحاول مرة أخرى، لم تكن مجدية، ولم تكن غلطته، كانت السيارة خارج السيطرة، وقبل أن يتمكن من تحويلها باتجاه الطريق، داس الإطار الأمامي على حافة حجر بارز ومالت السيارة كلها.

لا أتذكر شيئاً عن الساعة التالية، أخرجتني الصدمة من مقعدي، وآخر ما أتذكره الطيران في الجو في اتجاه الأستاذ. في مكان ما بين الانطلاق والهبوط لا بد أن رأسي اصطدم في لوحة العدادات أو عجلة القيادة، لأنه حين توقف السيارة، كنت بالفعل فاقدًا الوعي. حدثت عشرات الأشياء بعد ذلك، لكنني لم أدرك منها شيئاً. لم أر سليم ورجاله ينقضون على السيارة ويسرقون الخزانة الحديدية من صندوق السيارة. لم أرهم يمزقون الإطارات الثلاثة الأخرى، لم أرهم يفتحون حقائبنا ويبعثرون ثيابنا على الأرض، وما زال عدم إطلاقهم النار علينا وقتلنا لغزا بالنسبة لي، لا بد أنهم تحدثوا في أمر قتلنا أو عدم قتلنا، لكنني لم أسمع شيئاً مما قالوا ولا أستطيع أن أخمن سبب تركهم لنا. ربما كنا نبدو ميّتين بالفعل، أو ربما لم يبالوا بالأمر، أخذوا الخزانة الحديدية وبها كل أموالنا، وحتى لو كنا نتنفس وهم ينصرفون ربما تصوروا أننا سنموت من الإصابات على أية حال، إذا كان هناك أي ارتياح لتجريدنا من كل سنت، فقد أتى من صغر حجم المبلغ الذي أخذه معهم، لا بد أن سليم اعتقد أن معنا ملايين، لا بد أنه اعتمد على أن تكون ضربة العمر، لكن كل ما حصل عليه من جهوده سبعة وعشرون ألف دولار تافهة، وبتقسيم المبلغ على أربعة، لا يكون نصيب كل فرد كبيراً، ليس أكثر من مقدار صغير، حقاً، وقد أسعدني أن أفكر في خيبة أمله. لسنوات وسنوات، استمتعت بتخيل الصدمة التي أصابته.

أعتقد أنني غبتُ عن الوعي ساعة - لكن ربما أكثر، وربما أقل. بصرف النظر عن المدة، حين أفقت وجدت أنني أستلقي على الأستاذ، كان لا يزال فاقد الوعي، وكنا محشورين عند باب السائق، والأطراف متشابكة معا وملابسنا منقوعة في الدماء. أول ما رأيته، حين ركزت عينا في بؤرة، نملة تزحف على حجر صغير. كان فمي ممتلئاً بنتف قدرة، ووجهي مفلطحاً على الأرض، كان ذلك لأن الزجاج فتح عند الارتطام، وأفترض أن ذلك حظ، إذا كان يمكن استخدام كلمة الحظ لوصف مثل هذه الأمور، على الأقل لم يمر رأسي عبر الزجاج. أفترض أن حدوث ذلك يستحق الحمد؛ على الأقل لم يتمزق وجهي.

أصيبت جبهتي بشدة وانتشرت الكدمات في جسدي كله، لكن لم أصب بكسور في العظام، اكتشفت ذلك حين نهضت وحاولت فتح الباب من فوق، لو حدث ضرر حقيقي، ما استطعت الحركة، لكن لم يكن من السهل أن أخرج ذلك الشيء من مفاصلته. كان يزن نصف طن، ومع ميل السيارة بشكل غريب وصعوبة الحصول على أية رافعة، لابد أنني كافحت لخمس دقائق قبل أن أنفذ من الفتحة. ضرب هواء دافئ وجهي، لكنه بدا بارداً بعد الحبس في فرن البيرس أرو، جلست على مؤخرتي ثائنتين، أبصق القذارة وأمتص النسمة العليلة، لكن يدي انزلقتا بعد ذلك، وحين لمست السطح الساخن للسيارة، كان عليّ أن أقفز مبتعداً. انهرت على الأرض، نهضت بصعوبة، وبدأت أترنح حول السيارة إلى الناحية الأخرى - في الطريق رأيت الصندوق المفتوح ولاحظت ضياع صندوق النقود، لكن حيث إن ذلك كان استنتاجاً سابقاً، لم أتوقف للتفكير فيه. كانت الناحية اليسرى

من السيارة مستقرة على نتوء حجري، وكانت المساحة صغيرة بين الأرض والباب. ست بوصات أو ثمان تقريباً، لم تكن واسعة بما يكفي لأن أنفذ برأسي خلالها، لكنني مستلقياً على الأرض استطعت أن أرى إلى مسافة أبعد في الداخل لألمح رأس الأستاذ يتدلى من الشباك، لا أستطيع تفسير كيف حدث ذلك، لكن حين لمحتّه من ذلك الشق الضيق، فتح عينيه. رأي أنظر إليه، وبعد لحظة لوى وجهه بما يشبه ابتسامة، وقال: «أخرجني من هنا يا والت، ذراعي منتهية تماماً، ولا أستطيع أن أتحرك بنفسى».

جريتُ إلى الناحية الأخرى من السيارة مرة أخرى، وخلعتُ قميصي، وضممته في يدي، صانعاً قفازاً بدائياً لأحمي كفي من المعدن الحارق، ثم سارعتُ إلى القمة، واستندت بطول حافة الباب المفتوح، ومددت يدي لأدفع الأستاذ خارج السيارة. لسوء الحظ، كانت الإصابة في كتفه اليمنى، ولم يستطع مد تلك الذراع، بذل جهداً ليلف بجسمه ويعطيني ذراعه الأخرى، لكن ذلك احتاج إلى عمل، عمل حقيقي، ورأيت كم كان الألم موجعاً بالنسبة له، طلبت منه أن يبقى ثابتاً، وخلعتُ الحزام من بنطلوني، وحاولتُ مرة أخرى أن أنزل الحزام الجلد إلى السيارة. بدا أن ذلك يفي بالغرض، قبض عليه الأستاذ يهودي بيده اليسرى، وبدأت الشد، لا أريد أن أتذكر كم مرة ارتطم، كم مرة انزلق، لكننا كافحنا معاً، وبعد عشرين دقيقة أو ثلاثين خرج.

وهكذا تقطعت بنا السبل في صحراء موهاف. كانت السيارة محطمة، وأقرب بلدة على بعد أربعين ميلاً، لم يكن معنا ماء، لكن أسوأ ما في ورطتنا جرح الأستاذ، فقد قدراً كبيراً من الدماء في

الساعتين السابقتين. انكسرت عظامه وتمزقت عضلاته، واستنفد آخر جزء من قوته في الزحف خارج السيارة، أجلسته في ظل البيرس أرو وابتعدت لأجمع بعض الملابس التي تناثرت على الأرض. التقطت قمصانه البيضاء الرائعة واحدا بعد الآخر وربطات العنق الحرير المصنوعة حسب الطلب، وحين امتلأت يداي ولم أعد قادراً على حمل المزيد، عدتُ بها لأستخدمها ضمادات، كانت أفضل فكرة يمكن أن أفكر فيها، لكنها لم تفد كثيراً. ربطتُ ربطات العنق معاً، وقطعت القمصان إلى شرائط طويلة ولففته بإحكام قدر المستطاع. لكن الدماء نزت من خلالها قبل أن أنتهى.

قلتُ: ”تستريح هنا بعض الوقت، وبمجرد أن تبدأ الشمس في الغروب، نرى إمكانية أن تقف على قدميك ونتحرك من هنا“.

قال: ”ليست فكرة فعالة يا والت، لن أفذها إطلاقاً“.

”من المؤكد أنك ستتنفذا. سنبدأ السير على الطريق، وبسرعة، تمر بنا سيارة وتلتقنا“.

”لم تمر هنا سيارة طول اليوم“.

”لا يهم، لابد أن يظهر شخص ما، إنه قانون الاحتمالات“.

”وماذا إذا لم يأت أحد؟“

”حينها أحملك على ظهري - بشكل أو آخر - نصل بك إلى جراح ليقدم لك الإسعافات الأولية“.

”أغلق الأستاذ يهودي عينيه وهمس بين الألم: ”أخذوا النقود، ليس كذلك؟“.

”هذا ما حدث بالضبط. ضاع كل شيء، إلى آخر بنس“.

قال ساعياً بأقصى ما يستطيع ليرسم ابتسامة على وجهه: "أوه حسناً. ما يأتي بسهولة يضيع بسهولة، أليس كذلك يا والت؟"

بدأ الأستاذ يهودي يضحك، لكن الحركة ألمته بشدة فلم يواصل، توقف ليسيطر على نفسه، ثم، دون مناسبة، نظر في عيني وأعلن: "ثلاثة أيام من الآن كان يمكن أن نكون في نيويورك".

"إنها قصة قديمة يا ريس، يوم من الآن سنكون في هوليوود".

نظر إليّ الأستاذ طويلاً ولم يقل شيئاً. ثم وعلى غير توقع، مد يده وأمسك ذراعي بيده اليسرى، وقال أخيراً: "مهما تكن، فإن ذلك بسببي. أليس كذلك يا والت؟"

"بالطبع، لم أكن إلا متسكعاً سينماً قبل أن تعثر عليّ".

"أود فقط أن تعرف أن ذلك صحيح في الاتجاهين - مهما أكن - فإن ذلك كان من أجلك".

لم أعرف كيف أردد، ولم أحاول، كان في الأفق شيء غريب، وفجأة لم أعد أعرف إلى أين نمضي، لا أقول إنني كنت مفزوعاً - على الأقل حتى ذلك الوقت - لكن معدتي بدأت ترتجف وترفرف، وكان ذلك دائماً علامة مؤكدة لاضطراب قادم، حينما تبدأ في داخلي إحدى تلك الرقصات، كنت أعرف أن تغيراً في الطقس على وشك الحدوث.

واصل الأستاذ: "لا تقلق يا والت؛ سيكون كل شيء على ما يرام".

"أتمنى ذلك، الطريقة التي تنظر بها إليّ الآن، إنها كافية لإثارة قلقي بشدة".

”أفكر، هذا كل ما في الأمر، أفكر بأقصى ما أستطيع من اهتمام، لا تجعل ذلك يزعجك“.

”لستُ منزعجا، مادمت لا تخدعني، لن أنزعج إطلاقاً“.

”تثق في، أليس كذلك يا والت؟“

”بالتأكيد أثق فيك“.

”تفعل أي شيء من أجلي، أليس كذلك؟“

”بالتأكيد، تعرف ذلك“.

”حسنا، ما أريده من أجلي الآن أن تدخل السيارة وتأتي بالمسدس من الدرج“.

”المسدس؟ لماذا تريده؟ ليس هناك لصوص لتطلق عليهم النار الآن، ليس هناك إلا نحن والريح- وباستثناء الريح هنا، لا يوجد شيء“.

”لا تطرح أسئلة، افعل ما أطلبه وأحضر لي المسدس“.

هل كان أمامي اختيار؟ نعم. ربما كان أمامي، ربما كان عليّ أن أرفض، وربما أنهى ذلك المسألة على الفور، لكن الأستاذ أعطاني أمراً، ولم يكن من الممكن أن أرفض - حينذاك، في وقت كهذا، كان يريد المسدس، وكانت مهمتي أن أحضره له. وهكذا، دون كلمة أخرى، أسرعت إلى السيارة وأحضرتة.

قال حين أعطيته له بعد دقيقة: ”لتحل بك البركة يا والت، أنت شبيهي“.

قلت: ”كن حذرا، السلاح مشحون، ولسنا في حاجة إلى حادث آخر“.

قال، وهو يربت على الأرض بجواره: ”تعال إلى هنا يا بني، اجلس بجواري واستمع إلى ما ينبغي أن أقوله“.

كنت قد بدأت بالفعل أندم على كل شيء، كان الإيقاع العذب في صوته إفشاء غير مباشر، وحين جلستُ كانت معدتي تتقلب، تثب مباشرة إلى المريء. كانت بشرة الأستاذ شاحبة تماما، وقطرات قليلة من العرق عالقة على شاربته، وأطرافه ترتجف من الحمى، لكن نظراته ثابتة، وكل القوة التي لا يزال يتمتع بها كامنة في عينيه، وأبقى هاتين العينين ثابتتين على طوال حديثه.

”هذا ما وصلنا إليه، يا والت؛ إننا في بقعة بشعة، وعلينا أن نخرج منها، إذا لم نفعل ذلك بأسرع ما يكون، سنموت“.

”يمكن أن يحدث ذلك، لكن ذلك لا يعني أن ننصرف قبل أن تنخفض الحرارة قليلا“.

”لا تقاطعني، اسمعني أولاً، ثم تكلم براحتك“. توقف لحظة ليبل شفثيه بلسانه، لكن فمه كان جافاً حتى بدت هذه الحركة عديمة الأهمية، ”علينا أن ننهض ونبتعد عن هنا، ذلك أكيد، وكلما انتظرنا أكثر كانت الأمور أسوأ، المشكلة أنني لا أستطيع الوقوف ولا أستطيع المشي، لا شيء يغير هذه الحقيقة. حين تغرب الشمس، سأكون أضعف مما أنا عليه الآن“.

”ربما نعم وربما لا“.

”لا يوجد ربما في هذه الحالة، وهكذا بدلاً من الجلوس وتضييع وقت ثمين، لديّ اقتراح“.

”أجل، ماذا؟“

”أبقى هنا وتنطلق في طريقك“.

”انس، لن أترحزح من جانبك يا أستاذ، قطعت هذا العهد منذ زمن بعيد، وأنوي الالتزام به“.

”إنها مشاعر طيبة يا بني، لكنك لن تجني من ورائها إلا المشاكل، ينبغي أن تنصرف من هنا، ولن تستطيع أن تفعل ذلك وأنا أجرك إلى أسفل، واجه الحقائق. هذه آخر ليلة نقضيها معاً، تعرف ذلك، وأعرف ذلك، وكلما تصارحنا أكثر كان ذلك أفضل لنا“.

”مستحيل، لن أفكر في ذلك ثانية“.

”لا تريد أن تتركني، ليس هذا ما عليك التفكير فيه، لكن فكر في ألامى مستلقياً هنا في هذه الحالة، لا تريد أن أعاني، وأنا ممتن لك. يبدو أنك تعلمت دروسك جيداً. لكنني أعرض عليك مخرجاً، وبمجرد أن تفكر فيه قليلاً تدرك أنه الحل الأفضل لنا“.

”ما المخرج؟“

”بسيط جداً. تأخذ هذا المسدس وتطلق النار على رأسي“.

”هيا يا أستاذ، ليس هذا وقت النكت“.

”ليست نكتة يا والت، تقتلني ثم تسير في طريقك“.

”أثرت الشمس على رأسك، وذهبت بعقلك. أصبت برصاصة في كتفك، هذا كل ما في الأمر، من المؤكد أنها مؤلمة، لكن ذلك لا يعني أن تقتل نفسك. يمكن للأطباء علاج هذه الأمور مرة واثنين وثلاثاً.“

”لا أتحدث عن الرصاصة، أتحدث عن السرطان في بطني، لم يعد علينا أن نمارس الخداع في هذا، أمعاني كلها مشوّهة ومدمّرة، وليس أمامي أكثر من ستة شهور أعيشها، حتى إذا استطعت الخروج من هنا، فقد انتهيت على أية حال، وهكذا لماذا لا ننفذ الأمر بأيدينا؟ ستة أشهر من الألم والوجع - هذا كل ما يمكن أن أطلع إليه، كنت أتمنى أن تبدأ طريقاً جديداً قبل أن أرحل، لكن لم يكن مقدراً أن يحدث ذلك، أمر سيئ جداً سيئ جداً بشأن أمور كثيرة، لكنك تقدم لي خدمة كبيرة حين تسحب الزناد الآن يا والت. اعتمد عليك، وأعرف أنك لن تخذلني.“

”كف عن هذا، توقف عن هذا الكلام يا أستاذ، لا تعرف ما تقول.“

”الموت ليس مُفرّجاً إلى هذه الدرجة يا والت، حين يصل الإنسان إلى نهاية الخط، يكون الشيء الوحيد الذي يريده حقاً.“

”لن أفعلها، لن أفعلها حتى بعد ألف سنة، تستطيع أن تطلب مني حتى يوم القيامة، لكنني لن أرفع أبداً يداً ضدك.“

”إذا كنت لن تفعلها فسوف أفعلها بنفسِي، ستكون أصعب بكثير، وأتمنى أن تجنّبني المشكلة.“

”يا رب، يا أستاذ، اترك المسدس“.

”أسف يا والت، إذا لم تكن تريد أن ترى ذلك، ودعني الآن“.

”لن أودعك، لن تسمع مني كلمة حتى تترك هذا المسدس“.

لكنه لم يعد يسمع، وهو لا يزال ينظر في عيني، رفع المسدس إلى رأسه واستعد. بدا وكأنه يشجيني على أن أوقفه، يشجيني على أن أمد يدي وأقبض على المسدس، لكنني لم أستطع أن أتحرك، اكتفيت بالجلوس والمراقبة، ولم أفعل شيئاً.

كانت يده ترتجف والعرق يتدفق على جبهته، لكن عينيه كانتا ثابتتين وصافيتين؛ وقال: ”تذكر الأوقات الطيبة، تذكر الأشياء الطيبة التي علمتك إياها“، ثم بلع ريقه، وأغلق عينيه وضغط الزناد.

III

استغرق

الأمر ثلاث سنوات لأتبع الخال سليم؛ لأكثر من ألف يوم طفت البلاد متتبعا ابن الزانية في كل مدينة من سان فرانسيسكو إلى نيويورك. عشت يوماً بيوم، أستجدي وأحتال بقدر ما أستطيع، وتدرجيا عدت متسولاً مرة أخرى كما ولدتُ. سافرت متطفلاً، وعلى قدمي، وركبت القطارات، نمت في المداخل، وفي معسكرات المتشردين، وفي نزل رخيصة، وفي منتجعات مفتوحة، في بعض المدن ألقيت قبعتي على الرصيف ولعبت بالبرتقال للمارة، وفي مدن أخرى، مسحت أراضيات وأفرغت صفائح قمامة، وفي مدن أخرى سرقت. سرقت طعاماً من مطابخ المطاعم، ونقوداً من ماكينات النقد، وجوارب وملابس داخلية من الصناديق في محلات «ولورث»- ما تصل إليه يداي. وقفتُ في طوابير المعدمين ونمت خلال المواعظ في جيش الخلاص، رقصت في أركان الشوارع، غنيت مقابل العشاء، ذات مرة في دار للسينما في سياتل، كسبت عشرة دولارات من رجل عجوز طلب أن يمص عضوي، وفي مرة أخرى، في شارع هينبين في مينيابوليس، عثرت على ورقة بمائة دولار ملقاة في بالوعة. أثناء تلك السنوات الثلاث، اقترب مني عشرات الناس في أمكنة كثيرة مختلفة وسألوني إن كنت وألت الولد العجيب. فوجئت أول مرة، لكن بعد ذلك كان ردي جاهزاً، كنت أقول: «أسف يا رفيق، لم أسمع عنه قط، لا بد أنك تخط بيني وبين شخص آخر». وقبل أن يلحوا، أحبيهم وأتلاشى في الزحام.

كنت على مشارف الثامنة عشرة حين وجدته، بلغ طولي خمسة أقدام وخمس بوصات ونصف، ولم يمر على تنصيب روزفلت

إلا شهران فقط، كان المهربون لا يزالون يعملون، لكن مع قرب انتهاء قانون منع الخمر، كانوا يبيعون آخر مخزونهم ويستكشفون خطوطاً جديدة للاستثمار المشبوه. هكذا وجدت خالي. بمجرد أن أدركت أن هوفر^(١) سيتم التخلص منه، بدأت الطرق على باب كل مهرب خمر أعثر عليه، كان سليم من النوع الذي يتعلق بعملية طريقها مسدود مثل الخمر المهربة، وكانت الفرصة أنه إذا توسل لشخص من أجل وظيفة، فسوف يقوم بها في مكان مغلق. وذلك يستبعد الشواطئ الشرقية والغربية، وكنت قد ضيعتُ بالفعل وقتاً طويلاً في تلك الأمكنة، وهكذا بدأت أركز تماماً في كل مزاراته القديمة، وحين لم يحدث شيء في سانت لويس أو مدينة كانساس أو أوماها، وانطلقت خلال رقع أوسع وأوسع من الميديويست. ميلوكي، وسينسينتي، ومينيابوليس، وشيكاغو، وديترويت. ومن ديترويت عدتُ إلى شيكاغو، ورغم أنني لم أتوصل إلى شيء في ثلاث زيارات سابقة إلى هناك، غيرت الزيارة الرابعة حظي. انس ما يتعلق بالحظ في المرة الثالثة، ثلاث ضربات ولا تصيب الهدف، لكن الرابعة تصيب فوراً، وحين عدتُ إلى شيكاغو في يناير ١٩٣٣، وصلت في النهاية إلى القاعدة الأولى. قاد الزحف إلى روكفورد في ولاية إلينوي - ثمانون ميلاً فقط على الطريق - وهناك وجدته: يجلس في مستودع في الثالثة فجراً، يحرس مائتي صندوق مهرب من الويسكي الكندي.

(١) هوفر (١٨٩٥-١٩٧٢): مدير المخابرات الفيدرالية (١٩٢٤-١٩٧٢)، يُعرف بمحاربته للعصابات في فترة منع الخمر (١٩١٩-١٩٣٣)، وبحملته الشرسة ضد الشيوعيين بعد الحرب العالمية الثانية.

كان يمكن أن أطلق النار عليه مباشرة في تلك اللحظة هناك، كان معي مسدس مشحون في جيبي، ونظرًا لأنه كان المسدس نفسه الذي استخدمه الأستاذ في الانتحار قبل ثلاث سنوات، كان هناك عدل مؤكد في أن أوجه ذلك المسدس إلى سليم، لكن كانت لدي خطط مختلفة، وقد تدبرتها لفترة طويلة جدًا، ولم أكن أنوي التخلي عنها، لم يكن يكفيني أن أقتل سليم. ينبغي أن يعرف جلاده، وقبل أن يموت، أتركه يعيش مع موته لبعض الوقت، العدل عدل رغم كل شيء، وإذا لم يكن الانتقام لذيذًا، لماذا أفكر فيه في المقام الأول؟ وقد دخلت محل الفطائر، أسعى إلى التهام قدر كبير مما لذ وطاب.

كانت الخطة معقدة تمامًا، كانت مختلطة تمامًا بذكريات من الماضي، ولم يكن من الممكن أن أفكر فيها من دون الكتب التي قرأها لي أيسوب في المزرعة في سيبولا، وكان أحدها، مجلدًا ضخماً بغلاف أزرق ممزق، عن الملك آرثر^(١) وفرسان المائدة المستديرة. باستثناء سير والتر الذي أحمل اسمه، كان أولئك الفتيان في بدلهم المعدنية أبطال المفضلين، وكنت أطلب منه تلك المجموعة أكثر من سواها، حين كنت في أشد الحاجة إلى صحبة (للاهتمام بجروحي، مثلاً، أو لمجرد الشعور بالكآبة بسبب نزاعي مع الأستاذ). كان أيسوب يقطع دراساته ويصعد ليجلس معي، ولم أنس إطلاقاً ارتياحي وأن أستمع إلى تلك الحكايات عن السحر الأسود والمغامرات، وقد صرّت وحيداً في العالم، كثيراً ما عادت

(١) الملك آرثر: بطل بريطاني أسطوري، يقال إنه كان ملك البريطانيين في القرن السادس.

إلى ذاكرتي، كنت في رحلة البحث عن نفسي رغم كل شيء؛ أبحث عن كأسى المقدسة، وبعد سنة تقريباً من البحث، بدأ شيء غريب يحدث: بدأت الكأس في القصة تتحول إلى كأس حقيقة. اشرب من الكأس وستمنحك الحياة، لكن الحياة التي كنتُ أبحث عنها لا يمكن أن تبدأ إلا بموت خالي، كانت تلك كأسى المقدسة، ولم يكن من الممكن أن تكون لي حياة حقيقة حتى أعثر عليها، اشرب من الكأس وستمنحك الموت. تدريجياً تحولت الكأس إلى الكأس الأخرى، وأنا أوصل الانتقال من مكان إلى مكان، خطر في ذهني كيف أقتله. كنت في لنكولن في ولاية نبراسكا حين تبلورت الخطة بشكل نهائي- وأنا ألتهم سلطانية من الحساء في الإرسالية اللوثرية لسانت أولاف- وبعد ذلك لم تكن هناك أي شكوك. سأملاً كأساً بمادة الاستركنين وأجعل ابن الزانية يشربها، تلك هي الصورة التي رأيتها، ومنذ ذلك اليوم لم تفارقني قط، أوجه المسدس إلى رأسه وأجعله يتجرع موته. وهكذا كنت هناك، أتسأل خلفه في ذلك المستودع الخالي البارد في روكفورد في ولاية إلينوي، قضيت الساعات الثلاث السابقة قابلاً خلف ركام من الصناديق الخشبية، منتظراً أن ينعس سليم ويغط في النوم، والآن حانت اللحظة، نظراً للسنوات الكثيرة التي مضت في التخطيط لهذه اللحظة، كنت هادئاً جداً.

قلتُ هامساً في أذنه: «كيف حالك يا خال، لم أراك منذ فترة طويلة».

كان المسدس مضغوطاً على مؤخرة رأسه، لكن لمجرد التأكد من أنه يدرك الأمر، نقرت الزناد بإبهامي، وكانت هناك لمبة عارية أربعون وات معلقة على الطاولة التي يجلس عليها سليم، وكانت كل

أدوات حارس ليلي متناثرة أمامه: تَرْمُس القهوة، زجاجة ويسكي، كأس صغيرة، وملذات الأحد، ومسدس ٣٨».

قال: «والت، هل أنت والت؟»

«بلحمي، يا رفيق، ابن أختك المفضل».

«لم أسمع شيئاً، بحق الجحيم كيف تكلمني بهذا الشكل؟»

«ضع يديك على الطاولة ولا تلتفت، إذا حاولت أن تمد يدك إلى

المسدس ستموت في الحال، تفهم؟»

أطلق ضحكة عصبية: «أجل، فهمت».

«نوع مما كان يحدث في الماضي، هو؟ أهدنا يجلس في مقعد،

والآخر يوجه مسدساً إليه، ظننتُ أنك ستقدر الترامي بتقاليد الأسرة».

«ليس هناك سبب لهذا يا والت».

«اسكت، إذا توسلت، أطلقت النار عليك في الحال».

«يسوع، يا بني، امنحني مهلة».

تنشقت الهواء خلف رأسه: «ما هذه الرائحة يا خال؟ تبرزت في

بنطلونك بالفعل، أليس كذلك؟ ظننتُ أنك صلب، كل هذه السنوات،

كنت أتجول متذكراً أي رجل صلب كنت».

«أنت مجنون، لم أفعل شيئاً».

«بالتأكيد رائحتك تشبه رائحة الغائط، أم أن هذا مجرد خوف؟

هذه رائحة خوفك، يا جامد؟»

كان المسدس في يدي اليسرى، وفي اليمنى حقيبة مدرسية، قبل

أن يواصل الحديث - وكان بالفعل يوتر أعصابي - أرجحت الحقيبة

حول مؤخرة رأسه وألقيتها أمامه على الطاولة، وقلت: «افتخها». وهو يفتح الحقيبة، استدرت إلى الناحية الأخرى والتقطت مسدسه، ثم ببطء وأنا أبعد مسدسي عن رأسه، واصلت السير حتى صرت في مواجهته مباشرة، أبقيت المسدس موجهًا إلى وجهه وهو يمد يده في الحقيبة ويخرج محتوياتها: في البداية برطمانًا ممتلئًا بلبن مسموم، ثم كأسًا فضية، سرقة من محل رهن في كليفلاند قبل عامين وظللت أحملها معي من حينها، لم يكن المعدن نقيًا- مجرد إناء فضي- لكنه كان مزخرفًا بأشكال صغيرة على صهوة حصان، وصقلته في ذلك المساء حتى لمع، بمجرد أن استقرت الكأس على الطاولة مع البرطمان، رجعت قدمين ليتسع المشهد لي، كان العرض على وشك أن يبدأ ولم أكن أريد أن يضيع مني شيء.

بدا لي سليم عجوزًا، عجوزًا مثل الهضاب، كبر عشرين عاما منذ رأيته آخر مرة، وكان التعبير في عينيه مؤذيا جدا، ملينا بالألم والارتباك، ربما شعر رجل أقل مني ببعض الشفقة عليه، لكنني لم أشعر بشيء، كنت أريده ميتًا، وحتى وأنا أنظر إلى وجهه، باحثًا عن أصغر علامة للإنسانية أو الطيبة، انتشيت بفكرة قتله.

قال: «ما هذا كله؟»

«ساعة كوكتيل، تصب لنفسك شرابًا قويا طيبًا، يا صديق، وتشرب في صحتي».

«يبدو مثل اللبن».

«مائة في المائة - وأكثر، مباشرة من البقرة 'بسي'».

«اللبن للأطفال، لا أطيق طعم هذا الخرا».

«طيب بالنسبة لك، يساعد على تقوية العظام ويجعل المزاج مشرقاً، عجوزاً كما تبدو الآن يا خال، ربما لا تكون فكرة سيئة أن ترشف من نبع الشباب، سيصنع العجائب، صدقني، رشفات قليلة من هذا السائل، ولن تبدو يوماً أكبر مما تبدو عليه الآن».

«تريد أن أصب اللبن في الكأس، أليس هذا ما تقول؟»

«صب اللبن في الكأس، وارفعه في الهواء وقل 'طول العمر لك يا والت'، ثم ابدأ الشرب، اشرب الكمية كلها. اشربها حتى آخر قطرة».

«ثم ماذا؟»

«لا شيء؛ ستقدم خدمة عظيمة للعالم يا سليم، ويكافئك الرب».

«في هذا اللبن سم، أليس كذلك؟»

«ربما فيه وربما ليس فيه، هناك طريقة واحدة لمعرفة ذلك».

«خراً؛ ستكون مجنوناً إذا تخيلت أنني سأشرب هذا الشيء».

«إذا لم تشربه ستنتلق رصاصة في رأسك، تشربه وربما تكون أمامك فرصة».

«مؤكد، بالضبط مثل ذلك الصيني في الجحيم».

«لن تعرف أبداً، ربما أفعل ذلك لمجرد أن أفرعك، ربما أريد أن أشرب نخباً معك قبل أن نبدأ العمل».

«العمل؟ أي عمل؟»

«العمل القديم، العمل الحالي، ربما حتى العمل المستقبلي، أنا محطم يا سليم، وأحتاج إلى وظيفة، ربما أكون هنا لأطلب منك المساعدة».

«مؤكد، سأساعدك في الحصول على وظيفة، لكن ليس عليّ أن أشرب لبنا لأفعل هذا، إذا أردت أن أساعدك، فسيكون أول ما أفعله في صباح الغد أن أتحدث إلى بينجو».

«حسنًا، سألزمك بذلك، لكننا سنتناول فيتامين 'د' أولاً». خطوط إلى حافة الطاولة، ومددت يدي بالمسدس، ووخزته تحت ذقنه - بقوة جعلته يرجع برأسه إلى الخلف. «وستشرب الآن».

كانت يدا سليم ترتجفان، لكنه مضى قدمًا وفتح البرطمان، قلت وقد بدأ يصب اللبن في الكأس: «لا تسكبه. إذا سكبت نقطة ضغطتُ الزناد». تدفق السائل الأبيض من إناء إلى الآخر، ولم يقع شيء منه على الطاولة، قلتُ: «حسنًا. حسنا جدا. والآن ارفع الكأس وقل في صحتك».

«حياة طويلة لك يا والت».

كان الحقير يتصبب عرقًا، شممت رائحة عفونته البشعة وهو يرفع الكأس إلى شفتيه، وكنت سعيدًا، سعيدًا لأنه كان يعرف ما هو أت، راقبتُ الهلع يتصاعد في عينيه، وفجأة ارتجفتُ معه؛ ليس من العار أو الندم - لكن من البهجة.

قلتُ: «تجرعه، أيها العجوز اللعين، افتح مرينك وتجرع».

أغلق عينيه، وأمسك بأنفه مثل طفل على وشك أن يتناول دواءه، وبدأ يشرب، كان ملعونا إذا فعل وملعونا إذا لم يفعل، لكنني على الأقل قدمت له بعض الأمل، ذلك أفضل من المسدس، يقتله المسدس بشكل مؤكد، لكنني ربما كنت أزعه فقط باللبن، وحتى لو لم أفعل ذلك، ربما يكون محظوظا ويحتمل السم، حين يكون أمام الإنسان اختيار وحيد، يتناوله، حتى لو كان أطول لقطة. وهكذا سد أنفه وبدأ دون تفكير، ورغم شعوري تجاهه، سأقول هذا عن هذا البغيض: تناول دواءه مثل ولد طيب، جرّع موته وكأنه جرعة من زيت الخروع، ورغم أنه ذرف بعض الدموع أثناء ذلك، وهو يلهث وينشج بعد كل رشفة، واصل الرشف حتى النهاية.

انتظرتُ حتى يبدأ مفعول السم، وقفت أشاهد وجه سليم بحثاً عن علامات المعاناة، مرت ثوان ولم ينهر ابن الزانية، كنت أتوقع نتائج فورية. الموت بعد رشفة أو اثنتين. لكن لا بد أن اللبن خفف الوخز، وحين دفع خالي الكأس الخالية على الطاولة، كنت أتساءل بالفعل عن الخطأ.

قال: «عليك اللعنة، عليك اللعنة، أيها المخادع يا ابن العاهرة».

لا بد أنه رأى الدهشة في وجهي، شرب كمية من الاستركنين تكفي لقتل فيل، ولا يزال منتصباً يدفع مقعده على الأرضية، مبتسماً ابتسامة عريضة مثل جن فاز في عمل مثير، قلت مشيراً إليه بالمسدس: «ابق حيث أنت، ستندم إذا لم تفعل».

ولم يفعل سليم سوى الانفجار في الضحك: «لا تملك الشجاعة يا أهبل».

وكان مصيبا، التفت وبدأ يبتعد، ولم أستطع إطلاق النار، كان يعطيني ظهره هدفاً، وكنت أراقبه فقط، مرتجفا بدرجة تجعلني لا أسحب الزناد، خطأ خطوة، ثم خطوة أخرى، وبدأ يختفي في ظلال المستودع، استمعت إلى ضحكه الساخر المجنون يهز الجدران، فقط حين لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر، فقط حين ظننت أنه تفوق عليّ إلى الأبد، تمكن منه السم، كان قد تمكن من أن يخطو عشرين خطوة أو ثلاثين، لكن كان ذلك أقصى ما يمكن أن يذهب إليه، مما يعني أن الضحكة الأخيرة كانت من نصيبي رغم كل شيء، سمعتُ قرقرة مفاجئة مختنقة، سمعت صوت ارتطام جسد بالأرض، وحين شققت في النهاية طريقي في الظلام وعثرتُ عليه، كان ميتاً تماماً وكأنه حجر.

لم أرغب في التسليم بأي شيء، وهكذا سحبت جثته باتجاه الضوء لألقي نظرة أفضل، دافعا وجهه إلى أسفل من الياقة عبر الأرض الإسمنتية، توقفت على بعد بضعة خطوات من الطاولة، لكن بالضبط وأنا على وشك أن أجثم وأضع طلقة في رأس سليم، أوقفتني صوت من خلفي.

قال الصوت: حسنا يا غلام: «اترك المسدس وارفع يديك في الهواء».

تركتُ المسدس، ورفعتُ يدي، ثم ببطء شديد التفتُ لأواجه الغريب، لم يصدمني بشيء مميز: رجل يصعب وصفه في أواخر الثلاثينيات من العمر أو أوائل الأربعينيات، يرتدي بدلة زرقاء أنيقة وحذاء أسود غالياً ويضع منديلاً قرنفلياً في جيبه الأمامي، في البداية ظننت أنه أكبر سناً، لكن ذلك كان لبياض شعره. بمجرد أن تنظر إلى وجهه، تدرك أنه ليس كبيراً على الإطلاق.

قال: «قَتَلْتُ للتو أحد رجالي، ذلك أمر غير مقبول يا بني، لا يهمني صغر سنك. فعلتها وسوف تنال العقاب».

قلت: «أجل، صحيح. قتل ابن الزانية، يستحق القتل فقتلته، إنها الطريقة المناسبة للتعامل مع الحشرات يا مستر، تزحف إلى منزلك وعليك التخلص منها، أطلق النار علي إذا أحببت. لا أبالي. فعلتُ ما أتيتُ لأجله، وهذا كل ما يهمني؛ إذا مت الآن، فإنني على الأقل أموت سعيداً».

ارتفع حاجبا الرجل حوالي مليمتر ونصف، وارتعشا لحظة في دهشة، أربكته كلماتي القليلة ولم يكن متأكداً من الطريقة التي عليه أن يرد بها، بعد التفكير في الأمر لثانيتين، بدا وكأنه قرر أن يتسلى. قال: «وهكذا تريد أن تموت الآن، أليس كذلك؟».

«لم أقل ذلك، أنت من يمسك بالمسدس، وليس أنا، إذا أردت أن تسحب الزناد، فليس هناك ما يمكن أن أفعله».

«وماذا إذا لم أطلق النار عليك؟ ماذا يفترض أن أفعل معك حينذاك؟».

«حسناً، أرى أنك فقدت واحداً من رجالك، وربما تفكر في استخدام شخص مكانه. لا أعرف المدة التي قضاها سليم في العمل معك، لكن لا بد أنها كانت طويلة بشكل يكفي لأن تكتشف أي غبي كان سليم، لو لم تكن تعرف ذلك ما كنت أقف هنا الآن، أليس كذلك؟ كنت ساكوناً ملقياً على الأرض ورصاصة في قلبي».

«كان لسليم أخطاؤه، لن أجادلك في ذلك».

«لم تخسر كثيرًا يا مستر، احسب المكسب والخسارة تر أنك أفضل من دونه، لماذا تتظاهر بالأسف على شخص تافه وسيئ مثل سليم، مهما يكن ما فعله لك، سأفعله بشكل أفضل. وعد».

«حدثني عن نفسك، باختصار».

«بعد ما مررت به في السنوات الثلاث الماضية، إنها تقريبًا الشيء الوحيد الذي تبقى لي».

«وماذا عن الاسم؟ هل لك اسم من الأسماء؟»

«والت».

«والت ماذا؟»

«والت رولي يا سيدي».

«هل تعرف من أنا يا والت؟»

«لا يا سيدي، لا أعرف».

«الاسم بينجو والش؛ ألم تسمع به قط؟»

«من المؤكد أنني سمعتُ عنك، أنت مستر شيكاجو، اليد اليمنى لبوس أومالي، أنت ملك اللوب^(١)، بينجو، الأمر والناهي الذي يسيّر كل شيء».

لم يستطع إلا أن يبتسم للتعظيم، تقول للرجل الثاني إنه الأول، ويكون عليه أن يقدر المجاملة، ونظرًا لأنه لم يكن قد أنزل المسدس بعد، لم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بالبوح بكلمات قاسية عنه،

(١) لوب Loop: الحي التجاري الرئيسي في شيكاجو، إلينوي.

مادام أبقى عليّ حيا، كان عليّ أن أقف هناك أنا فقه حتى ينتهي الأمر
على خير.

قال: «حسننا يا والت، سنجرب، شهران أو ثلاثة، ثم نرى أين
نقف، فترة اختبار لنلم بالأمر؛ لكن إذا لم تثبت جدارتك فسوف
أخلص منك، سأرسلك في رحلة طويلة.

إلى المكان نفسه الذي ذهب إليه سليم، على ما أظن».

«هذه هي الصفة التي أعرضها، وافق أو ارفض يا بني».

«تبدو لي منصفة، إذا لم أقم بوظيفتي أقطع رأسي بفأس، أجل
أستطيع أن أوافق على ذلك، لماذا لا بحق الجحيم؟ إذا لم أستطع أن
أفي بعهدي معك يا بينجو، ما فائدة الحياة على أية حال؟».

هكذا

بدأت مهنتي الجديدة. دربني بينجو و علمني، وبالتدرّج صرت مساعده. كانت فترة الاختبار التي استمرت شهرين صعبة على أعصابي، لكن رأسي لا يزال متصلاً بجسدي عند نهايتها، وبعد ذلك وجدت نفسي متحمساً للعمل. كان لأومالي واحد من أكبر المشاريع في مقاطعة كوك^(١)، وكان بينجو مسئولاً عن إدارة المعرض. قاعات القمار، عمليات الأرقام، المستودعات، فرق الحماية، الآلات التي تعمل بالنقود- كان يدير كل هذه المشروعات بيد قوية، لحساب الرئيس فقط، التقيتُ به في لحظة صاخبة، فترة انتقالية وفرص جديدة، وبانتهاء العام رسخ مكانته واحداً من أمهر الموهوبين في الميديويست، كنت محظوظاً حين عثرت عليه مُعْظِماً. أخذني بينجو تحت جناحه، أبقيت عيني مفتوحتين وكنت أستمع لما يقول، وتحولت حياتي تماماً، بعد ثلاث سنوات من اليأس والجوع، كان في معدتي طعام، وفي جيبتي نقود، وعلى ظهري ملابس أنيقة. كنت فجأة في طريقي مرة أخرى، وحيث إنني كنت مساعد بينجو، كانت الأبواب تفتح لي وقتما أطرقتها.

بدأت مراسلاً، أنقل له الرسائل الشفهية وأقوم بمهام صغيرة وغريبة، أشعل له السجائر وأخذ بدله إلى المغسلة؛ وأشتري الزهور لصديقاته وألمع أغطية إطارات سيارته؛ وألبي أوامره مثل جرو حريص. يبدو الأمر مهيناً، لكن الحقيقة أنني لم أهتم بكوني تابعاً، كنت أعرف أن فرصتي آتية، وأثناء ذلك كنت ممثناً لأنه وفر لي وظيفة، كان الكساد، رغم كل شيء، وأين يمكن لشخص مثلي أن يحصل على صفقة أفضل؟ لم أحصل على أي قدر من التعليم، ولم

(١) مقاطعة كوك: مقاطعة في ولاية إلينوي.

أكن أتمتع بأية مهارات، ولم أكن مدربًا على شيء باستثناء مهنة انتهت، وهكذا ابتلعت كبريائي وفعلت ما يطلب مني. إذا كان عليّ أن ألحق الحذاء لأكسب قوت يومي، فليكن، وتحولت إلى أفضل لاعق أحذية، من يبالي إن كنت أستمع إلى قصص بينجو وأضحك على نكاته؟ لم يكن الرجل راوية سينما، والحقيقة أنه كان من الممكن أن يكون ممتعًا تمامًا حين يريد.

بمجرد أن برهنت على إخلاصي له، لم يوقف تقدمي. في أوائل الربيع كنت أتسلق السلم، ومنذ ذلك الوقت كان السؤال الوحيد بأية سرعة أصعد إلى الدرجة التالية. جمع بينجو بيني وبين ملاكم سابق اسمه ستوترز جروجان، وبدأت أنا وستوترز تنتقل بين البارات والمطاعم ومحلات الحلوى لنجمع أموال الحماية الأسبوعية لأومالي. وكما يوحي هذا الاسم، لم يكن ستوترز^(١) يتكلم كثيرًا، وكنت أتمتع بقدرة بارزة على استخدام الكلمات، وحيثما مررنا بمتهرب أو ماطل، ألون تلك الصور القوية لما حدث للزبائن الذين لم يفوا بدفع ما عليهم حتى كان من النادر أن يستخدم رفيقي قبضتيه. كان سنّدًا مفيدًا، ومن الرائع أن يكون معك لأغراض استعراض إما أو، لكنني كنت أزهو بقدرتي على تهدئة الخلافات دون اللجوء إلى خدماته. في النهاية، كان الكلام يصل إلى بينجو عن سجل مساري الجيد، فنقلني إلى وظيفة في الأرقام الجارية في ساويث سايد^(٢). عملت أنا وستوترز معًا بشكل جيد، لكنني فضلت أن أكون بمفردي،

(١) ستوترز Stutters: الاسم يعني تمتمة أو تهتهة.

(٢) الأرقام الجارية: عمليات إجرامية صغيرة في اللوتري (حين كان غير قانوني في الولايات المتحدة). ساويث سايد: جزء رئيسي من مدينة شيكاغو، يقع في مقاطعة كوك.

وخلال الشهور الستة التالية سرت على أرصفة كثير من الأحياء البارزة المختلفة، متحدثاً مع أتباعي وهم يقدمون نقودهم لرمية حظ لكسب بضعة دولارات أخرى. كان لكل شخص نظامه، من موزع الصحف في ركن إلى القندلفت في الكنيسة، أحببت الاستماع إلى الناس وهم يحكون لي كيف كونوا مجموعاتهم، جاءت الأرقام من كل مكان، من أعياد الميلاد والأحلام، من متوسطات الضرب بالمضرب وأسعار البطاطس، من الشقوق في الرصيف، ولوحات الرخص، وقوائم الغسيل، والحضور في اللقاء الأخير في صلاة الأحد، كانت فرص الكسب منعدمة تقريباً، ومن ثم لم يتهمني أحد حين يخسر، لكن في أحيان نادرة حين يفوز شخص، كنت أتحوّل إلى رسول الأخبار الطيبة، كنتُ كونت الحظ، ودوق الهبات الكبيرة، وأحببت مشاهدة وجوه الناس تسطع وأنا أوزع النقود. عموماً، لم تكن وظيفة سيئة، وحين رقاني بينجو مرة أخرى، كدت أسف عليها.

من الأرقام انتقلت إلى القمار، وبحلول عام ١٩٣٦ كنت رئيس عمليات صالة الرهان في شارع لوكست، مكان حميم ممتلئ بالدخان يقبع في الغرفة الخلفية من مؤسسة للتنظيف الجاف، كان الزبائن يصلون في قمصانهم وينظفوناتهم المجددة، ويخلعونها على المنضدة الأمامية، ثم يشقون طريقهم بجوار أرفف الملابس المعلقة إلى الغرفة السرية في الخلف، كل من دخل هذا المكان تقريباً ثرثر بعض الشيء عن التعود على مغسلة، كانت نكتة دائمة لكل الرجال الذين يعملون تحت يدي، وبمرور بعض الوقت بدأنا نراهن على عدد من يقولونها فجأة وعلى غير توقع في يوم معين. وكما عبر عنها ذات مرة كاتب حساباتي ولّدو ماكثير: «هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي يفضون فيه جيوبك ويكونون بنظفونك في الوقت ذاته. اصرف كل ما في جيبك، ولن تفقد قميصك».

أدركتُ عملاً صغيراً جيداً في غرفة خلف مغسلة «بني». كان العمل كثيفاً، لكنني استأجرت صبياً لينظمه لي جيداً، وأوضحت له دائماً أن أعقاب السجائر تطفأ في الطفايات وليس على الأرض، كانت ماكينات التذاكر أحدث ابتكار في عالم المعدات الحديثة، في كل ميادين السباق الرئيسية في البلاد، وأقيمت القانون خلف ظهري بتبرعات منتظمة لصناديق تقاعد خاصة لسنة من رجال الشرطة، كنت في الحادية والعشرين من العمر، وكنت في وضع طيب في كل الأحوال. أعيش في غرفة فخمة في فندق «فيذرستون»، وعندي خزانة مليئة بالبدل فصلها لي ترزي إيطالي بنصف الثمن، وأستطيع الذهاب إلى نادي «ريجلي» وحضور مباراة لفريق كبز^(١) حين أحب في عصر أي يوم، كان ذلك رائعاً بالفعل، لكن على القمة كانت هناك النساء، نساء كثيرات، وكنت أتأكد من حصول عضوي على كل ما يمكن من متع. بعد مواجهة ذلك القرار المرعب في فيلادلفيا قبل ذلك بسبع سنوات، صارت خصيتاي نفيسيتين جداً. تخلّيت عن الشهرة والحظ من أجلهما، ولم يعد هناك والت الولد العجيب، تصورت أن الطريقة المثلى لتبرير اختياري أن أستخدمهما قدر ما أستطيع. لم أكن بكرّاً حين وصلتُ إلى شيكاغو، لكن رجولتي لم تكتمل حتى التحقّت بالعمل مع بينجو وصار معي نقود لأدفع مقابل الوصول إلى أية امرأة أتخيلها. وانهزمت رغبتني أمام فلاحه اسمها «فيلما تشيلد» في مكان ما في غرب بنسلفانيا، لكن ذلك كان موضوعاً بدائياً جداً: نتلامس بملابسنا في حظيرة باردة، ووجهانا مبلان باللعب ونحن نتلمس طريقنا ونصارع للوصول إلى الموضع، دون أن نتأكد بالضبط مما يحدث هناك. بعد بضعة أشهر، مع قوة ورقة بمائة دولار وجدتها في مينيابوليس، خضت

(١) ريجلي: نادي بيسبول في شيكاغو. كبز: فريق بيسبول في شيكاغو.

تجربتين أو ثلاثا مع عاهرات، لكنني تقريبًا كنت في عداد المبتدئين حين ضربتُ في شوارع «هوج تاون»، بمجرد أن استقر بي الحال في حياتي الجديدة، فعلت كل ما أستطيع لأعوض ما فات.

هكذا سارت الأمور، بنيت بيتًا لنفسي في المنظمة، ولم أشعر قط بأي وخز بشأن الانخراط مع رجال سيئين، رأيت أنني واحد منهم، أمثل ما يمثلونه ولم أنطق قط لأحد منهم بكلمة عن الماضي: لا لابينجو، أو الفتيات اللاتي نمت معهن، أو لأي شخص، مادمت لا أعتمد على الماضي، يمكن أن أخدع نفسي بالتفكير بأن لي مستقبلًا، كان الأمر مؤلمًا بدرجة تجعلني لا أنظر إلى الخلف، وهكذا أبقيتُ عيني مثبتتين على ما هو أمامي، وكلما خطوت خطوة أخرى إلى الأمام، ابتعدت عن شخصيتي مع الأستاذ يهودي. كان أفضل جزء مني يرقد تحت الأرض معه في صحراء كاليفورنيا. دفنته هناك مع نسخه من كتاب سبينوزا، وقصاصات الصحف التي جمعها عن روائع والت الولد العجيب، والقلادة بالعقلة المقطوعة من إصبعي، لكن حتى رغم عودتي إلى هناك كل ليلة في أحلامي، كنت أصاب بالجنون حين أفكر في الأمر بالنهار، يفترض أن يكون قتل سليم قد أنهى الحكاية، لكنه على المدى البعيد لم يحسن من الأمر شيئًا. لم أسف على ما فعلتُ، لكن الأستاذ يهودي لا يزال ميتًا، وكل من على شاكلة بينجو في العالم لا يعوضونني عنه. كنت أبتخر في شيكاجو وكانني ذاهب إلى أمكنة معينة، وكانني مستر فلان، لكنني في أعماقي لم أكن أحدا، دون الأستاذ، لم أكن أحدا، ولن أكون في أي مكان.

كانت أمامي فرصة لأنجو قبل فوات الأوان، فرصة واحدة لخفض خسائري والابتعاد، لكنني كنت أعمى بدرجة لا تسمح لي بأن أقتنصها حين سقط العرض في حجري. في أكتوبر ١٩٣٦،

وكنت منتفخًا جدًا بأهميتي، معتقدًا أن الفقاعة لن تنفجر أبدًا. تجنبت المغسلة عصر أحد الأيام لأقوم ببيع بعض الأعمال الشخصية: حلقة الذقن وقص الشعر في صالون حلقة «بروير»، وتناول الغداء في مطعم «ليميل» في شارع «واباش»، ثم إلى فندق «رويل بارك» للهو مع راقصة اسمها ديكسي سينكلير، وكان الموعد محددًا في الثانية والنصف في جناح رقم ٤٠٩، وقد انتفخ بنطلوني مقدمًا، لكن قبل أن أصل إلى باب مطعم ليميل بست ياردات أو سبع، بالضبط وأنا على وشك الدخول لتناول الغداء، تطلعت لأرى آخر شخص في العالم أتوقع رؤيته. وقفت متصلبًا تمامًا في مكاني. كانت مسز ويذرسمون وذراعاها ممتلئتان بحزم، تبدو جميلة وأنيقة كما كانت دائمًا، مندفعة باتجاه تاكسي بسرعة مائة وعشرة أميال في الساعة، وقفتُ هناك وورم يتشكل في حنجرتي، وقبل أن أنطق بكلمة، حدقتُ، وألقت بعينيها في اتجاهي، وتجمدت. ابتسمتُ. ابتسمتُ من أذن إلى الأخرى، وتبع ذلك واحدة من أغرب ردود الفعل المتأخرة التي رأيتها في حياتي. فتحت فكها بكل معنى الكلمة، انزلقت الحزم من يديها وتبعثرت على الرصيف، وبعد ثانية كانت تلف ذراعيها حولي وتطبع أحمر الشفاه على وجهي المخلوق للتو.

قالت وهي تعصرني بكل قوتها: «هذا أنت، أنت نذل، الآن وصلت إليك، أنت ابن عاهرة مراوغ، بحق الجحيم أين كنت يا بني؟»

قلت: «هنا وهناك، ألف وأدور، فوق وتحت، تحت وفوق، القصة المعتادة. تبدين رائعة يا مسز ويذرسمون. عظيمة حقًا. أم ينبغي أن أناديك بمسز كوكس؟ اسمك الآن، أليس كذلك؟ مسز أورفيل كوكس».

تراجعت لتلقي نظرة أفضل عليّ، وهي تبقيني على بعد ذراعين وابتسامة كبيرة تنتشر في وجهها. «ما زلت وذرสบون يا حبيبي؛ قطعت كل الطريق إلى مذبج الكنيسة، لكن حين كان عليّ أن أقول «موافقة» وقفت الكلمات في حلقي، تحولت الموافقة إلى رفض، وهنا بعد سبع سنوات ما زلت دون زوج وأفتخر بذلك».

«أمر جيد بالنسبة لك، عرفتُ دائما أن الارتباط بكوكس خطأ».

«لولا الهدية، ربما وفيت بالعهد، حين عاد بيلي بيجلو بتلك الرزمة من كيب كود، لم أستطع مقاومة إلقاء نظرة خاطفة، لا يفترض أن تفتح العروس هداياه قبل العرس، لكنها كانت هدية خاصة، وبمجرد أن فتحتها، عرفت أن الزواج لن يكتمل».

«ماذا كان في العلبة؟»

«اعتقدتُ أنك تعرف».

«لم أسأله قط».

«أعطاني كرة أرضية، كرة العالم».

«كرة أرضية؟ ما الخاص جدا في ذلك؟»

«لم تكن الهدية يا والت، كانت الكلمة التي أرسلها معها».

«ولم أر ذلك أيضًا».

«جملة واحدة، كانت كل شيء». «حيث تكونين أكون معك»، قرأت تلك الكلمات، وتمزقت، كان هناك رجل واحد لي، حبيبي، إذا لم أكن له، لن أتسكع مع بدائل ومقلدين حقراء».

وقفت هناك تتذكر تلك الكلمات وحشود وسط المدينة يمرون بنا. هزت الريح حافة قبعاتها الخضراء المصنوعة من اللباد، وبعد لحظة بدأت عيناها تمتلنان بالدموع. وقبل أن تتمكن من الدخول في الجد، انحنيتُ وجمعت أشياءها، وقلت: «لندخل يا مسز ويذرสบون. اشتري لك غداء، ثم نطلب زجاجة من النبيذ ونقضي وقتاً طيباً».

أعطيت عشرة دولارات لمسؤول القاعة عند الباب وأخبرته بأنني أريد موقعاً خاصاً، هز كتفيه وأوضح أن كل الطاولات الخاصة محجوزة، وهكذا سحبت عشرة أخرى من محفظتي. كان المبلغ كافياً ليحدث إلغاء غير متوقع، وبعد أقل من دقيقة قادنا أحد مروضيه خلال المطعم إلى الخلف، حيث أجلسنا في مختلي مريح مضاء بالشموع ومؤثث بمجموعة من الستائر القטיפيّة الحمراء لتحجبنا عن الزبائن الآخرين. كان يمكن أن أفعل أي شيء لأثير إعجاب مسز ويذرสบون في ذلك اليوم، ولا أظن أن أملها خاب. رأيت وميض البهجة في عينيها ونحن نستقر في مقعدينا، وحين أخرجت ولاعتي الذهبية التي عليها الحروف الأولى من اسمي لأشعل لها سيجارتها الشيسترفيلد، بدا فجأة أنها دهشت لأن والت الصغير لم يعد صغيراً.

قالت: «تفسير الأمور معنا بشكل جيد، أليس كذلك؟»

قلت: «ليست سيئة. مررتُ بظروف صعبة جداً منذ رأيتني آخر مرة».

تحدثنا في مواضيع شتى، لف كل منا على الآخر في الدقائق القليلة الأولى، لكن الأمر لم يستغرق وقتاً طويلاً لنشعر بالارتياح

مرة أخرى، وحين دخل النادل بالقائمة، كنا نتحدث عن الأيام الخوالي. وتبين أن مسز ويزرسبون تعرف عن شهوري الأخيرة مع الأستاذ أكثر مما أظن. قبل موته بأسبوع، بعث إليها برسالة طويلة من الطريق، وباح لها بكل شيء: نوبات الصداع، نهاية والت الولد العجيب، وخطة الذهاب إلى هوليوود لأصبح نجمًا سينمائيًا.

قلتُ: «لا أفهم. إذا كانت العلاقة بينك وبين الأستاذ منتهية ما معنى أن يكتب لك رسالة؟».

«لم تكن العلاقة بيننا منتهية، فقط لم نكن لنتزوج، هذا كل ما في الأمر».

«لم أفهم بعد».

«كان يموت يا والت، تعرف ذلك، لابد أنك كنت تعرف؛ اكتشف السرطان بعد فترة قليلة من اختطافك، ورطة، أليس كذلك؟ حديث عن الجحيم، حديث عن أربطتك القاسية. كنا نهول في ويتشيتا نحاول توفير النقود لنحررك، ويصيبه مرض مميت، هكذا بدأ الحديث عن الزواج في البداية، تحمستُ للزواج منه، كما ترى، لم أبال بالمدة التي يعيشها، أريد فقط أن أكون زوجته، لكنه لم يوافق، وقال: 'تتزوجيني، تتزوجين جثة. فكري في المستقبل يا ماريون'. ربما قال لي تلك الكلمات ألف مرة. 'فكري في المستقبل يا ماريون. كوكس ليس سيئًا جدًا. يعطينا النقود لنخلص والت، وتعيشين في رخاء بقية أيامك؛ إنها صفقة جيدة يا أخت، وستكونين حمقاء إذا لم تنتهزها'».

«يا ربي، كان يحبك حقًا، أليس كذلك؟ أقصد أنه كان يحبك بقوة حقًا».

«أحبُّنا كلينا يا والت، بعد ما حدث لأيسوب والأم سيوكس، كنت أنا وأنت كل عالمة».

لم تكن لدي نية لأحكي لها كيف مات، أرنت أن أجنبها التفاصيل العنيفة، ونجحت خلال تناول المشروبات أن أحجب التفاصيل عنها. لكنها ظلت تضغط عليّ لأحكي لها عن الجزء الأخير من الرحلة، أو أوضح ما حدث لنا بعد الوصول إلى كاليفورنيا. لماذا لم نذهب للعمل في السينما؟ المدة التي قضاها على قيد الحياة؟ لماذا أنظر إليها بتلك الطريقة؟ بدأتُ أحكي لها كيف استغرق في نومه بهدوء ذات ليلة، لكنها كانت تعرفني جيدًا بدرجة تجعلها لا تقبل ذلك؛ نظرت إليّ أربع ثوانٍ تقريبًا وحين فهمتُ أنني أخفي شيئًا، لم يعد ادعائي مجديًا؛ وهكذا حكيتُ لها. حكيتُ لها القصة البشعة كلها، وتدرجيا تسلل إليّ الهلع مرة أخرى. لم أترك شيئًا. من حق مسز ويزرسبون أن تعرف، وبمجرد أن بدأتُ، لم أتوقف. أتحدث وتبكي، وأشاهد مكياجها يتلخخ والمسحوق يتدفق على وجنتيها والكلمات تتساقط مني.

حين وصلتُ إلى النهاية، فتحتُ سترتي وسحبتُ المسدس من جراب ملفوف حول كتفي. أمسكته في الهواء لحظة أو اثنتين ثم وضعته على الطاولة بيننا، وقلت: «هذا هو، مسدس الأستاذ، لتعرفي شكله فقط».

قالت: «والت المسكين».

«تافه مسكين، لم يبق معي غيره».

حدقتُ مسز ويزرسبون في المسدس الصغير بمقبضه البلوط لعشر ثوانٍ أو اثنتي عشرة ثانية. ثم، بتردد شديد، مدت يدها

ووضعتها عليه. اعتقدت أنها ستلتقطه لكنها لم تفعل، أبقته في موضعه وأخذت تنظر إلى أصابعها وهي تقبض على المسدس، وكان لمس ما لمسه الأستاذ يجعلها تلمسه مرة أخرى.

وأخيرا قالت: «ما كان يمكن أن تفعل غير ما فعلت».

«خذلته بتصرفي، توسل لأسحب الزناد، ولم أستطع. آخر آميائه. أدركت له ظهري وجعلته يسحب الزناد بنفسه».

«تذكر الأوقات الطيبة، ذلك ما قاله لك».

«لا أستطيع، قبل أن أصل إلى الأوقات الطيبة، أتذكر ما كان عليه حين طلب أن أتذكرها، لا أستطيع الاقتراب من ذلك اليوم الأخير، ولا أستطيع أن أعود كثيرًا إلى الوراء لأتذكر أي شيء قبله».

«انس المسدس يا والت، تخلص من هذا الشيء اللعين وانس الماضي».

«لا أستطيع. إذا فعلت ذلك، يضيع الأستاذ إلى الأبد».

نهضت من مقعدها وتركت الطاولة، لم تقل إلى أين تذهب، ولم أسأل، صارت المحادثة ثقيلة جدا، بشعة جدا لكلينا، لم نكن لننطق بكلمة أخرى دون أن نصاب بالجنون. أعدت المسدس إلى الجراب ونظرت إلى ساعتني، الساعة الواحدة. لدي وقت كاف قبل الموعد مع ديكسي. ربما تعود مسر ويزرسبون، وربما لا تعود. بطريقة أو أخرى، سأبقى جالسًا هناك وأتناول غدائي، وبعد ذلك أثب إلى فندق رويل بارك وأقضي ساعة مع حبيبتي الجديدة، أنقلب على السرير وسأقضيها الحريريتان تلتفان حول خصري.

لكن مسر ويزرسيون لم تنصرف، ذهبت فقط إلى غرفة السيدات لتجفف دموعها وتستعيد رونقها، وحين عادت بعد عشر دقائق تقريباً، كانت قد وضعت طبقة جديدة من أحمر الشفاه وأعدت تزيين رموشها؛ كانت عيناها لا تزالان حمراوين حول الحواف، لكنها ابتسمت لي ابتسامة رقيقة حين جلست، ورأيتُ أنها مصممة على دفع المحادثة إلى موضوع مختلف.

قالت، وهي تأخذ قسمة من الجمبري: «وهكذا يا صديقي، ما حال التحليق هذه الأيام؟»

قلت: «محفوظ في النفثالين. تلاشت الرشاقة، وتدرجياً بعتُ الأجنحة بالفتات».

«ولا تشعر برغبة في أن تعطيه جولة أخرى؟»

«ليس للمعتوهين في كالامازو»^(١).

«كان الصداق سيئاً جداً، أليس كذلك؟»

«لا تعرفين معنى سيئ يا حلوتي، نتحدث هنا عن صدمات بتيار كهربائي شديد، حروق شديدة تهدد الحياة».

«غريب. أستمع أحياناً إلى محادثات- تعرف- وأنا أجلس في قطار أو أسير في الشارع، أسمع نطقاً. يتذكر الناسُ يا والنت، الولد العجيب أثار ضجة، ولا يزال أناس كثيرون يفكرون فيك».

«أجل، أعرف، إنني أسطورة محيرة؛ المشكلة أنه لا أحد يصدقها الآن، أعرف الأحاديث التي تقصدينها، اعتدتُ أيضاً أن

(١) كالامازو: مدينة جنوب غرب ميتشجان.

أسمعها، تنتهي دائما بجدل، يقول رجل إنها جدل، ويقول الآخر قد لا تكون جدلاً، وبسرعة ينزعجان بشدة ويتوقفان عن الكلام. لكن ذلك كان منذ فترة، ما عدت تسمعين ذلك كثيراً، يبدو وكأن الأمر كله لم يحدث».

«منذ عامين تقريباً نشر مقال عنك في مكان ما، نسيت اسم الصحيفة. والت الولد العجيب، الفتى الذي أثار مخيلة الملايين. ماذا حدث له، وأين هو الآن؟ هذا النوع من المقالات».

«سقط من على وجه الأرض، هذا ما حدث له، حملته الملائكة عائدة به من حيث أتى، ولن يراه أحد مرة أخرى».

«إلا أنا».

«إلا أنت، لكنه سر صغير بيننا، أليس كذلك؟»

«كلمة أم يا والت، ماذا تعتبرني على أية حال؟»

بعد ذلك خفت حدة الأمور قليلاً، دخل مساعد النادل ليأخذ أطباق المشهيات، وحين عاد النادل بالوجبة الرئيسية، كنا قد شربنا ونستعد لقنينة ثانية.

قلت: «أرى أنك لم تفقدي تذوقك للأمور».

«الخمور والنقود والجنس، تلك هي الحقائق الأبدية».

«بهذا الترتيب؟»

«بأي ترتيب تحبه، من دونها يكون العالم مكاناً بانساً وموحشاً».

«متحدثة عن الأمكنة البائسة، ما الجديد في ويتشيتا؟»
«ويتشيتا؟» وضعت كأسها وابتسمت لي ابتسامة مدهشة. «أين تقع؟»

«لا أعرف، أخبريني.»
«لا أتذكر، حزمْتُ حقائبي منذ خمس سنوات ولم أضع قدمًا في تلك البلدة منذ ذلك الوقت.»
«من اشترى المنزل؟»

«لم أبغِه. يعيش بيلي بيجلو هناك مع زوجته الثرثرة وبنتيه الصغيرتين. اعتقدت أن الإيجار سيدر عليّ مبلغًا إضافيًا، لكن الغبي المسكين فقد وظيفته في البنك بعد شهر من انتقالهم إليه، وتركته له مقابل دولار في العام.»

«لابد أن الأمور طيبة معك إذا كان باستطاعتك أن تتحملي ذلك.»

«انسحبت من السوق في الصيف السابق على الانهيار الاقتصادي، شيء ما له علاقة برسائل القدية، وتسليم النقد، ونقاط الهبوط - مشوش كله قليلا الآن، وتبين أنه كان أفضل ما حدث لي على الإطلاق، شقاؤك أنفد حياتي يا والت. بصرف النظر عما كنت أملكه، أمتلك عشرة أضعافه الآن.»

«لماذا تقيمين في ويتشيتا بكل هذه الثروة، صحيح؟ منذ متى انتقلت إلى شيكاغو؟»

«أنا هنا في عمل، سأعود إلى نيويورك صباح الغد».

«في الشارع الخامس^(١)، أراهن».

«رهانك صحيح، يا مستر رولي».

«عرفت ذلك في الثانية التي رأيتك فيها، تبدين ثرية جداً الآن. للثروة رائحة خاصة، إنها تبعث عطراً جميلاً، أليس كذلك؟»

كانت مسرورة ويذرسبون القديمة نفسها، لا تزال تحب الشراب، ولا تزال تحب الحديث عن المال، وبمجرد أن تفتح زجاجة وتقودها إلى موضوعها المفضل، يمكنها أن تتفق مع أي رأسمالي يدخل السيجار مثل دادي ورباكس^(٢). قضيت بقية تناول الوجبة الرئيسية وهي تحدثني عن الصفقات والاستثمارات، وحين رفعت الأطباق مرة أخرى وعاد النادل بقائمة الحلوى، طقطق شيء ما، ورأيت تالِق ذهناً، كانت الثانية إلا ربعاً في ساعتني. مهما يكن أنوي الخروج خلال نصف ساعة.

قالت: «إذا أحببت، أكون سعيدة بأن أوفر لك مكاناً».

«مكان؟ أي مكان؟»

«تكساس. حصلت على حفارات متطورة، وأحتاج إلى شخص يشرف على الحفر».

«لا أعرف شيئاً عن البترول».

(١) شارع رئيسي في مانهاتن، يفصل الجانب الشرقي عن الغربي.

(٢) شخصية خيالية في القصة المصورة «أني اليتيمة الصغيرة». ظهر أول مرة في ١٩٢٤.

«أنت ذكي، ستفهم الأمر بسرعة، انظر إلى التقدم الذي أحرزته بالفعل، ملابس رائعة، مطاعم فاخرة، نقود في جيبك. قطعت طريقاً طويلاً، يا رفيق، ولا تظن أنني لم ألاحظ تقدمك في النحو، لم تعد الشخص الذي يكرر كلمة 'ليس' ^(١) طوال الوقت الذي قضيناه معاً.»

«أجل، عملت بجدية على ذلك، لم أعد أرغب في أن أبدو جاهلاً، وهكذا قرأت بعض الكتب وجددت معجمي، تصورت أنه آن أن أخرج من البالوعة».

«تلك هي قضيتي، تستطيع أن تفعل ما تريد، مادمت عازمة على أمر، لا أحد يعرف النجاح الذي يمكن أن تحققه، فكر يا والت، تعال معي، وبعد عامين أو ثلاثة سنكون شريكين».

كانت موافقة صعبة، لكن بمجرد أن استوعبت مديحها سحبت سجانري ماركة الجمل وهزرت رأسي، وقلت: «أحب عملي. لماذا أذهب إلى تكساس وأنا أحصل على كل ما أريد في شيكاغو».

«لكنه عمل خطأ، هذا هو السبب، ليس هناك مستقبل في لعبة العسكر واللصوص، إذا واصلت هذا العمل تموت أو تسجن قبل أن تبلغ الخامسة والعشرين».

«أية لعبة عسكر ولصوص؟ إنني نظيف مثل أظافر الجراح».

«أكيد، والبابا ثعبان ساحر هندي بقناع».

(١) ليس ain't: استخدام عامي للنفي، وكان يكثر من استخدام هذه الكلمة في الأجزاء الأولى من الرواية.

جاءت الحلوى بعد ذلك، وقضينا فطائرنا في صمت، كانت طريقة سيئة لإنهاء الوجبة، لكننا كنا عبيدين بشكل لا يجعلنا نتراجع، في النهاية، تحدثنا قليلاً عن الطقس، وأدلينا بملاحظات غير مهمة عن الانتخابات القادمة. انتهى الحماس وما كان ليعود. لم تكثف مسز ويذرسيون بالغضب مني لرفض عرضها، جمعتنا الصدفة مرة أخرى، ويمكن لأخرق فقط أن يرفض نداء القدر بمثل هذا التهور، لم تكن مخطئة في أن تشعر بالاشمئزاز مني، لكن كان لي مسار أتبعه، وكنت مغرورًا بدرجة تجعلني لا أفهم أن مساري مسارها نفسه، لولا الرغبة الشديدة في أن أفر وأغرس عضوي في ديكسي سينكلير، لاهتممت بالبحث عن الروح في ذلك اليوم. هكذا تجري الأمور. بمجرد أن تكون لشهوتك اليد العليا تفقد القدرة على التفكير.

لم نتناول القهوة، وحين أتى النادل بالشيك إلى الطاولة في الثانية إلا عشر دقائق، اختطفته من بين أصابعه قبل أن تمسك به مسز ويذرسيون.

قلت: "دعوتي".

"حسنًا، مستر مهم. تباه إذا كان ذلك يسعدك، لكن إذا عقلت في أية لحظة، لا تنس مكاني. ربما تعود إلى رشدك قبل فوات الأوان"، وأثناء ذلك مدت يدها في كيسها، وأخرجت كارت عملها، ووضعته برقة في راحتي، وأضافت: "إذا كنت مفلسا حين تتذكرني، اطلب فقط من مشغل التليفون أن يحملني تكلفة المكالمات".

لكنني لم أتصل قط، وضعت الكارت في جيبتي، بنية تامة للحفاظ عليه، لكن حين بحثت عنه قبل الذهاب إلى السرير في تلك الليلة لم أعثر عليه في أي مكان، ونظرا لما تعرض إليه البنطلون بعد الغداء مباشرة من شد وجذب، لم يكن من الصعب تخمين ما حدث، وقع الكارت، وإذا لم تكن خادمة الغرفة وضعتة في سلة القمامة، فهو ملقى على الأرضية في الجناح ٤٠٩ في فندق رويل بارك.

كنت قوة لا يوقفها شيء في تلك الأيام، أتغلب على كل ما يقابلني، وكنت أستقل القطار السريع بذاكرة ذهاب فقط إلى مدينة القطط السمان، بعد أقل من سنة من غذائي مع مسز ويدرسيون، حققت نقلتي التالية الكبيرة حين ذهبت إلى أرينجتون في عصر أحد الأيام شديدة الحرارة في أغسطس ووضعت ألف دولار في مخاطرة شديدة لأفوز بالسباق الثالث، وإذا أضفت أن الحصان كان يلقب بـ“الولد العجيب”، وإذا أضفت أيضًا أنني كنت لا أزال أسيرًا لخرافاتي القديمة، فمن غير المعقول أن يستوعب القارئ السبب الذي يجعلني أراهن على مقامرة لا أمل فيها، قمت عادة بأشياء مجنونة في تلك الأيام، وحين وصل الرهان على المهر في منتصف المسافة إلى أربعين إلى واحد، عرفتُ أن في السماء ربا وأنه يشجع جنوني.

مدني الفوز بالضربة التي أحتاجها لتحقيق رغبتَي الكبرى، واندفعت فجأة لأحقق حلمي. طلبت استشارة خاصة مع بينجو في شقته المستقلة التي تطل على بحيرة ميتشجان، وبمجرد أن طرحت عليه الخطة وتغلب على صدمته الأولى، أعطاني الضوء الأخضر على مضض؛ ليس لأنه كان يعتقد أن الاقتراح تافه، لكنني أظن أن أمله خاب في لتدني طموحي، كان يهينني لمكان في دائرة النفوذ، وها أنا أخبره بأنني أريد أن أشق طريقي الخاص وأفتح ملهى ليليا يمكن أن يشغل طاقاتي لأستبعد كل شيء آخر، رأيت أنه ربما اعتبر الأمر خدعة، وكان عليّ أن أحرص على عدم الوقوع في ذلك الشرك بحركة خيالية، لحسن الحظ، كان لساني موفقا في ذلك المساء، وبتوضيح المزاي الكثيرة التي تعود عليه فيما يتعلق بالأرباح والمتعة، أفنعه في النهاية.

قلت: «يمكن أن تغطي الأربعون ألفا التي معي الصفقة، يمكن لرجل آخر في موقعي أن يرفع قبعته ويقول إلى اللقاء، لكنني لا أتصرف بهذه الطريقة. أنت صديقي يا بينجو، وأريد أن يكون لك نصيب في الأمر، لن تساهم بنقود، لن تقوم بعمل، ولن تتحمل مسئوليات، لكن من كل دولار أكسبه أعطيك خمسة وعشرين سنتا، الحق حق، صحيح؟ أعطيتني فرصتي، والآن أنا في وضع أرد فيه الجميل. يجب أن يكون للإخلاص مكان في هذا العالم، ولن أنسى من أين جاء حظي، ولن يكون ملهى رخيصا للعامة، أتحدث عن ساحل الذهب^(١) بكل فخامته؛ مطعم راق به طاهي ضفادع، وعروض رائعة، وفتيات جميلات يظهرن فجأة في ملابس ملتصقة في أجسادهن. تستثار بمجرد الدخول هناك يا بينجو، يخصص لك أفضل مقعد في المكان، وفي الليالي التي لا تأتي فيها تبقى طاولتك خاوية. بصرف النظر عن عدد المنتظرين على الباب».

ساومني حتى خمسين في المائة، لكنني كنت أتوقع بعض الأخذ والرد ولم أجعل من الأمر قضية. كان المهم أن أحظى بمباركته، وحظيت بها بإدهاشه، مفنّداً دفاعاته باستمرار بموقعي الودى المجامل، وفي النهاية، فقط ليظهر رقيه، عرض أن يساهم بعشرة آلاف إضافية ليضمن إنشاء المكان بشكل صحيح، لم أبال. لم أكن أريد إلا ملهى الليالي، وبخضم الخمسين في المائة الخاصة ببينجو من العائد، ظللتُ أتقدم، كانت هناك فوائد عديدة في أن يكون شريكا لي، وما كان لي أن أخدع نفسي بالاعتقاد بأنني يمكن أن أسير في طريقي دونه. كان النصف الذي أدفعه له ضمانا بحمايتي من أومالي (وقد صار بالطبع الشريك الثالث) ومساعدتي في ألا يقتحم رجال

(١) ساحل الذهب: منطقة سكنية راقية في شيكاغو على طول بحيرة ميتشيجان.

الشرطة المكان. نظرا لارتباطاته بمهربي الخمر في شيكاغو، وشركات المغاسل التجارية، والوكالات المحلية للممثلين، لم تبد خسارة خمسين في المائة حلا جائزا على أية حال.

سميت المكان مطعم مستر فيرتيجو، كان في قلب المدينة بالضبط في القسم الغربي وشمال شارع لاسال، وكانت يافطته النيون البراقة تتحول من القرنفلي إلى الأزرق إلى القرنفلي كراقصة تتنوب مع راجاة الكوكيتيل في سماء الليل. كان إيقاع رومبا هذه الأضواء يسرع ضربات قلبك ويدفئ دمك، وبمجرد أن تدرك هذا الاضطراب الضئيل في نبضك، لا ترغب في أن تكون إلا حيث تكون الموسيقى. في الداخل، كان الديكور مزيجًا متنوعًا، نوعًا أنيقًا من رفاة المدن الكبيرة ممتزجا بإيماءات ساحرة وفتنة نُزِلَ بسيط. عملت بجدية لخلق هذا الجو، وخططت كل صغيرة وكبيرة بأدق التفاصيل: من أحمر الشفاه على شفتي فتاة القبعات إلى لون أطباق العشاء، من تصميم قوائم الطعام إلى الجوارب في قدمي عامل البار. كانت هناك مساحة لخمسين طاولة، ومساحة كبيرة للرقص، وخشبة مسرح مرتفعة، وبار طويل من الماهوجني بطول جدار؛ أنفقت خمسين ألفا كاملة لأنفذه كما أحب، وحين فُتِح المكان في النهاية في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧، كان مكتملاً تمامًا. افتتحته بواحدة من الحفلات العظيمة بليلة رأس السنة في تاريخ شيكاغو، وبحلول صباح اليوم التالي كان مستر فيرتيجو على الخريطة، وعلى مدى السنوات الثلاث والنصف التالية كنت هناك كل ليلة، أتجول بين الزبائن بسترتي البيضاء وحذائي الجلدي الفاخر، ناشراً البهجة بابتسامات الزهو وكلمات

سريعة، كانت بقعة هائلة بالنسبة لي، وأحببت كل دقيقة قضيتها في ذلك المركز الصاخب، لو لم أرتبك وأدمر حياتي، ربما كنت لا أزال هناك اليوم. لم أقض فيه إلا ثلاث سنوات ونصف. كنت مسؤولاً مائة في المائة عن سقوطي، لكن معرفة ذلك لا يخفف الشعور بالألم حين أتذكر ذلك؛ في القمة دائماً حتى تعثرت، وانتهى الأمر نهائياً بالنسبة لي، مجرد بجعة مدهشة غطست في طي النسيان.

لكن دون أسف، غامرت بمالي، ولن أنفي ذلك. تحول الملهى إلى البؤرة الساخنة الأولى في شيكاغو، وبطريقتي البسيطة كنت مشهوراً مثل أي شخص عظيم الشأن يأتي إلى هناك. عاشرت قضاة وأعضاء مجلس المدينة ولا عبي بيسبول، وحدث ولا حرج عن فتيات الاستعراض وفتيات الكورس للاختبار بعروض حية أقدمها في الحادية عشرة كل ليلة، ولم أفوت فرصة للانهماك في رياضات غرفة النوم. كنت أنا وديكسي لا نزال رفيقين حين فتح مطعم مستر فيرتيجو، لكن استمراري في المجون جعل صبرها ينفد، وفي خلال ستة أشهر انتقلت إلى مكان آخر. ثم جاءت سالي، ثم جويل، ثم أخريات كثير: سمرافات فارعات الطول، حمرافات الشعر لا يتوقفن عن التدخين، وشقراوات بأعجاز ضخمة. في وقت ما عاشرت فتاتين في وقت واحد، ممثلتين سابقتين تدعيان "كورا" و"بيلي"، أحببت الاثنين بالقدر نفسه، وكانت كل منهما تحب الأخرى بقدر ما يحباني، وبالاندفاع معاً نجحنا في إنتاج بتويغات شيقة على الحان قديمة. من وقت لآخر، قادتني عاداتي إلى مشاكل طبية (الإصابة بالسيلان، الإصابة بقمل العانة) لكن لم يبعدني شيء عن مهامتي وقتاً طويلاً جداً. ربما كانت طريقة فاسدة للحياة، لكنني سعدت بالطريقة التي كنت أعامل بها، وكان طموحي الوحيد أن تبقى الأمور على حالها. ثم، في سبتمبر ١٩٣٩، بعد ثلاثة أيام فقط

من غزو الجيش الألماني لبلندا، جاء ديزي دين^(١) إلى مطعم مستر فيرتيجو وبدأ كل شيء ينهار.

عليّ أن أعود لأفسر ذلك، أعود تمامًا إلى طفولتي السيئة في سانت لويس، حيث وقعت في غرام البيسبول، وقبل أن أشب عن الطوق كنت من المتحمسين لفريق كاردينال، متعصبًا جدًا له. وقد ذكرت مدى نشوتي حين فازوا ببطولة سنة ٢٦، لكن ذلك لم يكن إلا مثالاً على إخلاصي، وبعد أن علمني أيسوب القراءة والكتابة، استطعت متابعة لاعبيه في الصحف كل صباح. من أبريل إلى أكتوبر لم يفتني ملخص مباراة قط، ويمكنني أن أسرد متوسط ضربات كل لاعب في الفرقة، من البارزين مثل فرانكي فريش وبيبر مارتين إلى أقل اللاعبين شأنًا على مقاعد البدلاء. واستمر هذا في السنوات الطيبة التي قضيتها مع الأستاذ يهودي، واستمر أيضًا في السنوات السيئة بعد ذلك، عشت مثل ظل، أجوس البلاد بحثًا عن الخال سليم، لكن بصرف النظر عن سواد الأمور بالنسبة لي، بقيت مع فريقتي، فازوا ببطولة سنة ٣٠ وسنة ٣١، وقدم هذان الانتصاران الكثير لرفع روعي المعنوية، واستمراري في احتمال كل المشاكل والمحن التي ألمت بي في ذلك الوقت، مادام كان فريق الكاردينال يفوز، يبقى شيء صحيح في علاقتي بالعالم، ولم يكن من الممكن أن أقع في حالة يأس تام.

هنا يدخل ديزي دين القصة؛ هبط الفريق إلى المركز السابع سنة ٣٢، لكن ذلك لم يكن مهما تقريبًا. كان «دين» المبتدئ الأبرز والأكثر لفتًا للأنظار الصاعد بشكل يتفوق على كل الكبار، حول النادي الذي كان في وضع سيئ إلى سيرك رائع. مزهوا ومرحًا كعادته كان، دعم

(١) ديزي دين Dizzy Dean (١٩١١-١٩٧٤): لاعب بيسبول أمريكي.

ذلك الريفي الساذج مفاخره ببعض أجمل الضربات في ذلك الجانب من السماء، كانت ذراعه المرنة تطلق قاذفات؛ وكان تحكمه غريبًا؛ وكانت حركاته حركات آلة مذهشة من ذراعين وساقين، تتميز بالقوة، شيئًا جميلًا يستحق الرؤية. وحين عدت إلى شيكاغو واستقر بي المقام في حماية بينجو، كان ديزي نجمًا مرموقًا، قوة عظيمة في المشهد الأمريكي؛ أحبه الناس لاندفاعه وموهبته، وتحطيمه المجنون للغة الإنجليزية، ومشاجراته، وتهريجه الصبياني والإثارة اللعينة، وأحبيته أيضًا، أحبيته بقدر ما أحبه أي شخص في العالم، ومع زيادة الراحة في الحياة بالنسبة لي في ذلك الوقت، كنت في وضع يسمح لي برؤية فريق الكاردينال في الملعب كلما جاءوا إلى المدينة. في سنة ٣٣، السنة التي حطم فيها دين الرقم المسجل بإطلاق ٧٠ ضربة في مباراة، عاد الفريق مرة أخرى فريقًا من الطراز الأول. ضم الفريق إلى القائمة لاعبين جددًا، ومع وجود سفاحين مثل «جوى ميدويك» و«ليو دوروشير» و«ريب كولنز» حوله ليعجلوا السرعة، بدأت عصابة مصنع الغاز تتبلور. وتبين أن سنة ٣٤ سنة مجدهم، ولا أظن أنني استمتعت بموسم بيسبول قدر استمتاعي بذلك الموسم. كسب بول الشقيق الأصغر لديزي تسع عشرة مباراة، وفاز ديزي بثلاثين، وكافح الفريق في عشر مباريات ليتجاوز فريق الجاينت ويكسب البطولة. كانت السنة الأولى التي تذاخ فيها بطولة العالم في الراديو، واستمتعت إلى كل المباريات السبع التي أقيمت في شيكاغو. هزم ديزي فريق التيجر في المباراة الأولى، وحين وضعه «فريش» على مقاعد البدلاء، في المباراة الرابعة، تلقى الأخرق فجأة رمية خطيرة في الرأس وسقط فاقد الوعي، وأعلنت العناوين الرئيسية في اليوم التالي: لم تظهر أشعة إكس على رأس دين وجود أي خلل. عاد إلى الملعب عصر اليوم التالي لكنه عاد فاقد التركيز، وبعد يومين فقط، منع ديترويت

من تسجيل أية أهداف ليفوز فريقه ١١ - صفر في المباراة النهائية، ساخرًا من ضاربي التيجر كلما ترنحوا وفشلوا في مواجهة كراته السريعة. ابتكرت الصحف أسماء متنوعة لذلك الفريق: «العصابة الراكضة»، «مشاغبو النهر» من الميسيسيبي، «الكرادلة الهادرون». كان أولئك العاملون في شركة الغاز يحبون الإثارة، وحين خرجت نتيجة المباراة النهائية عن السيطرة في الجولات الأخيرة، رد مشجعو التيجر برشق ميدويك لعشر دقائق بوابل من الفواكه والخضروات في يسار الملعب. كانت الطريقة الوحيدة لإنهاء البطولة أن يدخل الحكم لاندیس، عضو لجنة البيسبول، ويدفع ميدويك خارج الملعب في الأشواط الثلاثة الأخيرة.

بعد ستة أشهر، كنت أجلس في مقصورة أنا وبينجو والأولاد حين افتتح «دين» الموسم ضد فريق الكبز في شيكاغو. في الجولة الأولى، مع طرد اثنين ورجل على القاعدة، أرسل فريدي ليندستروم الرامي المنظف لنادي كبز ضربة حادة شريرة إلى المنتصف أصابت ديزي في الساق وأسقطته على الأرض؛ اختل نبض قلبي حين رأيت حاملي النقالة يجرون ويحملونه خارج الملعب، لكن لم يصب بعاهة دائمة، وبعد خمسة أيام عاد إلى الحلبة في بيتسبرج، حيث قذف خمس ضربات ساحقة ليحقق أول فوز له في الموسم، واصل ليحقق سنة أخرى ممتازة، لكن كبز كان فريق القدر سنة ٣٥، وبكسر سلسلة من واحد وعشرين فوزًا متتاليًا في نهاية الموسم، اندفع خلف فريق الكاردينال وانتزع الراهية، لا أستطيع أن أقول: إنني اهتمت كثيرًا جدًا. جنت المدينة من أجل الكبز، وما كان طيبًا لشيكاغو كان طيبًا للشغل، وما كان طيبًا للشغل كان طيبًا لي. بدأت المقامرة في تلك البطولة، وبمجرد أن هدا الأمر، ناورت بذلك الوضع القوى الذي كافاني به بينجو بعريني الخاص.

من ناحية أخرى، في تلك السنة بدأ نجاح ديزي وإخفاقه يؤثر عليّ بطريقة شخصية جداً. ما كنت لأسمي ذلك هوساً في ذلك الوقت، لكن بعد مشاهدته يسقط في الجولة الأولى من الافتتاح في «ريجلي»- بسرعة بعد اصطدام جمجمته في بطولة ٣٤- بدأت أشعر بغيمة تتجمع حوله. لم أهتم حين أصيب ذراع أخيه سنة ٣٦، لكن كان الأسوأ ما حدث مباراة ضد فريق الجاينت في ذلك الصيف حين رمى برجس وايتهد كرة حادة أصابته فوق أذنه اليمنى مباشرة، كانت الكرة قوية جداً حتى إنها ارتدت في يسار الملعب على طرف راية. سقط «دين» مرة أخرى، ورغم أنه استعاد وعيه في غرفة الملابس بعد سبع دقائق أو ثمان، كان التشخيص المبدي كسراً في الجمجمة. وتبين أنه ارتجاج سيئ في المخ، جعله مشوش الذهن لمدة أسبوعين، وكان قيد أنملة الطريق الآخر، وكان يمكن للرجل الكبير أن يقطف زهور الربيع بدلاً من أن يواصل الفوز بأربع وعشرين مباراة في الموسم.

في الربيع التالي، استمر رجلي يلعب ويتشاجر وينهض، ولم يكن ذلك يحدث إلا لأنه لا يعرف الأفضل. أثار مشاجرات برميائه القوية، وطلب منه التوقف مباراتين متتاليتين وقرر أن ينظم إضراباً في وسط الملعب، وحين وقف في وليمة ووصف الرئيس الجديد للاتحاد بالمحتال، أدت المشاجرات الناجمة عن ذلك إلى ما يشبه مسرّحاً رائعاً لرعاة البقر، وخاصة بعد أن رفض ديزي أن يضع توقيعه على تراجع رسمي عن الاتهام، وقال «لن أوقع على أي شيء»، ودون هذا التوقيع لم يكن أمام فورد فريك إلا أن يتراجع ويلغي إيقاف «دين». كنت فخوراً به لتصرفه مثل أحمق بشكل مبالغ فيه، لكن الحقيقة كان الإيقاف يمكن أن يمنعه من مباراة النجوم، وإذا لم يشارك في ذلك الاستعراض التافه، ربما استطاع أن يؤجل ساعة الهلاك قليلاً.

لعبوا في واشنطن في تلك السنة، وبدأ ديزي مع الاتحاد القومي. انطلق في أول جولتين بطريقة بارعة، وبعد انتهاء جولتين والدخول في الثالثة، تخطى عن ضربة ساحقة لـ«دي ماجيو» وعن رمية طويلة بهدف محقق لـ«جهرج». وكان التالي إيرل أفريل، وحين رد مدافع كليفلاند الرمية الأولى لدين إلى وسط الملعب، نزلت الستارة فجأة على أعظم أيمن في القرن، لم يبد الأمر مقلقًا جدًا في ذلك الوقت. اصطدمت الكرة في قدمه اليسرى، وارتدت إلى «بيلي هيرمان» في ثانية، ورماها هيرمان إلى القاعدة الأولى للخروج، حين خرج ديزي من الملعب وهو يعرج، لم ينشغل أحد بالأمر، حتى ديزي نفسه.

كان ذلك الإصبع الشهير المكسور في القدم. إذا لم يندفع للعودة للعب قبل أن يجهز، ربما كان من الممكن أن يلتئم في الوقت المناسب، لكن فريق الكاردينال كان يبتعد عن سباق البطولة ويحتاج إليه في وسط الملعب، وأكد لهم الأحق الساذج أنه على ما يرام، كان يعرج على عكاز، وكان إصبعه وازما بدرجة تجعله لا يستطيع أن ينتعل حذاءه، لكنه ارتدى ملابسه وخرج ورمى الكرة. مثل كل العمالقة بين الرجال، اعتقد ديزي دين أنه خالد، وحتى رغم أن الإصبع كان يؤلمه بدرجة لا تجعله يركز على قدمه اليسرى، فقد احتمله طوال الجولات التسع كلها؛ جعله الألم يعدل رميته الطبيعية، وكانت النتيجة أنه ضغط على ذراعه بشكل كبير جدًا، أصيب بقرحة بعد تلك المباراة الأولى، ثم، ليتفقم الضرر، واصل الرمي شهرًا آخر. بعد ست مرات أو سبع، ساءت حالته ولم ينتزع إلا ثلاث رميات فقط في إحدى بداياته. كان ديزي يتحرك ببطء، ولم يكن أمامه إلا أن يتوقف ويبتعد عن اللعب بقية الموسم.

ومع ذلك لم يعتقد مشجع في البلاد أنه انتهى، كانت الحكمة السائدة أن شتاء من الكسل والراحة يمكن أن يصلح ما حل به وبحلول أبريل يمكن أن يعود مرة أخرى إلى طبيعته القديمة التي لا تُهزَم. لكنه كافح في تدريب الربيع، ثم، في واحدة من المفاجآت الكبرى في تاريخ الرياضة، باعه سانت لويس إلى نادي كبز مقابل ١٨٥٠٠٠ دولار نقداً وشخصين أو ثلاثة. كنت أعرف أنه لم يكن هناك حب مفقود بين «دين» و«برنش ريكي»، المدير العام لفريق الكاردينال، لكنني كنت أعرف أيضاً أن ريكي لم يكن من الممكن أن يبيعه إذا اعتقد أنه بقي بعض الخل في ذراعه. كنت في منتهى السعادة بحضور ديزي إلى شيكاغو، لكن في الوقت نفسه كنت أعرف أيضاً أن حضوره يعنى أنه في نهاية الطريق، تحققت أسوأ مخاوفي، وفي سن النضج، في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين، انتهى أفضل رامي كرة في العالم.

ويبقى أنه قدم لحظات رائعة في تلك السنة مع فريق الكبز، لم يكن عمر مطعم مستر فيرتيجو إلا أربعة شهور حين بدأ الموسم، لكنني نجحت في أن أتسلل إلى الملعب ثلاث مرات أو أربعاً لأشاهد ديزميستر ينتزع بضعة جولات إضافية من ذراعه المصابة. كانت هناك مباراة مبكرة ضد الكاردينال أتذكرها جيداً، مباراة تأريية كلاسيكية تؤلب الأعضاء القدامى في الفريق ضد بعضهم البعض، وفاز بتلك المكاشفة في المكر والدهاء، مشتتاً انتباه الرماة بتشكيلة من أشخاص يؤدون مهام متنوعة وضربات خادعة. ثم، في وقت متأخر من الموسم، وفريق الكاردينال يتقدم بجدية للفوز ببطولة أخرى، أذهل جابي هرتنيت، مدير شيكاغو، الجميع بإعطاء ديزي

موافقة على بدء مخاطرة رهيبة ضد فريق البيرت، كانت المباراة مثيرة حقاً، المتعة والياس في كل رمية، وأضاف «دين»، ولم يكن لديه ما يقدمه، فوزا لموطنه الجديد. وكاد يكرر المعجزة في المباراة الثانية من بطولة العالم لكن فريق اليانك أرفقوه أخيراً في الجولة الثامنة، وحين استمر الاعتداء عليه في الجولة التاسعة وأخرجه هرتنيت واستبدل به رام، ترك ديزي وسط الملعب بأكثر تصفيق دويًا سمعته في حياتي، كانت الرابطة كلها واقفة تصفق وتهتف وتصفر للاعب الكبير، واستمر الأمر وقتاً طويلاً جداً وكان مدويًا جداً، وكان بعضنا يذرف الدموع حين انتهى الأمر.

كان ينبغي أن تكون هذه نهايته، يأخذ المحارب الشجاع قوسه الأخير ويغرب، كان يمكن أن أقبل ذلك وأعطيه عذره، لكن «دين» كان أغلظ من أن يتأثر بذلك، ولم يلق صخب الوداع إلا أدنا صماء. هذا ما أغضبني: لم يكن ابن العاهرة يعرف متى يتوقف. واضعا الكرامة جانباً، عاد ولعب مرة أخرى لنادي كبز، وإذا كان موسم ٣٨ مثيراً للشفقة مع بعض البقع المضيئة التي تناثرت فيه. كان موسم ٣٩ عتمة خالصة صرفة. كانت ذراعه تؤلمه ويرمي الكرة بالكاد. مباراة بعد أخرى يدفى مقاعد البدلاء، واللحظات القصيرة التي يقضيها في الملعب لحظات ارتباك؛ كان قذراً، أقدر من كلب متشرد، ليس حتى صورة شاحبة لما كان عليه ذات يوم؛ عانيت من أجله، تأسيت له، لكن في الوقت ذاته اعتقدت أنه أغبى جلف على وجه الأرض.

كانت الأمور رائعة جداً حين دخل مطعم مستر فيرتيجو في سبتمبر. كان الموسم يوشك على الانتهاء، ومع ابتعاد نادي كبز عن سباق البطولة، لم يحدث مزيد من الجلبة حين ظهر «دين» في ليلة

جمعة مزدحمة مع زوجته ومجموعة من زوجين أو ثلاثة، ومن المؤكد أنها لم تكن لحظة لحديث من القلب إلى القلب عن مستقبله، لكنني قررت أن أذهب إلى طاولته وأرحب به في الملهى. قلت ماذا يدي له: «يسرني حضورك يا ديزى. أنا نفسي من سانت لويس، وأتابعك منذ يوم ظهورك. كنت مشجعك الأول دائماً».

قال، قابضاً على يدي الصغيرة بقبضته الهائلة وصافحني بود: «السرور من نصيبي أنا يا رفيق». بدأ يطلق واحدة من ابتساماته السريعة القاطعة، حين بدا عليه الارتباك، عبس لثانية، باحثاً في ذاكرته عن شيء ضائع، وحين لم يتوصل إليه، نظر بعمق في عيني وكأنه يعتقد أنه يستطيع أن يعثر عليه هناك. وقال: «أعرفك، اليس كذلك؟ أقصد، ليست المرة الأولى التي نلتقي فيها، فقط لا أستطيع أن أعرف أين، في وقت ما في مكان ما، ألسنت على حق؟»

«لا أظن ذلك يا ديزى. ربما رأيتني ذات يوم في المدرجات، لكننا لم نتحدث من قبل قط».

«خرا. أقسم بأنك لست غريباً عليّ؛ إنه ألين شعور في العالم، أوه، حسناً»، هز كتفيه، وابتسم لي واحدة من ابتساماته الكبيرة الخرقاء، «لا يهم، على ما أظن، من المؤكد أنك أقمت ملهى رائعاً هنا، يا صاحبي».

«شكراً يا بطل، الطلب الأول على حسابي، أتمنى أن تقضى وقتاً طيباً مع أصدقائك هنا».

«نحن هنا لذلك يا رفيق».

«استمتع بالعرض، إذا احتجت أي شيء، نادني فقط».

تصرفت بهدوء بقدر ما أستطيع، وابتعدت وأنا أشعر بأنني عالجت الموقف بشكل رائع تمامًا. لم أتملقه، وفي الوقت ذاته لم أتهمه على تدهور مستواه. كنت مستر فيرتيجو، ابن المدينة اليقظ صاحب اللسان السلس والسلوك الرائع، ولم أكن على وشك أن أترك «دين» يعرف كم كانت محنته تشغلني. كسرت رؤيته على الطبيعة السحر إلى حد ما، وربما كان الطبيعي أن أعتبره مثل أي رجل آخر رائع خذله حظه. لماذا ينبغي أن أهتم به؟ كان «ويزي ديزي» في طريقه إلى النهاية، وبعد وقت قصير جدًا يمكن أن أكف عن التفكير فيه، لكن الأمور لم تسر على هذا النحو، كان «دين» نفسه هو الذي أبقاها حية، وبينما لا يمكن أن أدعي أننا أصبحنا صديقين حميمين، إلا أنه بقى قريبًا جدًا بحيث يستحيل أن أنساه، لو انحرف فقط عن الطريق التي كان يفترض أن يسير عليها، ما بدا شيء من هذا بالسوء الذي بدا عليه.

لم أره ثانية حتى بداية الموسم التالي. كنا في أبريل ١٩٤٠، والحرب في أوروبا مشتعلة تمامًا، وعاد ديزي - عاد لتلقي طعنة أخرى عند إحياء مساره المتداعي. حين التقطت الصحيفة وقرأت أنه وقع عقدًا آخر مع نادي كبز، أصبت بغصة تقريبًا وأنا أتناول سندوتش السجق. ممن كان يسخر؟ قال: «ذراع عجوز لم تعد سوطا كما كانت»، لكن يا يسوع، أحب اللعبة كثيرًا جدًا بحيث لا يحاول أن يلعبها مرة أخرى. قلت لنفسني: حسنا، أيها الغبي، انظر لو اهتممت. إذا أردت أن تهين نفسك أمام العالم، فهذا شأنك، لكن لا تعتمد عليّ أن أسف عليك.

وعلى غير توقع، عاد إلى الملهى ذات ليلة وحياتي مثل أخ غاب لفترة طويلة. لم يكن «دين» يشرب، ومن ثم لا يمكن أن يكون الشراب هو الذي جعله يتصرف على ذلك النحو، لكن وجهه أضاء

حين رأيته، وخلال الدقائق الخمس التالية أعطاني جرعة شاملة من المودة غير المتوقعة. ربما لا يزال متمسكا بفكرة أننا كنا معرفة قديمة، أو ربما يعتقد أنني شخص مهم، لا أعرف، لكن النتيجة أنه كان في أسعد حالاته برويتي. كيف أقاوم رجلا مثل هذا؟ فعلت كل ما أستطيع لأجمد قلبي عليه، لكنه جاء بهذا الود بحيث لم يكن أمامي إلا أن أستسلم للاهتمام به. لا يزال «دين» العظيم، رغم كل شيء، صديق روحي الغارق في الظلام وأناي البديلة، وبمجرد أن بدأ يتحدث معي بهذا الشكل، عدت فوراً إلى معاناتي القديم.

لا يمكن أن أقول أنه صار يأتي بانتظام إلى الملهى، لكنه كان يأتي إليه بما يكفي على مدى الأسابيع الستة التالية لأن نتحدث حديثاً يتجاوز المعرفة العابرة. جاء وحده بضع مرات ليتناول عشاء مبكراً (مغرقاً كل طبق بمقدار كبير من الصلصة وشرائح اللحم)، وكنت أجلس معه أثرثر وهو يتناول طعامه. تجنبنا الحديث عن البيسبول وجاء معظم حديثنا عن الخيول، وحيث إنني قدمت له فكرتين ممتازتين لاستثمار أمواله، بدأ يسمع نصائحي. لا بد أنني تحدثت وقلت له ما اعتقده بشأن استعادته لوضعه السابق، لكن حتى بعد أن ارتبك في بداياته الأولى في الموسم، جالبا الخزي لنفسه كلما دخل الملعب، لم أنطق بكلمة. كنت مغرماً جداً به، ومع محاولة التعيس بذل جهد كبير لتحقيق نتائج طيبة، لم أجرو على أن أصارحه.

بعد شهرين، أقنعت زوجته «بات» بأن ينزل إلى دوري الدرجة الثانية ليبدأ بداية جديدة، لم تكن فكرة أنه يمكن أن يتقدم بشكل أفضل بعيداً عن الأضواء إلا خدعة رهيبة، حيث لم يتم إلا دعم الوهم بأنه لا يزال هناك أمل له، وحين ذلك عزمت أخيراً على أن أقول شيئاً، لكن لم تواتني الشجاعة لأندفع بقوة كافية.

قلتُ: «ربما حان الوقت يا ديزي. ربما حان الوقت لتتوقف وتتجه إلى المزرعة».

«أجل»، قال، وهو يبدو مكتئبًا بأقصى ما يمكن أن يبدو رجل. «ربما تكون محقا. المشكلة أنني لست مناسبًا لشيء إلا رمى كرات البيسبول، علي أن أغادر هذه المرة، وأنا في منتهى السوء، يا والت. أقصد، ماذا يمكن أن يفعل متسكع مثلي مع نفسه؟».

فكرت في أشياء كثيرة، لكنني لم أبح بشيء، ثم رحل في ذلك الأسبوع إلى تولسا^(١). لم يسقط قط شخص عظيم هذا السقوط بهذه السرعة. قضى صيفًا طويلًا مخزيًا في اتحاد تكساس، قاطعًا الدائرة القديمة نفسها التي دمرها بالكرات السريعة قبل عشر سنوات. وكان هذه المرة يستطيع بالكاد أن يمسك كرته، ويشنت التافهون والأقزام رمياته في كل موضع. بداية قديمة أو جديدة، كان الحكم واضحًا، لكن ديزي استمر يهين نفسه ولم يسمح للمعاملة الخشنة أن تثنيه، بمجرد أن يأخذ حمامه ويرتدى ملابسه ويغادر الملعب، يعود إلى غرفته في الفندق بمجموعة من نماذج السباق ويبدأ الاتصال بوكلائه في المراهنات، قمت بعدد من المراهنات له في ذلك الصيف، وفي كل مرة اتصل فيها كنا نثرثر لخمس دقائق أو عشر ويتعرف كل منا على أخبار الآخر، وكنت لا أصدق الهدوء الذي كان يقبل به خزيه، تحول الرجل إلى أضحوكة، وتبدو روحه المعنوية جيدة، يثرثر وينكت كالمعتاد. ما فائدة الجدل؟ تصورت أنها مسألة وقت، وهكذا جاريته واحتفظت بأفكاري لنفسى. عاجلا أو آجلا. سيكون لزامًا عليه أن يرى النور.

(١) تولسا Tulsa: مدينة في شمال شرق أوكلاهوما.

استدعاه نادي كبز في سبتمبر، كانوا يريدون أن يعرفوا إن كانت خبرة الدوري الأدنى قد نجحت، وبينما كان أدائه غير مشجع، فإنه لم يكن مفرغاً كما قد يُعتقد. كانت كلمة متوسط الكلمة المناسبة. فوزان متقاربان، هزيمتان- وهنا يكمن الفصل الأخير من القصة. بمنطق غريب أحقق، قرر نادي كبز أن «دين» أظهر ما يكفي من حاسته القديمة ليبرر التعاقد معه موسماً آخر، فتقدم وطلب منه العودة. لم أعرف بالعقد الجديد إلا بعد أن غادر البلدة في الشتاء، لكن حين عرفت، انتفض أخيراً شيء في داخلي. أفلقتني لشهور. اهتجت وانزعجت وعبست، ومع قدوم الربيع مرة أخرى، فهمت ما ينبغي القيام به، لم يبد الأمر اختياراً. اختارني القدر أداة، ورغم بشاعة المهمة، لا يهمني إلا إنقاذ ديزي؛ إذا لم يفعل ذلك بنفسه، فعلياً أن أتقدم وأفعل ذلك له.

وحتى الآن، من الصعب أن أفسر كيف خطرت على بالي تلك الفكرة المنحرفة الشريرة. اعتقدت بالفعل أن من واجبي إقناع ديزي دين بأنه لم يعد يريد الحياة. بهذا الشكل الصريح، كان الأمر كله جنوناً، لكن هكذا خططت لإنقاذه بدقة: إقناعه بقتل نفسه، إذا لم يكن هناك شيء آخر، يبرهن ذلك على ما بلغته روعي من اعتلال في سنوات ما بعد موت الأستاذ يهودي. تعلقْتُ بديزي لأنه ذكرني بنفسي، ومادامت مهنته ازدهرت يمكن أن أحيى مجدي القديم خلاله. ربما ما كان يحدث ذلك لو لم يكن يلعب لبلدة غير سانت لويس، ربما ما كان يحدث ذلك لو لم يكن لقبانا متماثلين^(١). لا أعرف، لا أعرف شيئاً، لكن الحقيقة أنني في وقت ما لم أعرف الفرق بيننا. كانت انتصاراته انتصاراتي، وحين لازمه الحظ السيئ

(١) الإشارة إلى لقب ديزي Dizzy ويعني دوخة أو دوار ولقب فير تيجو Vertigo ويحمل المعنى نفسه.

في النهاية وتدهور مستواه، كان خزيه خزيي، لم أستطع العيش خلاله مرة أخرى، وتدرجياً بدأ الأمر يقلت من يدي. ينبغي أن يموت ديزي لمصلحته، وكان عليّ فقط الإنسان أن أدفعه إلى اتخاذ القرار المناسب. ليس فقط من أجله، لكن من أجلي أيضاً. كان معي السلاح، وكانت معي البراهين، وكانت قوة الجنون في جانبي. يمكن أن أدمر ديزي دين، وبذلك يمكن أن أدمر نفسي أخيراً.

التقى نادي كبز نادي شيكاجو في افتتاح البطولة المحلية في العاشر من أبريل. اتصلت بديزي عصر اليوم نفسه وطلبت منه أن يأتي إلى مكتبي، مبرراً ذلك بأن شيئاً مهماً قد حدث، حاول أن يعرف مني ذلك الشيء، لكنني قلت إنه أكبر من أن نناقشه في التليفون؛ قلت له: إذا كنتَ مهتماً بفرضية ستغير حياتك تماماً فتعال، كان مرتبطاً حتى بعد العشاء، ومن ثم حددنا الموعد في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي؛ ظهر متأخراً خمس عشرة دقيقة فقط، يسير متنهداً بخطوته المترامية ويحرك عود خلة فوق لسانه. يرتدي بدلة زرقاء من الصوف وقبعة سمراء من قبعات رعاة البقر، ورغم أن وزنه زاد بعض الأبطال منذ رأيته آخر مرة، كانت بشرته بها أثر تحسن بعد ستة أسابيع في شمس دوري «كاكتوس». كالمعتاد، كان يبتسم ابتسامة عريضة وهو يدخل، وقضى أول دقيقتين يتحدث عن كيف يبدو الملهى مختلفاً بالنهار دون زبائن، وقال: «إنه يذكرني بملعب خال. مثل مكان مرعب. هادئ مثل قبر ضخم جداً».

طلبت منه الجلوس وقدمت له مشروباً غازياً من آيس بوكس خلف مكتبي، وقلت: «يستغرق الأمر بضع دقائق، ولا أريد أن نظماً ونحن نتحدث». شعرت بيدي ترتجفان، فصببتُ نفسي كأساً من الويسكي ورشفت رشفتين، قلت وأنا أجلس في مقعدي الجلدي باذلاً أقصى ما أستطيع لأبدو هادئاً: «كيف حال ذراعك، أيها العجوز؟».

«كما كان، يبدو وكأن عظاما تبرز من كوعي».

«سمعت أنك بذلت جهدًا شاقًا تمامًا في تدريب الربيع».

«كانت مجرد مباريات للتدريب، لا تعني شيئًا».

«بالتأكيد، انتظر حتى تأتي أكلها حقا، صحيح؟».

لاحظ السخرية في صوتي فهز كتفيه بشكل دفاعي، ومد يده ليخرج السجائر من جيب قميصه. وقال: «حسنًا أيها الفتى، ما الخبر؟» أخرج سيجارة «لاكي» من علبته وأشعلها، نافثًا هبة كبيرة من الدخان في اتجاهي. «من الطريقة التي تحدثت بها في التليفون، بدا أنها مسألة حياة أو موت».

«إنها كذلك. إنها كذلك بالضبط».

«كيف؟ هل حصلت على براءة اختراع فكرة جديدة أو شيء ما؟ يا يسوع، جلبت دواء لعلاج الذراعين المعتلتين يا والت، وأعطيك نصف ما أتقاضاه طوال السنوات العشر التالية».

«حصلتُ على شيء أفضل من ذلك يا ديزي، ولن يكلفك سننًا واحدًا».

«كل شيء يكلف يا رفيق. إنه قانون الأرض».

«لا أريد نقودك؛ أريد أن أنقذك يا ديزي. دعني أساعدك لينتهي العذاب الذي تعيش فيه في السنوات الأربع الأخيرة».

«أجل»، قال وهو يبتسم وكأنني قلت نكتة مسلية. «وكيف أطمح في ذلك؟».

«أية طريقة تحب، الطريقة ليست مهمة، الشيء الوحيد المهم أن توافق - وتفهم السبب».

«توهنتي يا فتى، لا أعرف عما تتحدث».

«قال لي رجل عظيم: 'حين يصل الرجل إلى نهاية الخط، لا يريد إلا الموت'. هل صار الأمر أكثر وضوحاً؟ سمعتُ هذه الكلمات منذ وقت طويل، لكنني كنت أغبي من أن أعرف معناها. الآن أعرف، وأقول لك شيئاً يا ديزي - إنها صادقة. إنها أصدق ما نطق به إنسان».

انفجر «دين» ضاحكاً: «تمزح يا والت، لديك إحساس غريب بالدعابة، لا يخفت أبداً، لهذا أحبك كثيراً جداً. ليس هناك شخص آخر في البلدة يأتي بالأشياء المتهورة التي تفعلها».

تنهذتُ من غياب الرجل، كان التعامل مع مهرج مثل هذا عملاً صعباً، وكان آخر ما أريده أن أفقد صبري، أخذتُ رشفة أخرى من كأسِي، محرّكاً بقوة السائل اللاذع في فمي لثانيتين، وبلعته. وقلت: «اسمع يا ديزي. جربت ما تمر به. منذ اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة، كنت أجلس على قمة العالم، أفضل شخص يقوم بما أقوم به، في مرتبة بمفردي، ودعني أقل لك إن ما حقّقته في مجال الكرة لا يساوي شيئاً مقارنة بما كان يمكن أن أفعله، بجانبِي، لستُ إلا قزماً، حشرة، بقعة لعينة في سجادة. هل تسمع ما أقول؟ لكنني لم أتلّكاً وأجعل الناس يأسفون من أجلي، لم أحول نفسي إلى أضحوكة - توقفت - ثم واصلت وصنعت حياة أخرى لنفسِي، ذلك ما كنت أمل وأدعو ليحدث لك، لكنك لم تقبله، أليس كذلك؟ دماغك الغبي الغليظ محشو جداً بالهراء بدرجة تجعلك لا تقبل ذلك».

«انتظر ثانية»، قال ديزي، هازأ إصبعه لي وومضة مفاجئة وغير متوقعة من البهجة تنتشر في وجهه. «انتظر ثانية فقط. الآن أعرف من أنت. خرا. كنت أعرف طوال الوقت. أنت ذلك الفتى، أليس كذلك؟ أنت ذلك الفتى اللعين. والت... والت الولد العجيب. يا يسوع العظيم. أخذني أبي أنا وبول وإلمر إلى العرض ذات يوم في أركانساس، ورأيناك وأنت تقوم بالعابك. يا له من عالم لعين- أتساءل دائماً عما حدث لك، وأنت هنا، تجلس أمامي مباشرة؛ لا يمكن أن أصدق ذلك».

«صدقه يا صديقي، حين أخبرتك بأنني كنت عظيماً، كنت أعني عظيماً بدرجة لم يحققها أحد آخر، مثل مُذَنَّبٍ يخلق في السماء».

«كنت عظيماً حقاً، أشهدُ على ذلك، أعظم من رأيتُ».

«وهكذا كُنْتُ أيها الرجل الكبير، كنت عظيماً جداً، ولم تعد تستطيع القيام بذلك الآن، ويحطم قلبي ما أراك تفعله بنفسك. دعني أساعدك يا ديزي. الموت ليس مرعباً جداً؛ يموت الجميع في وقت ما، وبمجرد أن تتقبل الفكرة ترى أن التعجيل بالأمر أفضل، إذا منحتني الفرصة، يمكن أن أخلصك من العار، يمكن أن أرد لك كرامتك».

«أنت جاد حقاً، أليس كذلك؟»

«يمكن أن تراهن على أنني جاد، جاد كما لم أكن ذات يوم طوال حياتي».

«أنت غريب جداً يا والت. أنت على غير عادتك».

«دعني أقتلك، وسينسى الناس السنوات الأربع الأخيرة. وتكون عظيما مرة أخرى يا بطل، تكون عظيما مرة أخرى إلى الأبد».

كنت أنطلق بسرعة كبيرة جدا. أفقدني توازني بذلك الحديث عن الولد العجيب، وبدل أن أغير اتجاهي وأعدل طريقي، اندفعت إلى الأمام بسرعة فائقة، أريد أن أضغط ببطء، أن أهدهه ببراهين متقنة ومحكمة حتي يقرر لنفسه، تلك هي القضية: ألا أرغمه على ذلك، أن أجعله يرى حكمة الخطة بنفسه، أريد أن يريد ما أريد، أن يشعر بالافتتاع بالفرضية بحيث يتوسل لأنفذها، لكنني أرعبته بتهديدات وملاحظات تافهة تفتقر إلى النضج، لا غرابة في أن يعتقد أنني مجنون، تركت كل شيء يفلت من يدي، وبالضبط حين كان ينبغي أن يبدأ، نهض وشق طريقه للخروج.

لم يزعجني ذلك، أغلقت الباب من الداخل ولا يمكن أن يفتح دون المفتاح - وكان في جيبي، لكنني لم أكن أريد أن يسحب المقبض ويرج الإطار، ربما يبدأ الصياح لأتركه يخرج، ومع وجود ستة أشخاص يعملون في المطبخ في تلك الساعة، من المؤكد أن الضجة ستجعلهم يأتون جريا، وهكذا، مفكرا فقط في تلك النقطة الصغيرة ومتجاهلا التبعات الأكبر، فتحت درج مكتبي وأخرجت مسدس الأستاذ. كانت الغلطة التي قضت عليّ. بتوجيه المسدس إلى ديزي، اجتريت الحدود التي تفصل الحديث المتراخي عن الجرائم التي تستوجب العقاب، والكابوس الذي بدأ يمكن ألا يتوقف. لكن المسدس كان جاسما، أليس كذلك؟ كان العنصر الأساسي في العملية كلها، وفي لحظة أو أخرى كان لابد أن يخرج من الدرج. أشد الزناد على ديزي - وهكذا أعود إلى الصحراء وأقوم بالمهمة التي لم تنجز قط. أجعله يستجدي الموت بالطريقة نفسها التي استجداه بها الأستاذ يهودي، ثم أصلح الخطأ باستجماع الشجاعة علي القيام بالفعل.

لا شيء من هذا يهم الآن. نفذت الأمر بطريقة خرقاء حين وقف ديزي، ولم يكن إخراج المسدس أكثر من محاولة يائسة لحفظ ماء الوجه، طلبت منه أن يعود إلى الكرسي وفي الدقائق الخمس عشرة التالية أرهقته أكثر بكثير مما نويت، كان «دين» رغم زهوه وحجمه جبانا، وكلما اندلعت مشاجرة يختفي خلف أقرب قطعة أثاث، كنت أعرف سمعته، لكن المسدس أصابه برعب أكثر حتى مما ظننت. جعله يبكي حقاً، وهو يجلس في مقعده ينن وينتحب، سحبت الزناد لأسكته، توصل من أجل حياته. ليس لقتله بل لأتركه يعيش. وهكذا انقلب كل شيء رأساً على عقب، اختلف تماماً عما تخيلت، ولم أعرف ما أفعل، وكان يمكن أن تستمر المواجهة طوال اليوم، لكن حينذاك، قرب الظهيرة، طرق شخص الباب. وكنت قد تركت تعليمات واضحة بالآيز عجنى أحد، لكن واصل شخص طرق الباب بوتيرة واحدة.

جاء صوت امرأة: «ديزي؟ هل أنت بالداخل يا ديزي؟».

كانت زوجته «بات»: شخصية مستبدة لا تعرف الهزل. جاءت لتأخذ زوجها لموعد غداء في مطعم «ليمل»، وبالطبع كان ديزي قد أخبرها بالمكان الذي يمكن أن تجده فيه، وكانت عقبة أخرى محتملة لم أفكر فيها. جاءت إلى ملهاي لتبحث عن نصفها الأفضل الذي تهيمن عليه، وبمجرد أن قبضت على كبير الطباخين في المطبخ (وكان مشغولاً بتقطيع البطاطس والجزر)، أدته جدا حتى إن المسكين دلق البسلة في النهاية. قادها عبر السلاالم والقاعة، وهكذا كانت تقف أمام باب مكتبي، تضرب بقوة على القشرة الخشبية البيضاء بمفاصل عاهرة غاضبة.

باستثناء غرس رصاصة في رأس ديزي، لم يكن هناك ما يمكن أن أفعله إلا إبعاد المسدس وفتح الباب، وكان من المؤكد عند تلك اللحظة أن المشاكل ستنفجر - إلا إذا فعل الرجل الكبير المطلوب لي وقرر أن يلعب دور الأم. لعشر ثوان كانت حياتي متدلية من ذلك الخيط الرقيق: إذا كان مرتبكا جدا بدرجة لا تسمح له بأن يحكي لها عن مقدار هلعه، يمكن ألا يبوح بشيء عن الارتباك الذي حدث. رسمت على وجهي أحر ابتسامة وأكثرها لطفا ومسز "دين" تدخل الغرفة، لكن زوجها الباكي كشف عن الأمر كله حين رآها. قال، بصوت حاد يعبر عن الشك: "العاهر الصغير كان سيقتلني! صوب مسدسا إلى رأسي، وكان العاهر الصغير سيطلق النار!"

تلك هي الكلمات التي منعني من مواصلة العمل في الملهى الليلي. بدلاً من يحافظ بات وديزي على الحجز في مطعم «ليمل» خرجا من مكتبي واتجها مباشرة إلى نقطة شرطة محلية ليقدما شكوى ضدي؛ أخبرتني «بات» بأنهما ذاهبان للقيام بذلك وهي تصفع الباب في وجهي ولم تهتز لي شعرة، اكتفيت بالجلوس خلف مكتبي والتعجب من غبائي، محاولاً أن أجمع أفكارى قبل أن يظهر رجال الشرطة ويأخذوني، استغرق الأمر أقل من ساعة، وغادرت المكان في هدوء، أبتسم وألقي بالنكات حين وضعوا القيد حول رسغي. لولا بينجو، ربما قضيت وقتاً صعباً نتيجة طعنتي الصغيرة في رب اللعب، لكن كانت له ارتباطات كثيرة، وقد عقدت صفقة قبل أن تصل القضية إلى المحكمة، كان الأمر جيداً لي بتلك الطريقة، ولديزي أيضاً، لم يكن من الممكن أن تكون المحاكمة جيدة بالنسبة

له. لا يمكن أن تكون جيدة مع كل الانتقاد وترويج الفضيحة التي يمكن أن تصاحبها - وكان سعيدًا تمامًا بقبول التسوية. خيرتني المحكمة. اعتراف بالذنب لتخفيف الحكم وقضاء من ستة أشهر إلى تسعة أشهر في جوليت^(١)، أو مغادرة شيكاغو والالتحاق بالجيش. اخترت السير في الطريق الثاني. لم يكن ذلك لرغبتني الشديدة في ارتداء زي، لكنني تصورت أنني لم أعد محل ترحيب في شيكاغو وقد حان الوقت لأننتقل إلى مكان آخر.

شد بينجو الحبال ودفع رشى لأبقى خارج السجن، لكن ذلك لم يكن يعني أنه كان متعاطفًا مع ما قمت به. اعتقد أنني مجنون، مجنون بنسبة تسعة وتسعين فاصل تسعة وتسعين في المائة. كان قتل رجل من أجل المال أمرًا أسهل، لكن أي أب له يمكن أن يطارده كنزًا قوميًا مثل ديزي دين؟ لابد أن تكون مجنونًا تمامًا حين تدبر أمرًا مثل هذا، قلت: إنني ربما أكون كذلك، ولم أحاول أن أبرر ما أقدمت عليه. ليفكر فيما يشاء وينتهي الأمر عند ذلك، بالطبع كان هناك ثمن عليّ أن أدفعه، لكنني لم أكن في وضع يسمح لي بالجدل، بدلاً من دفع نقد مقابل خدمات بينجو، وافقت أن أعوضه عن المساعدة القانونية التي قدمها لي بالتوقيع على تنازل عن نصيبي في الملهي، كان فقدان ملهى مستر فيرتيجو صعبًا عليّ، لكنه لا يساوي نصف صعوبة تنفيذ العقوبة، لا يساوي عُشر صعوبة فقدان الأستاذ؛ لم أعد شخصًا مميزًا. مجرد ذاتي القديمة العادية مرة

(١) جوليت: مدينة في شمال شرق إلينوي إلى الجنوب من شيكاغو، وهي منطقة صناعة وميناء نهري.

أخرى: والتر كليربورن رولي، جندي في السادسة والعشرين من العمر بشعر قصير وجبين خاويين، أهلا بالعالم الواقعي يا رفيق، أعطيت بدلي لمساعدتي النادل، قبلت صديقتي قبلة الوداع، وأخذت قطار الفجر واتجهت إلى معسكر التدريب. نظرًا لما كان يمكن أن يحدث، أفترض أنني كنت محظوظًا.

بحلول ذلك الوقت رحل ديزي أيضًا. كان موسمه مباراة واحدة، وبعد أن صد بتسبرج رمياته لثلاث مرات متتالية في الجولة الأولى من بدايته الأولى، اعتزل أخيرًا. لا أعرف إن كانت حيلي الرهيبة قد أثرت فيه، لكنني سعدت حين قرأت عن قراره. منحه نادي كبز وظيفة مدرب أول للقاعدة الأولى، لكنه تلقى بعد شهر عرضًا أفضل من شركة «فليستاف برونج» في سانت لويس، فعاد إلى البلدة القديمة ليعمل مذيعة إذاعيا لمباريات براون وكاردينال. قال: «لن تغيرني هذه الوظيفة؛ سأتكلم الإنجليزية القديمة المباشرة». كان يجب تسليمها للفظ الكبير، انشغل الجمهور بالكلام التافه الذي كان يبثه على موجات الأثير، وحقق نجاحًا، ليستمر في العمل خمسة وعشرين عامًا. لكنها قصة أخرى، ولا أستطيع أن أقول: إنني أوليته كثيرًا من الاهتمام. تركت شيكاجو، ولم يعد الأمر يعني.

IV

كانت

عيناى ضعيفتين جدا مما حال دون التحاقى بمدرسة الطيران، فقضيت السنوات الأربع التالية أزحف فى الوحل. صرت خبيراً فى عادات الدود والمخلوقات الأخرى التى تسعى على الأرض وتلتهم جلد الإنسان للحصول على غذائها. طلبت المحكمة من الجيش أن يصنع منى رجلاً، وإذا كان أكل القاذورات ومشاهدة الأطراف تتطاير من أجساد الجنود برهائنا على الرجولة، فإننى أفترض أن المبجل تشارلز ماكجوفين عرفها بشكل صحيح، بقدر ما يعينى، كلما قل الكلام عن تلك السنوات الأربع كان أفضل؛ أولاً: فكرت بجدية فى الحصول على إعفاء طبي، لكن لم تواتنى الشجاعة قط للقيام بذلك، كانت خطى أن أبداً التحليق مرة أخرى سرّاً- وأجلب تلك النوبات العنيفة المعوقة من الألم بحيث أدفعهم إلى إرسالى إلى البيت، وكانت المشكلة أننى لم يعد لي بيت أذهب إليه، وبمجرد أن فكرت فى الوضع بعض الوقت، أدركت أننى أفضل شك المعركة على يقين عذاب تلك النوبات من الصداق.

لم أشعر بالتميز كجندي، ولم أشعر بالخزي أيضاً، كنت أقوم بوظيفتي، وأتجنب المشاكل، وأتسكع هناك ولم أقتل، وحين عدت فى نوفمبر ١٩٤٥، كنت منهكاً جداً، وعاجزاً عن التفكير فى المستقبل أو وضع خطط. انجرفت لثلاث سنوات أو أربع، صعوداً وهبوطاً على الساحل الشرقى غالباً. كانت أطول فترة فى بوسطن. عملتُ عامل بار هناك، معزراً دخلي بالرهان على سباق الخيول وبالجلوس أسبوعياً للعب البوكر فى قاعة سبيرو للعب فى "الطرف الشمالى". كان مجرد عمل متوسط المخاطر، لكنك إذا واصلت كسب الدولار والخمسة دولارات، تجمع مبلغاً. كنت على

وشك إبرام صفقة لفتح مكان خاص بي حين ساء حظي. ضاعت مدخراتي، استدنت، وقبل مرور أشهر طويلة، كان عليّ أن أتسلل من البلدة لأتخلص من حيطان القروض الذين وقعت تحت أنيابهم. من هناك ذهبت إلى جزيرة "لونج" وحصلت على وظيفة في البناء، كانت تلك هي السنوات التي امتدت فيها الضواحي حول المدن، وذهبتُ حيث النقود، مساهمًا بنصيب في تغيير المشهد الطبيعي وتحويل العالم إلى ما يبدو عليه اليوم، كل منازل الحقول والمروج المنسقة والشجيرات المغزلية الملفوفة في الخيش. كنت الرجل الذي يضعها هناك، كان عملاً كنيياً، لكنني التزمت به ثمانية عشر شهراً، في لحظةٍ ما، لأسباب لا أستطيع تفسيرها، تركت نفسي أتحدث في زواج، لم يستمر أكثر من نصف عام، والخبرة كلها ضبابية بالنسبة لي الآن، أجد مشكلة في تذكر شكل زوجتي، ولا أتذكر اسمها إذا لم أفكر فيه كثيراً.

لم تكن لدي فكرة عما أصابني، كنت سريعاً جداً باستمرار، سريعاً جداً في الانقضاء على الفرص وتحويلها في مصلحتي، لكنني حينذاك كنت أشعر بالكسل، لا أصل في الوقت المناسب، عاجزاً عن مسايرة التيار، يتجاوزني العالم، وأغرب ما في ذلك أنني لا أباقي؛ ليس لدي طموح، لا أحاول أن أبحث عن مخرج، أريد فقط أن أترك في سلام، لأمضي بأفضل ما أستطيع وأذهب إلى حيث يأخذني العالم. حلمت بالفعل أحلامي الكبرى، لم تأخذني إلى أي مكان، وصرت مُنهكاً بدرجة تحول بيني وبين التفكير في أحلام جديدة، ليحمل شخص آخر كرة التغيير، أسقطتها منذ زمن بعيد، ولم تعد تستحق جهد لأنحني وألتقطها.

في ١٩٥٠، انتقلت عبر النهر إلى شقة رخيصة في مدينة نيوارك، في ولاية نيوجيرسي، وبدأت وظيفتي التاسعة أو العاشرة منذ انتهاء الحرب. عينت شركة ماير هوف للمخابز أكثر من مائتي شخص، وفي ثلاث ورديات من ثماني ساعات كنا نخرج كل ما يمكن تخيله من المخبوزات. كان هناك سبعة أنواع مختلفة من الخبز فقط: الأبيض، والجاودار، والقمح الخالص، والبمرنيكل، والزبيب، والزبيب بالقرفة، والأسود البافاري. بالإضافة إلى اثني عشر نوعًا من الكعك المحلي، وعشرة أنواع من الكيك، وستة أنواع من الكعك المقلي، بالإضافة إلى البقسماط، ولفائف الخبز. وبالتالي يمكن فهم السبب الذي يجعل المصنع يعمل أربعًا وعشرين ساعة يوميًا. بدأت العمل في خط التجميع، أضبط وأجهز ورق السيلوفان الذي يلف حول شرائح الخبز، تصورت أنني سأبقى هناك لبضعة أشهر على الأكثر، لكن بمجرد أن استوعبت الأمر، تبين لي أنه مكان جيد لكسب العيش، كانت الروائح في المصنع طيبة جدًا، ومع انطلاق نكهة الخبز الطازج والسكر باستمرار في الهواء، لم تكن الساعات تزحف ثقيلة كما كانت تزحف في وظائف الأخرى. كان ذلك جزءًا منها على أية حال، لكن الأكثر أهمية المرأة ذات الشعر الأحمر التي بدأت تضع عينيها عليّ بعد أسبوع تقريبًا من ذهابي إلى هناك. لم تكن جميلة جدًا لاأطلع إليها، على الأقل مقارنة بفتيات الاستعراض اللاتي انهمكت معهن في شيكاجو، لكن كان هناك ومضة محيرة في عينيها الخضراوين أثرت في، ولم أضيع وقتًا طويلاً للتعرف عليها. لم أأخذ في حياتي إلا قرارين جديدين. الأول اتباع الأستاذ يهودي في ذلك القطار وأنا في التاسعة

من العمر. والثاني الزواج من "مولي فيتزسيمونز". وضعتني مولي على الطريق الصحيح مرة أخرى، ونظرًا للشكل الذي كنت عليه حين وصلت إلى نيوارك، لم تكن مهمة صغيرة.

كان اسمها قبل الزواج "كوين"، والتقىنا وهي على مشارف الثلاثين، تزوجت زوجها الأول بعد الانتهاء من الثانوية مباشرة، وبعد خمس سنوات التحق بالجيش. طبقًا لكل الروايات، كان فيتزسيمونز شخصًا ودودًا وجادًا، لكن حربه كانت أقل حظًا من حربي. أصابته رصاصة في ميسينا^(١) سنة ٤٣، ومنذ ذلك الوقت عاشت مولي وحدها، أرملة دون أبناء ترعى نفسها وتنتظر ما يحدث. لا يعلم إلا الرب ما رأته في، لكنني وقعت في حبها لأنها جعلتني أشعر بارتياح، لأنها أحييت ذاتي القديمة اللبقة، وكانت تفهم النكتة الجيدة حين تسمعها، لم يكن فيها شيء مُبهر، ولم يكن فيها ما يميزها. مجرد زوجة أخرى لعامل قاس: امرأة بوركين سمينتين وبطن عريض، لا تضع مكياجًا إلا وهي ذاهبة إلى مطعم. لكن كانت لمولي روح طيبة، وكانت حازمة بطريقتها الهادئة اليقظة، كانت عطوفًا؛ لا تحمل ضغينة؛ تدعمني ولا تحاول قط أن تجعل مني شخصًا آخر، وكانت غير ماهرة بعض الشيء كربة بيت ولم تكن طبخة جيدة لكن ذلك لم يكن مهمًا. لم تكن خادمتي، رغم كل شيء، كانت زوجتي. وكانت صديقتي الحقيقية الوحيدة منذ كنت في كانساس مع أيسوب والأم سيوكس، المرأة الأولى التي أحببتها في حياتي.

عشنا في شقة في الدور الثاني في بناية دون مصعد في حي أيرنباوند في نيوارك، وحيث إن مولي لم تكن قادرة على الحمل، بقينا اثنين دائمًا. جعلتها تترك وظيفتها بعد العرس، وبقيت في وظيفتي،

(١) ميسينا Messina: مدينة شمال شرق صقلية.

وبمرور السنوات رقيت في شركة ماير هوف. كان يمكن لزوجين أن يعيشا براتب واحد في ذلك الوقت، وبعد أن رقيت إلى رئيس عمال دورية الليل، لم يعد لدينا مخاوف مالية يمكن الحديث عنها، كانت حياة متواضعة بالمعايير التي وضعتها لنفسني ذات يوم، لكنني كنت قد تغيرت بدرجة تجعلني لا أبالي بذلك. كنا نذهب إلى السينما مرتين أسبوعياً، ونأكل خارج البيت في مساء السبت، ونقرأ الكتب ونشاهد التليفزيون، وفي الصيف، نذهب بالسيارة إلى الشاطئ في «أسبوري بارك»، ونذهب معاً كل أحد تقريباً إلى أحد أقارب مولي. كان آل «كوين» أسرة كبيرة، وكان كل إخوتها وأخواتها متزوجين ولديهم أطفال. كان لها أربعة إخوة وأربع أخوات، لديهم ثلاثة عشر ابناً وبنات؛ بالنسبة لرجل لم ينجب، كنت غارقاً تماماً في الصغار، لكنني لا أستطيع أن أقول: إنني اعترضت على القيام بدور العم والـت. كانت مولي رائعة عمّة وخالة، وكنت مهرج البلاط: الرجل الضئيل المكتنز مع كل تلك الأعمال الغريبة والتهريج، روتي كازوتي^(١) يتدحرج على سلالم الرواق الخلفي.

قضيت ثلاثة وعشرين عاماً مع مولي - أفترض أنها فترة طويلة بعض الشيء، لكنها لم تكن طويلة جداً. نويت أن أشيخ معها وأموت بين ذراعيها، لكن السرطان جاء وأخذها مني قبل أن أكون مستعداً للتخلي عنها، في البداية ضاع ثدي، ثم الثدي الآخر، وحين بلغت الخامسة والخمسين لم تعد هناك. فعلت الأسرة ما تستطيع من مساعدة، لكنها كانت فترة بشعة. قضيت الشهور الستة أو السبعة التالية في غيبوبة كحول. ساءت حالتي حتى فقدت في النهاية وظيفتي

(١) روتي كازوتي: الشخصية الرئيسية في عرض تليفزيوني للأطفال في خمسينيات القرن العشرين.

في المصنع، ولو لم يسحبني اثنان من أخوة مولتي إلى عيادة لعلاج الإدمان، ما كان يمكن التحدث عما يحدث لي. قضيت ستة أيام كاملة للشفاء في مستشفى «سانت بارناباس» في «ليفنجستون»، وأخيرا بدأت أحلم هناك من جديد، لا أعنى أحلام يقظة وأفكارًا عن المستقبل، أعني أحلاما حقيقية أثناء النوم: مشاهد سينمائية حية كل ليلة تقريبًا لمدة شهر، ربما كان لها علاقة بالعقاير والمهدنات التي أتعاطاها، لا أعرف، لكن أربعة وأربعين عامًا بعد آخر عرض قدمته بوصفي والت الولد العجيب، اندفعت كلها عائدة إليّ. عدت إلى الطواف مع الأستاذ يهودي، متنقلين من بلدة إلى أخرى في البيرس أرو، مُقدمًا عرضي مرة أخرى كل ليلة، وقد أسعدني ذلك بشكل لا يصدق، وأعاد إلى المتع التي نسيت منذ فترة طويلة أنني يمكن أن أشعر بها. أسير على المياه مرة أخرى، عارضًا أعمالتي أمام جمهور هائل متدفق، وأتحرك في الجو دون ألم، طافيًا ومدومًا وواثبًا بكل براعتي القديمة ويقيني. عملت جاهدًا جدًا على أن أدفن تلك الذكريات، وكافحت سنوات طويلة لأحتضن الأرض وأكون مثل أي شخص آخر، لكن ذلك كله يندفع مرة أخرى، متفجرًا في عرض ليلى للألعاب النارية لشركة تكنيكلر، قلبت تلك الأحلام كل شيء، أعادت لي زهوي، ولم أعد أخجل من النظر للماضي، لا أعرف كيف أعبر عن ذلك بطريقة أخرى. سامحني الأستاذ. شطب ديني له بسبب مولتي، بسبب حبي لها وحزني عليها، وكان يناديني ويطلب أن أتذكره، ليس هناك من سبيل لإثبات ذلك، لكن التأثير لا يمكن إنكاره. ارتفع شيء بداخلي، وخرجت من بركة السكر يقظًا كما أنا الآن. كنت في الثامنة والخمسين من العمر، حياتي مدمرة، لكن شعوري لم يكن سيئًا جدًا تجاهها، حين قيل كل شيء وتم، شعرت فعليا بأنني في حالة طيبة تمامًا.

أنت فواتير علاج مولي على كل النقود التي نجحنا في ادخارها. تأخر الإيجار أربعة أشهر، والمالك يهددني بالطرد، ولم أكن أملك إلا سيارتي- فورد فيرلين عمرها سبع سنوات بشبكة معطوبة وكاربريتور تالف. بعد حوالي ثلاثة أيام من مغادرة المستشفى، اتصل بي من دينفر^(١) أحد أبناء إخوة مولي، الابن المفضل لدي، بشأن وظيفة. كان «دان» الشخص المرموق في العائلة- أول أستاذ جامعي في الأسرة على الإطلاق - يعيش هناك مع زوجته وابنه منذ بضع سنوات، وحيث أخبره أبوه عما آل إليه حالي من سوء، لم أضيع لحظة لأبتكر أكاذيب عن حسابي الضخم في البنك. قال لي إن الوظيفة ليست كبيرة، لكن ربما يجعلني تغيير الجو أفضل، سألت: أية وظيفة؟ فردّ: مهندس صيانة، محاولاً ألا يجعل صوته مرخاً جداً. قلت: تعني بواباً؟ قال: أجل، فارس المسحة. وظيفة خالية في البناية التي يدرس فيها فصوله، وإذا شعرت بالرغبة في الانتقال إلى دينفر، فإنه سيلتزم بكلمته معي ويبرم الصفقة. قلت: بالتأكيد، لماذا لا، وبعد يومين، حزمت بعض أشيائي في الفورد وانطلقت إلى جبال روكي.

لم أصل قط إلى دينفر، ولا يرجع ذلك إلى تحطم السيارة، أو إعادة التفكير في أن أصبح بواباً، لكن نتيجة ما حدث في الطريق، وبدل أن ينتهي بي الأمر إلى موضع انتهى بي إلى موضع آخر، وفي الحقيقة ليس من الصعب شرح ذلك. جلبت الرحلة، وقد جاءت بسرعة بعد كل تلك الأحلام في المستشفى، فيضا من الذكريات، وأنا أعبر حدود كانساس، لم أستطع مقاومة القيام بانعطافة عاطفية قصيرة إلى الجنوب. قلت لنفسني إنها ليست بعيدة جداً عن الطريق، ولن يبالي

(١) دينفر: عاصمة ولاية كولورادو.

«دان» إذا تأخرت هناك بعض الوقت. أردت فقط أن أقضي بضع ساعات في ويتشيتا- وأعود إلى منزل مسز وينرسبون لأرى ما يبدو عليه المكان القديم- ذات مرة- بعد الحرب بقليل، حاولت أن أبحث عنها في نيويورك، لكن لم تكن بياناتها مسجلة في دليل التليفونات، ونسيت اسم شركتها. واعتقدت أنها ماتت، مثل كل الآخرين الذي اهتمت بهم. كبرت المدينة قليلا منذ العشرينيات، لكنها لم تكن ما كنت أعتقده عن الزمن الجميل؛ زاد الناس، وزادت المباني، وزادت الشوارع، لكن بمجرد أن تكيفت مع التغيرات، تبين لي أنها المكان الراكد نفسه الذي تذكرته. صارت تُسمى «عاصمة الطيران في العالم»، وضحكت ضحكة كبيرة حين رأيت ذلك الشعار ملصوقا على لوحات الإعلانات حول البلدة. كانت الغرفة التجارية تشير إلى كل شركات الطيران التي أنشأت مصانع هناك، لكنني لم أستطع مقاومة التفكير في نفسي، الولد الطائر الأصلي الذي اعتبر ويتشيتا وطنه ذات يوم. وجدت صعوبة في العثور على المنزل، مما جعل جولتي أكبر قليلاً مما خططت. كان يقع في أطراف البلدة، يقف وحده على الطريق القذر الذي يؤدي إلى ريف مفتوح، لكنه صار جزءاً من المحور السكني، وتم تشييد منازل أخرى حوله. سُمي الشارع «كورونادو»، وكان به كل التجهيزات الحديثة: أرصفة للمشاة، مصابيح الشوارع، وسطح من الإسفلت وشريط أبيض يمتد في المنتصف، لكن المنزل بدا جيداً، لاشك في ذلك: كانت الألواح تلمع تحت السماء الرمادية في نوفمبر، والأشجار الصغيرة التي غرسها الأستاذ يهودي أمام الفناء ارتفعت فوق السطح مثل العمالقة، من امتلاك المكان تعامل معه بشكل جيد، وقد صار قديماً جداً، كانت له نكهة التاريخي، قصر فخم من عصرٍ ولى.

أوقفت السيارة وصعدت سلالم الرواق الأمامي، كان وقت الأصيل، وكان هناك ضوء في نافذة الدور الأول، وقد صرت هناك، تصورت أن عليّ أن أواصل حتى النهاية وأرن الجرس، إذا لم يكن الناس غيلانا، ربما يسمحون لي بالدخول والفرجة من أجل الماضي. كان ذلك كل ما أتمنى: مجرد إلقاء نظرة، كان الجو باردًا في الرواق، وأنا أقف في انتظار أن يظهر أحد، لم أستطع مقاومة التفكير في أول مرة أتيت فيها إلى هذا المنزل، شبه ميت من فقدان طريقي في تلك العاصفة الثلجية الرهيبة. كان عليّ أن أرن الجرس مرتين قبل أن أسمع وقع أقدام في الداخل، وحين فُتح الباب في النهاية، كنت مُنغمسًا في تذكر مقابلي الأولى مع مسز ويدرسيون، واستغرق الأمر ثانيتين قبل أن أدرك أن المرأة التي تقف أمامي ليست إلا مسز ويدرسيون نفسها: نسخة أكبر وأضعف وأكثر تجعدًا بالتأكيد، لكنها مسز ويدرسيون نفسها رغم كل شيء، يمكن أن أعرفها في أي مكان، لم يزد وزنها رطلا منذ ١٩٣٦؛ وكان شعرها مصبوغًا بالظل الأنيق نفسه من اللون الأحمر؛ وعيناها زرقاوان مشرقتان كما كانتا دائما، كانت في الرابعة والسبعين أو الخامسة والسبعين، لكنها لم تبد يومًا فوق الستين- ثلاثة وستين على الأكثر، لا تزال ترتدى ملابس رائعة. منتصبه القوام، جاءت إلى الباب وبين شفيتها سيجارة مشتعلة وفي يدها كأس من الويسكي، لا بد أن تحب امرأة بهذا الشكل. مر العالم بتغيرات وكوارث لا توصف منذ رأيت مسز ويدرسيون آخر مرة، لكنها المرأة القوية نفسها كما كانت دائما. تعرفت عليها قبل أن تتعرف عليّ، كان ذلك مفهوما، حيث إن الزمن أثر بعنف على شكلي أكثر مما أثر عليها، اختفى نمشي كله

تقريبًا، وتحولت إلى رجل بدين بشعر رمادي نحيل وعدسات سمكة تجثم على أنفي. بالكاد الشخص الأنيق الذي تعشت معه في مطعم «ليمل» قبل ثمانية وثلاثين عامًا. أرندي ملابس عمل باهتة- سترة مربعات، وبنطلونًا كاكيتًا، وحذاء قرطيبيا، وجوربًا أبيض - وياقتي مرفوعة لتدفع البرد، ربما لم تر جزءًا كبيرًا من وجهي، وما رآته كان منهكًا جدًا، ومتهالكًا جدًا من صراعي مع الخمر، ولم يكن أمامي إلا أن أخبرها بحقيقتي.

الباقى لا يحتاج إلى كلام، أليس كذلك؟ ذرفنا الدموع وحكيينا القصص، تبادلنا أطراف الحديث بشكل مثير حتى الساعات الأولى من الصباح. كان وقتًا رائعًا في شارع كورونادو، وأشك أنه يمكن أن يوجد اجتماع للشمل أفضل مما حدث في تلك الليلة، قدمت بالفعل خلاصة ما حدث لي، لكن قصتها لم تكن أقل غريبة، أو أقل مفاجئة من قصتي، بدلاً من أن تضاعف ملايينها أثناء الازدهار العشوائي في تكساس، غرست أدوات الحفر في أرض جافة وتبخر كل شيء؛ كانت لعبة البترول في ذلك الوقت مسألة حدس إلى حد بعيد، وقد خمنت كثيرًا جدًا بشكل سيئ. بحلول ١٩٣٨ خسرت تسعة أعشار ثروتها. لكن هذا لم يجعلها في عداد الفقراء جدًا، لكنها ما عادت في رابطة الشارع الخامس، وبعد خوض بضع مغامرات أخرى لم توفق فيها، حزمت أمرها في النهاية وعادت إلى ويتشيتا. اعتقدت أن ذلك سيكون مؤقتًا؛ بضعة أشهر في المنزل القديم لتقييم الوضع وتنتقل إلى الفكرة التالية المتألقة، لكن شينا أدى إلى آخر، وعند قيام الحرب كانت لا تزال هناك، فيما يمكن فقط أن يسمى بداية تغيير مسار، انهمكت في الحماسة الوطنية التي سادت في ذلك الوقت وقضت السنوات الأربع التالية في العمل ممرضة متطوعة في مستشفى ويتشيتا لعدامي المحاربين. كنت تواقًا لأتخيلها وهي تقوم

بدور فلورنس نايتيجيل، لكن مسز ويذرسمون كانت امرأة مدهشة جداً، كان المال نقطة قوتها، لكنه لم يكن قطعاً الشيء الوحيد الذي تفكر فيه. بعد الحرب دخلت البيزنس مرة أخرى، لكنها بقيت في تلك المرة في ويتشيتا، وبالتدريج خططت بشكل مربح جداً. مع شركة لوندرومات^(١). يبدو الأمر مضحكاً رغم المخاطر العالية نظرياً في البورصة والبتروول- لكن لم لا؟ كانت من أول من يرون الاحتمالات التجارية للغسالات، وتفوقت على منافسيها بدخول المجال مبكراً. حين ظهرت في ١٩٧٤، كان لديها عشرون فرعاً في مواضع متفرقة من المدينة، واثنى عشر أخرى في البلدات المجاورة. كانت تسميها «هاوس أوف كلين»، وقد حولتها كل تلك العملات إلى امرأة غنية مرة أخرى.

سألت: وماذا عن الرجال؟ فردت: أوه، رجال كثر، رجال أكثر مما يمكن أن تحصيهم. وأوليف كوكس- ماذا عنه؟ قالت: مات ورحل، وبيلي بيجلو؟ لا يزال بين الأحياء. كان منزله في الحقيقة قريباً جداً. أدخلته بيزنس اللوندرومات بعد الحرب، وكان مديرها ويدها اليمنى حتى أحيل إلى المعاش قبل ستة أشهر، كان بيلي الشاب على مشارف السبعين، وبعد إصابته بنوبتين قليبتين، طلب منه الأطباء أن يريح القلب، ماتت زوجته قبل سبع سنوات أو ثمان، وحيث إن أبناءه كلهم كبروا ورحلوا، بقى بيلي ومسز ويذرسمون على علاقة وطيدة، وصفته بأنه أفضل صديق عرفته على الإطلاق، ومن الطريقة التي رق بها صوتها وهي تقول ذلك، عرفت أن العلاقة بينهما تتجاوز الأحاديث البسيطة في المحل عن الغسالات والمجففات. قلت: آه آه، فاز في النهاية الصبر الشديد، وحصل بيلي

(١) لوندرومات: علامة تجارية تستخدم مؤسسات تجارية مزودة بغسالات ومجففات تعمل بالعملة.

الضئيل اللطيف على ما أراد. رمتني بوحدة من نظراتها الشيطانية، وقالت: أحيانا وليس دائما. يعتمد الأمر على الحالة المزاجية.

لم تبذل كثيرا من الجهد لتبقيني، لم تكن مسألة البواب إلا إجراء مؤقتا، وظهر شيء أفضل، ما كان لي أن أتردد في تغيير خططي، بالطبع لم يكن الراتب إلا جزءا صغيرا من الموضوع. عدتُ إلى حيث أنتمي، وحين دعنتي مسز ويدرسيون إلى التقدم وشغل الوظيفة القديمة التي كان يشغلها بيلي، أخبرتها بأنني سأبدأ في الصباح. لم تكن طبيعة العمل تهمني. لو طلبت مني أن أبقى لأغسل الأواني في مطبخها لو افقتُ أيضا.

نمت في غرفة الدور العلوي نفسها التي شغلتها في صباي، وبمجرد أن تعلمت العمل، رأت أنني أؤديه بشكل جيد تماما. ظلت الغسالات تعمل، وارتفعت الأرباح، وأقنعتها بالتوسع في اتجاهات مختلفة: صالات بولينج، محلات بيتزا، أروقة بينبول. مع تدفق طلبة الجامعة إلى البلدة كل خريف، كان هناك احتياج لوجبة سريعة وتسلية رخيصة، وكنت فقط الرجل الذي يقدم هذه الأشياء، أقضي ساعات طويلة وأبذل قصارى جهدي، لكنني أحببت أن أكون مسئولاً عن شيء ما مرة أخرى، وتبين أن معظم الخطط كانت رائعة تماما. نادتني مسز ويدرسيون براعي البقر، وكان ذلك إطراء من فمها، وعلى مدار السنوات الثلاث أو الأربع الأولى اندفعنا في مرح. وفجأة، مات بيلي. أصيب بأزمة قلبية أخرى، لكن هذه الأزمة حدثت في نادي «شيروكي أكرس كونتري»، وحين وصل الأطباء كان قد لفظ بالفعل آخر أنفاسه. دخلت مسز ويدرسيون في حالة تشوش ذهني بعد ذلك، توقفت عن الذهاب إلى المكتب معي في الصباح، وتدرجيا بدا أنها تفقد الاهتمام بالشركة، تاركة معظم القرارات في

يدي، وكنت قد مررت بشيء يشبه ذلك مع مولي، لكن لم يكن من الملائم أن أقول لها إن الزمن كفيف بمعالجة المسألة، كان الزمن الشيء الوحيد الذي لا تمتلكه، عبدها الرجل خمسين سنة، ورحل، ولن يحل مكانه أحد.

وسط ذلك، سمعتها ذات ليلة تنتحب عبر الحائط وأنا أستلقي في الدور العلوي أقرأ في السرير، نزلت إلى غرفتها، تحدثنا بعض الوقت، ثم أخذتها بين ذراعي حتى استغرقت في النوم. بشكل أو آخر، استغرقت في النوم أيضا، وحين استيقظت في الصباح وجدت أنني راقد تحت الغطاء معها في سرير كبير لشخصين، السرير الذي شاركت فيه الأستاذ يهودي في الأيام الغابرة، وجاء دوري لأنام بجوارها، لأكون الرجل الذي لا يمكن أن تعيش دونه، كنت غالبا مصدرا للارتياح، للصحبة، لتفضيل النوم في سرير واحد على النوم في سريرين، لكن ذلك لا يعني أن الفراش لم يكن يشتعل من وقت لآخر، مجرد أن تكبر لا يعني أن تكف عن الشعور بالرغبة، ومهما تكن المخاوف التي انتابتنني بشأن الموضوع في البداية فقد تلاشت سريعا. وعلى مدار السنوات الإحدى عشرة التالية عشنا معا مثل زوج وزوجة، لم أشعر قط بأن على أن أعذر عن ذلك، في سالف العصر والأوان كنت صغيرا بما يكفي لأن أكون ابنها، لكنني الآن أكبر من معظم الجدود، وحين تصل إلى ذلك العمر، لا يكون عليك أن تلعب وفقا للقواعد، تذهب إلى حيث تذهب، وتفعل كل ما يجعلك تواصل الحياة، ذلك ما تفعله.

بقيت في صحة جيدة معظم الوقت الذي قضيناه معا. في منتصف الثمانينيات من عمرها لا تزال تتناول كأسين من الويسكي قبل العشاء وتدخل السجائر أحيانا، ورأيتها في معظم الأيام تواتيها الشجاعة

لترتدي ملابسها وتخرج في جولة في سيارتها الكاديلك الكبيرة الزرقاء. عاشت حتى التسعين أو الحادية والتسعين (لم يكن واضحاً على الإطلاق في أي قرن ولدت)، ولم تسؤ بها الحال إلا في شهورها الأخيرة من الثمانينيات أو نحو ذلك، قرب النهاية صارت كفيفة تقريباً، صماء تقريباً، عاجزة تقريباً عن النهوض من السرير، لكنها بقيت كما كانت رغم كل ذلك، وبدلاً من أن أضعها في دار للمسنين أو أستأجر ممرضة لتقوم برعايتها، تخلصت من أعمال الشركة وقمت بنفسى بالأعمال القذرة؛ كنت مديناً لها بالكثير، أليس كذلك؟ كنت أحميها وأسرح لها شعرها؛ وأحملها في المنزل بين ذراعي؛ وأجفف البراز من مؤخرتها كلما فعلتها، بالضبط كما جففتني ذات يوم.

كانت الجائزة رائعة، تأكدت من ذلك ولم أقصر الأمر على الخاصة. صار كل شيء ملكي- المنزل والسيارات، النقود التي كسبتها لنفسها، والنقود التي كسبتها لها - وحيث إنه كان في الجرة ما يكفيني لأعيش خمسا وسبعين سنة أخرى أو مائة سنة، قررت أن أعد لها وداعاً ضخماً، أضخم حدث رأته ويتشيتاً على الإطلاق، مائة وخمسون سيارة في موكب إلى المقبرة. كان المرور متشابكاً لعدة أيام، وبمجرد انتهاء مراسم الدفن، احتشدت الجموع في المنزل حتى الثالثة صباحاً، يتجرعون الخمر ويلتهمون الديوك الرومي والكيك. لست بصدد أن أقول: إنني كنت شخصاً مرموقاً في المجتمع، لكنني اكتسبت بعض الاحترام لنفسى بمرور السنوات، وكان الناس في البلدة يعرفون حقيقتي. حين طلبت منهم أن يأتوا من أجل ماريون، جاءوا في جموع هائلة.

كان ذلك قبل عام ونصف، على مدى شهرين كنت أتسكع حول المنزل، غير متأكد مما عليّ أن أفعله بنفسى، لم أغرم يوماً بتنسيق

الحدائق، وأصابني الملل من الجولف حين لعبته مرتين أو ثلاثا، وفي السادسة والسبعين لم تكن لدي أية رغبة للدخول في البيزنس مرة أخرى. كان البيزنس جميلاً بسبب ماريون، لكن دون وجودها حولي لتحيي الأشياء، لم يكن هناك هدف. فكرت في الابتعاد عن كانساس لبضعة أشهر ورؤية العالم، لكن قبل أن أضع أية خطط محددة، أنقذتني فكرة كتابة هذا الكتاب، لا يمكن أن أعرف حقاً كيف حدث ذلك. طرأت لي الفكرة ذات صباح وأنا أبرح السرير، وبعد أقل من ساعة كنت أجلس إلى مكتب في بهو الدور العلوي وفي يدي قلم، أكتب الجمل الأولى. لم يكن لدي شك في أنني أفعل شيئاً ينبغي أن يُفعل، وكانت قناعتني قوية جداً، وأدرك الآن أن الكتاب لا بد أنه أتاني في حلم- لكنه أحد تلك الأحلام التي لا يمكن أن تتذكرها، الأحلام التي تتلاشى بمجرد أن تنهض وتفتح عينيك على العالم.

أعمل فيه يومياً منذ أغسطس الماضي، مندفعاً من كلمة إلى أخرى بخط رجل عجوز يفنقر إلى البراعة. بدأت بكراسة مدرسية للتعبير من متجر يبيع أشياء متنوعة، كراسة بغلاف سميك مرمرى أبيض وأسود وسطور زرقاء متباعدة، وملأت الآن ثلاث عشرة منها تقريباً، أعمل باستمرار في كراسة شهرية، لم أطلع أحداً على كلمة منه، والآن وأنا على وشك النهاية، أبداً التفكير في أنه ينبغي أن يبقى على هذه الحال - على الأقل ما دام يرمش لي جفن، كل كلمة في هذه الكراسات الثلاث عشرة حقيقية، لكن يمكنني أن أراهن تماماً على أنه ليس هناك كثير من الناس يمكن أن يستسيغوا ذلك، ولا يرجع ذلك إلى أنني أخشى أن يُقال عليّ كذاب، لكنني الآن عجوز جداً بشكل لا يسمح لي بأن أضيع وقتي في الدفاع عن نفسي أمام الحمقى. غرقت فيما يكفي من الشك في توماس وأنا والأستاذ يهودي

على الطريق، ولدي ما هو أكثر أهمية، أشياء أخرى لأبقى مشغولاً بعد الانتهاء من هذا الكتاب، أول شيء في صباح الغد، سأذهب إلى البنك وسط المدينة وأضع المجلدات الثلاثة عشر في الصندوق الخاص بي. وأذهب إلى المحامي جون فوسكو، وأطلب منه أن يضيف عبارة إلى وصيتي تنص على أن محتويات الصندوق ينبغي أن تترك لابن أخي زوجتي، دانييل كوين. سيعرف «دان» كيف يتصرف بشكل جيد مع ما كتبت، يصحح الأخطاء الإملائية ويكلف أحداً بكتابة نسخة منقحة، وبمجرد نشر «مستر فيرتيجو»، لن أكون هناك لأشاهد المستقلين والبلهاء يحاولون قتلي، سأكون ميتاً بالفعل، ويمكنك أن تتأكد من أنني سأسخر منهم - من أعلي أو أسفل، مهما تكن الحالة.

على مدى السنوات الأربع الماضية كانت شغالة تأتي إلى المنزل عدة مرات أسبوعياً. اسمها يولاندا أبراهام، وهي من إحدى الجزر الحارة- جاميكا أو ترينيداد^(١)، نسيت. لا يمكن أن أقول إنها امرأة ثرثارة، لكننا تعارفنا بما يكفي لأن نكون على علاقة حميمة إلى حد ما، وقد ساعدتني كثيراً في الشهور الأخيرة من حياة ماريون. عمرها يتراوح بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، امرأة سوداء ملتفة القوام بمشيية بطيئة رشيقة وصوت جميل. بقدر ما أعرف، يولاندا ليست متزوجة، لكن لديها طفل، ولد في الثامنة اسمه يوسف. كل يوم أحد على مدار السنوات الأربع الماضية، تبقى ابنها في المنزل معي وهي تقوم بعملها، وبملاحظة هذا الطفل عملياً لفترة تزيد على نصف عمره، يمكن أن أقول بكل إنصاف إنه مزعج جداً،

(١) جاميكا: جزيرة في البحر الكاريبي جنوب كوبا. ترينيداد: جزيرة في الأطلنطي، شمال شرق فنزويلا.

مشاغب صغير ينطق بالحكمة، رسالته الوحيدة على الأرض نشر القوضى والضغينة. وكان يوسف من أبشع الأطفال الذين وقعت عيناى عليهم، له وجه من تلك الوجوه الصغيرة الخشنة الهزيلة غير المتناسقة، وجسد ترافقه حزمة نحيلة محزنة من العظام - حتى لو قورن رطلاً لرطل يكون أقوى وأكثر ليونة من أجسام المدافعين في الاتحاد الوطني لكرة القدم. أكره الطفل لما فعله بقصبتي ساقى، وإبهامى، وأصابع قدمي، لكنني أيضًا أرى نفسى فيه حين كنت في عمره، وحيث إن وجهه يشبه وجه أيسوب إلى درجة مروعة تقريبًا. مما جعل أنفاسنا أنا وماريون تتوقف حين رأيناه يدخل المنزل أول مرة- فإنني أغفر له باستمرار كل شيء، لا حيلة لي في ذلك. الولد بداخله الشيطان؛ إنه مندفع وفظ وغير قابل للتقويم، لكنه متقد بنار الحياة، ويسعدني أن أشاهده وهو يندفع مباشرة إلى لجة مشكلة، بمشاهدة يوسف أعرف الآن ما رآه في الأستاذ، وأعرف ما كان يعنيه حين قال لي إن لدي الموهبة، هذا الولد لديه الموهبة أيضًا. لو استطعت أن أحشد شجاعتي وأحدث إلى أمه، لأخذته تحت جناحي في ثانية، وأحوله في ثلاث سنوات إلى الولد العجيب التالي، ويبدأ حيث حلقتُ، وبعد وقت قصير يمكنه أن يمضي أبعد مما ذهب أي شخص آخر- يا يسوع- يمكن أن يكون ذلك ما أعيش لأجله، أليس كذلك؟ يمكن لذلك أن يجعل العالم كله يغني مرة أخرى.

المشكلة ثلاث وثلاثون خطوة. أن أخبر يولاندا بأنني أستطيع أن أعلم ابنها أن يطير مجرد خطوة، لكن بمجرد أن نجتاز تلك العقبة، ماذا عن بقية العقبات؟ ربما حتى أشمنز من التفكير في ذلك، وقد مررت أنا نفسي بكل ذلك العذاب وتلك البشاعة، كيف يمكن أن أحتمل ممارستها على شخص آخر؟ لم يعد هناك رجال مثل الأستاذ

يهودي ولم يعد هناك ولد مثلي أيضا: غبي وحساس وعنيد، كنا نعيش في عالم مختلف، ولم تعد الأشياء التي فعلتها أنا والأستاذ ممكنة اليوم، لا يمكن أن يقبلها البشر. قد يستدعون الشرطة، وقد يكتبون لئانهم في الكونجرس، وقد يستشيرون طبيب العائلة، لم نعد أقوياء كما كنا، وربما يكون العالم أفضل نتيجة لذلك، لا أعرف. لكنني أعرف أنك لا تستطيع أن تحصل على شيء دون مقابل، وكلما كان ما تريده أكبر، يكون عليك أن تدفع أكثر.

ويبقى أنني حين أفكر في بدايتي المفزعة في سيبولا، لا أستطيع إلا أن أتساءل عن قسوة طرق الأستاذ يهودي، حين حلقت بعيداً عن الأرض لأول مرة، لم يكن ذلك نتيجة لشيء علمني إياه، فعلته بنفسني على أرض المطبخ البارد، وجاء ذلك بعد فترة طويلة من النحيب واليأس، حين بدأت روحي تندفع من جسدي ولم أدرك حقيقتي. ربما كان اليأس الشيء الوحيد المهم حقاً، في تلك الحالة، لا تكون المحن الجسدية التي عرضني لها إلا عاراً، انحرافاً ليخدعني بالاعتقاد بأنني أصل إلى مكان ما - ولم أكن في الحقيقة في أي مكان حتى وجدت نفسي أرقد ووجهي على أرض ذلك المطبخ. ماذا لو لم تكن هناك خطوات في العملية؟ ماذا لو حدث كل شيء في لحظة - قفزة - لحظة مشرقة من التحول؟ تدرب الأستاذ يهودي في المدرسة القديمة، وكان ساحراً في جعلي أو من بما قدمه من هراء وكلام كبير، لكن ماذا إن لم تكن طريقته الطريقة الوحيدة؟ ماذا لو كانت هناك طريقة أبسط ومباشرة أكثر، مقاربة تبدأ من الداخل وتتجاوز الجسد تماماً؟ ماذا إذن؟

لا أوْمَن، في أعماقي، بأن الشخص يحتاج إلى موهبة خاصة
ليرتفع عن الأرض ويخلق في الجو، نمتلك جميعا هذه الموهبة
في داخلنا- كل رجل وامرأة وطفل- وبقدر كاف من العمل الجاد
والتركيز، يستطيع كل إنسان تكرار المآثر الذي حققتها وأنا والت
الولد العجيب، كف عن أن تكون نفسك؛ هنا يبدأ الأمر، ويتبع
ذلك كل شيء آخر، اترك نفسك تتبخر، اترك عضلاتك تتراخي،
وتتنفس حتى تشعر بروحك تندفع خارجة منك، ثم أغلق عينيك. هكذا
يتحقق الأمر، يصبح الخواء داخل جسمك أخف من الهواء حولك.
وتدريجيا، ينعدم وزنك. تغلق عينيك؛ تفرد ذراعيك؛ تترك نفسك
تتبخر، ثم ترتفع تدريجيا عن الأرض.
هكذا.

بول أوستر

· روائي وشاعر أمريكي، من أصول بولندية. ولد في 3 فبراير 1947، بعد تخرجه من جامعة كولومبيا انتقل إلى باريس في 1970، حيث عمل مترجمًا للأدب الفرنسي حتى عودته إلى أمريكا في 1974. وفي تلك الفترة نشر شعرًا ومقالات وقصصًا وترجمات لكتاب فرنسيين. حصل أوستر على عدد كبير من الجوائز. ومن أشهر أعماله "ثلاثية نيويورك" (1987)، "قصر القمر" (1989)، "موسيقى الصدفة" (1990)، "مستر فيرتيجو" (1994)، "تيمبوكتو" (1999)، "كتاب الأوهام" (2002)، "حمقى بروكلين" (2005).

المترجم فى سطور:

الشاعر عبد المقصود عبد الكريم

- من مواليد قرية "طنامل" بمحافظة الدقهلية، أول يونيو ١٩٥٦.
- استشاري الطب النفسي والأعصاب.

من أهم أعماله:

* الشعر:

- أزدهم بالممالك: أصوات، ١٩٨٠.
- أزدهم بالممالك (١٩٨٨): الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
- يهبط الحلم بصاحبه: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٣، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٧.
- للعبد ديار وراحلة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.
- يوميات العبد على حافة بئر الأميرة: ٢٠١٢، هيئة الكتاب.

* الترجمة:

- فنتازيا الغريزة، د. ه. لورانس: دار الهلال، ١٩٩٣.
- الحكمة والجنون والحماسة، ديفيد روبرت لانج: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.
- نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، بشبندر: الهيئة المصرية

- العامّة للكتاب، ١٩٩٦، طبعة ثانية، مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.
- قصر الضحك، زبجنيف: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٧.
- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، مجموعة من المؤلفين، إعداد وترجمة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩.
- الرجل البطيء، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٧.
- إسطنبول: المدينة والذكريات، أورهان باموق: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٨.
- إليزابيث كستلو، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٨.
- العار، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٩.
- أنا أورهان والي، مختارات من شعر أورهان والي: سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩.
- القصر الزجاجي، أميتاف جوش: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩.
- فرويد وبروست ولاكان، مالكولم بوي: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩.
- أفكار شكسبير، أشياء أخرى في السماء والأرض، ديفيد فينجتون: دار آفاق بالتعاون مع المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

- الجاذبية المميّنة، سوزان ليونارد: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.
- داي، أ.ل. كيندي، سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
- الإعداد والانتحال، جولي ساندروز، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.
- على ونينو، رواية، قربان سعيد، سلسلة آفاق عالمية، ٢٠١٠.
- فضائح الترجمة، لورانس فينتي، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.
- الشخصية واضطرابات الشخصية والعنف، تحرير: ماري ماكوران وريتشارد هوارد، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢.
- القصص الفائزة بجائزة أوه هنري عام ٢٠٠٧، ٢٠١١، سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ستيف جوبز: بولمز بري - مؤسسة قطر، ٢٠١٢ .
- البحث عن الوعي، كريستوف كوتش، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣.
- قصر القمر، بول أوستر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥.

التصحيح الغوى : حمادة نجيب

الإشراف الفنى : حسن كامل

كُنْتُ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ حِينَ سَرْتُ عَلَى الْمَاءِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. عَلَّمَنِي الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ السُّودَاءِ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، وَلَنْ أَتْظَاهِرَ بِأَنَّنِي تَعَلَّمْتُ الْحِيلَةَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا. عَثَرْتُ عَلَى الْأُسْتَاذِ وَأَنَا فِي التَّاسِعَةِ، وَكُنْتُ وَلَدًا يَتِيمًا يَتَسَوَّلُ السِّنْتَاتِ فِي شَوَارِعِ "سَانْتِ لُويس"، وَعَمِلَ مَعِيَ بِدَأْبٍ لثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ قَبْلَ أَنْ يَتْرَكَنِي أَعْرَضَ أَعْمَالِي عَلَانِيَةً. كَانَ ذَلِكَ فِي 1927، سَنَةِ "بِيبْ رِث" وَ"تشارلز ليندبرج"، السَّنَةِ الَّتِي بَدَأَ فِيهَا اللَّيْلُ يَسْقُطُ عَلَى الْعَالَمِ إِلَى الْأَبَدِ. ظَلَلْتُ أَقُومُ بِهَا إِلَى مَا قَبْلَ انْهِيارِ أُكْتُوبَرِ بِأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، وَكَانَ مَا قَمْتُ بِهِ أَعْظَمَ مِمَّا حَلَمَ بِهِ هَذَانِ الشَّخْصَانِ. فَعَلْتُ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَمْرِيكِيُّ قَبْلِي، وَلَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ مِنْ حِينِهَا.

اخْتَارَنِي الْأُسْتَاذُ لِأَنَّنِي كُنْتُ الْأَضْأَلُ جِسْمًا وَالْأَقْدَرُ وَالْأَكْثَرُ خَسَةً. قَالَ: "لَسْتُ أَفْضَلَ مِنْ حَيَوَانَ، إِنَّكَ جِزْءٌ مِنَ الْعَدَمِ الْإِنْسَانِيِّ." هَذِهِ أَوَّلُ جُمْلَةٍ قَالَهَا لِي، وَرَغْمَ مَرُورِ ثَمَانِيَةِ وَسْتِينَ عَامًا عَلَى تِلْكَ اللَّيْلَةِ، يَبْدُو وَكَأَنَّنِي مَازَلْتُ أَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ تَنْبِيعُثُ مِنْ فَمِ الْأُسْتَاذِ: "لَسْتُ أَفْضَلَ مِنْ حَيَوَانَ. سَتَمُوتُ قَبْلَ انْتِهَاءِ الشِّتَاءِ إِذَا بَقِيتَ حَيْثُ أَنْتَ. وَسَأَعْلَمُكَ كَيْفَ تَطِيرُ إِذَا أُتِيَتْ مَعِي".